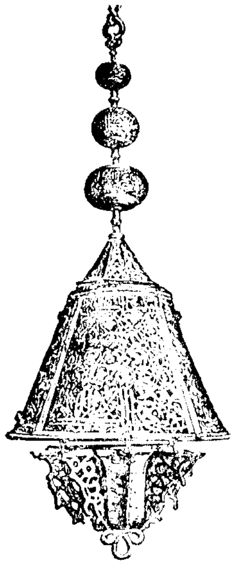
الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التعليم العالى ، الادارة العامة ...

صحيفة
معهد الدراسات الإسلامية
في مدريد



المجلد الثالث عشر

مدريد ١٩٦٥ — ١٩٦٦

الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التعليم العالى ، الادارة العامة للعلاقات الثقافية

صحيفة
معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد

يصدرها معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد
رئيس التحرير : مدير معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد

العنوان : معهد الدراسات الاسلامية
فرانثيسكو دى أسيس مندث كاساريجو رقم ١٠ مدريد ٢ ، اسبانيا

المجلد الثالث عشر — مدريد ١٩٦٥ — ١٩٦٦

العدد ١٣
١٩٦٦/٦٥

فهرس القسم العربي

أبحاث ونصوص

الكتب : نقد وعرض

أنباء

ثمن هذا العدد

٣٠٠ قرشاً مصرياً أو ٤٢٠ بيزيته إسبانية أو ٦ دولارات

طبعت بمطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد
١٩٦٥ — ١٩٦٦

تاريخ الأندلس لابن الكردبوس

ووصفه لابن الشباط

نصان جديدان

مقدمـــة :

هذان نصان جديدان يكمل أحدهما الآخر ، الأول يتناول تاريخ الأندلس ، وهو قطعة من كتاب « الاكتفاء فى أخبار الخلفاء[1] » ، للمؤرخ التونسى أبى مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى أو الثانى عشر الميلادى ، ولا نعرف سنة وفاته .

والنص الثانى يتناول وصف الأندلس أو جغرافيته ، وهو أيضاً قطعة من كتاب « صلة السمط وسمة المرط » للمؤرخ التونسى محمد بن على بن محمد بن الشباط المصرى التوزرى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى وتوفى بمدينة توزر سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) .

فالنصان كما هو واضح متكاملان ، ويتضمنان موضوعاً واحداً وهو الأندلس ، ومؤلفاهما أيضاً من بلد واحد ، وهى مدينـــة توزر إحدى بلاد

(١) يذكرنا عنوان هذا الكتاب بعنوان كتاب آخر ألف فى نفس الوقت تقريباً وهو « كتاب الاكتفاء فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفاء » ، لأبى الربيع سالم الكلاعى البلنسى الذى استشهد أثناء قتاله لخايمه الأول ملك أراجون عند عقبة أنيشه Puig شمالى بلنسية فى ذى الحجة ٦٣٤ هـ. وهذا الكتاب فى الواقع عبارة عن سيرة ابن إسحاق مجردة من الشروح اللغوية والأسناد والأشعار حتى يسهل على عامة الناس قراءته . وقد نشر الجزء الأول منه فى الجزائر بعناية المستشرق الفرنسى هنرى ماسيه . راجع (حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الأندلس ص ١٠٧ — ١٠٩ (المكتبة الثقافية رقم ١٤٧ القاهرة ١٩٦٥) ؛ محمد بن شريفة : أبو المطرف بن عميرة ص ٦٧ — ٦٨) .

قسطيلية بافريقية أو تونس . وقد عاش كلاهما فى عصر واحد أو متقارب فيما بين القرنين السادس والسابع الهجرى . كذلك كانت لكليهما صلة علمية أو روحية بالديار المصرية . قلب العروبة والإسلام فى كل زمان .

النص الأول

أما عن النص الأول ، فمعلوماتنا عن صاحبه ابن الكردبوس[١] قليلة جداً للأسف . كل ما هو معروف عنه هو أنه عاش فى مدينة توزر التونسية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى[٢] . وقد أمدنا ابن الشباط — صاحب النص الثانى — ببعض المعلومات الجديدة عن حياة ابن الكردبوس واسمه كاملا ، وذلك عند كلامه عن العالم المحدث الحافظ أبى الطاهر السِلَفى الشافعى نزيل الاسكندرية والمتوفى بها سنة ٥٧٦ هـ ، إذ يقول : « والسلفى — بكسر السين وفتح اللام — وهو إمام فى الحديث مشهور طال عمره (ت ٥٧٦ هـ) ، وكان ممن أدرك أبا محمد الحريرى رحمه الله ، وروى عنه المقامات ، وروى أيضاً عن أبى زكرياء التبريزى ، وشهرته تغنى عن ذكره ، وهو شيخ الفقيه أبى مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى رحمه الله[٣] » . وهذه الاشارة ترجح أن ابن الكردبوس قد درس على السلفى بالاسكندرية أى أنه عاش فى مصر فترة من حياته .

---

(١) لعل هذا الاسم تحريف للكلمة الاسبانية ، الكردوبيس El Cordobés ومعناها القرطبى وهذا قد يعنى أنه من أصل أندلسى .

(٢) راجع Pons Boigues: *Ensayo Bio-Bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos Arábigo-Españoles* p. 414 (Madrid 1898).

Wustenfeild F.: *Die Geschichtschreiber der Araber* p. 105 N° 298, (Gottingen 1882).

Brockelmann: *Geschichte der Arabischen Litteratur*, Vol. I, p. 421, S. I. p. 587.

(٣) راجع ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط جـ ٢ ورقة ١٢٤ (مخطوط بالمتحف البريطانى)

وعن ترجمة السلفى راجع (السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٧ (طبعة محي الدين عبد الحميد) ، الزركلى : الأعلام جـ ٤ ص ٢٤٢ ، ليفى بروفنسال : كتالوج الاسكوريال جـ ٣ ص ٢٨١ رقم ١٧٨٣ ، جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية . . . ص ١٢٩ =

هذا فيما يتعلق بالمعلومات التى لدينا عن كاتب النص الأول ، أما عن كتابه الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، فهو لا يزال مخطوطاً ، وتوجد منه عدة نسخ فى جهات مختلفــة نذكر منها : نسخة المكتبة الكتانية بخزانة الرباط (ك ٢٣٣٨) ، ونسخة مدينة تطوان ونسختين بمكتبة جاينجوس التى اندمجت الآن فى مكتبة الاكاديمية الملكية للتاريخ فى مدريد (رقم ٥٦ ، ا ٥٦) ، ونسخة بجامعة الزيتونة بتونس . هذا إلى جانب نسختين غير كاملتين ، احداها فى مدرسة تلمسان[١] ، والأخرى فى المكتبة الوطنية بمدريد[٢] .

وهذا الكتاب ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : ويتناول تاريخ الدولة العربية مبتدئاً بسيرة الرسول (صلعم) وتاريخ الخلفاء الراشدين ثم خلفاء بنى أمية : وينتهى هذا القسم بالكلام عن دولة بنى أمية بالأندلس على اعتبار أنها امتداد لتاريخ الأمويين فى المشرق . إلا أن ابن الكردبوس لم يقتصر على ذلك ، بل أعطانا على سبيل الاستطراد تاريخاً مختصراً للأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى أوائل عصر الموحدين أو بالأحرى حتى بداية عهد الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذى حكم من سنة ٥٥٨ إلى سنة ٥٨٠ هـ . وقد حرص المؤلف على التنويه بذلك فى نهاية

= وقد ترجم له أيضاً ابن الشباط (نفس المرجع السابق ورقة ١٢٥) حيث يقول على لسان ابن الخراط الاشبيلى صاحب اختصار اقتباس الأنوار (ت ٥٨١ هـ) « والسلفى ، بكسر السين ، ينسب إلى جده . وهو أبو الطاهر أحمد بن محمد بن ابراهيم بن سلفة السلفى الاصبهانى نزيل الاسكندرية وهو الآن حى بها يدرس العلم ، أشار الرشاطى صاحب اقتباس الأنوار إلى وقته وهو سبع وعشرين وخمسمائة وفى موضع آخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة وعاش السلفى بعد ذلك طويلا ، ففى كتاب الشوق الشامى (كــذا والمعروف أنه البرق الشامى للعمادى الأصفهانى) أن صلاح الدين رحمه الله خرج من القاهرة للسماع منه سنة اثنين وسبعين وخمسمائة وفى كتاب الفقيه أبى حجاج رحمه الله ما يدل على لقائه إياه وسماعه منه سنة ثلاث وسبعين » .

(١) انظر (O. Houdas et René Basset: *Mission Scientifique en Tunisie*, pp. 5-65, *Bulletin de Correspondence Africaine,* année 1884).

(٢) انظر Guillén Robles: *Catálogo de los manuscritos de Madrid*, pp. 70-71, N°. CXXXIX, (Madrid, 1889).

هذا القسم الأول حيث يقول : كملت دولة بنى أمية وما أضيف إليها من أخبار الأندلس .

أما القسم الثانى من الكتاب ، فيتناول تاريخ الخلفاء العباسيين حتى بداية عصر الخليفة المسترشد العباسى (٥١٢ — ٥١٦ ﻫ) .

والنص المنشور هنا من كتاب الاكتفاء ، هو الجزء الخاص بتاريخ الأندلس المذكور فى آخر القسم الأول منه . وقد اعتمدنا فى نشره على النسخ الكاملة من هذا الكتاب ، وهى نسختا الرباط [١] وتطوان ، ونسختا الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد [٢] .

وعلى الرغم من أن هذا القسم الأندلسى لم ينشر حتى الآن ، إلا أن عدداً من المستشرقين الأوربيين قد اهتموا به اهتماماً كبيراً ، واعتمدوا عليه فى كتاباتهم التاريخية . ومن هؤلاء نذكر العالم الإسبانى باسكوال دى جاينجوس الذى ترجم معظم هذا النص إلى اللغة الإنجليزية فى آخر كتابه المعروف باسم ، تاريخ الدول الإسلامية فى اسبانيا [٣] . إلا أنه يلاحظ أن جاينجوس فى هذه الترجمة قد أخطأ حينما افترض أن مؤلف كتاب الاكتفاء هو أبو جعفر بن عبد الحق الخزرجى القرطبى ، الذى عاش أيضاً فى القرن السادس الهجرى [٤] . كذلك نذكر المستشرق الهولندى رينهارت دوزى الذى نشر جزءاً من هذا النص ، وهو الجزء المتعلق بفترة ملوك الطوائف [٥] . ولم يقتصر دوزى على ذلك ، بل أثبت وجود تشابه بين

---

(١) رقم ك ٢٣٥٨ ، اللوحات رقم ٢٠٧ إلى ٢٢٧ وقد رمزنا لها بحرف (م) .

(٢) رقم ٥٦ ، اللوحات ٩٩ إلى ١٠٩ ، ورقم I, ٥٦ اللوحات ١٥٢ إلى ١٦٧ (جاينجوس) وقد رمزنا لهما بحرف ج ، ج I وقد اعتمدنا على نسختى الاكاديمية التاريخية كأصل .

(٣) انظر (Pascual de Gayangos: *History of Mohammedan dynasties in Spain*, Vol. I, appendix D.; Vol. II, appendix C).

(٤) راجع (P. Gayangos: Op. cit. vol. I, Pref. xxii, appendix D, p. xlii.)

(٥) راجع (R. Dozy: *Scriptorum arabum Loci de Abbadidis*, Vol. II, pp. 11-27, Vol. III, p. 189 (Brill 1852).

R. Dozy: *Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne* II, p. XVII-XXII y p. 45, (3 edition, Amsterdam 1965).

نص ابن الكردبوس وبين الحولية التاريخية الإسبانية المعروفة باسم La Primera Crónica General التى وضعها الملك الإسبانى الفونسو العاشر المعروف باسم العالم El Sabio فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا يعنى أن الحولية الاسبانية المذكورة قد نقلت كثيراً مما ورد فى كتاب الاكتفاء[١] .

هذا ويذهب المؤرخ الاسبانى الكبير مننذث بيدال إلى أن ابن الكردبوس قد استوحى كثيراً من معلوماته حول السيد القمبيطور El Cid Campeador وحوادث بلنسية فى ذلك الوقت (٤٧٨ — ٤٩٥ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٢ م) ، من كتاب البيان الواضح فى الملم الفادح للمؤرخ البلنسى أبى عبد الله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة (ت سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م)[٢] .

وكيفما كان الأمر ، فإنه على الرغم من كل هذه الدراسات القيمة التى كتبت حول كتاب الاكتفاء ، فإن هذا الكتاب بما فى ذلك الجزء الخاص بتاريخ الأندلس لم ينشر حتى الآن . وإننى اكتفى حالياً بنشر الجزء الأندلسى راجياً أن تتاح لى فرصة نشر الكتاب كله فى المستقبل إن شاء الله .

---

(١) انظر R. Dozy: *Recherches*, II, pp. 44-45. &
Cesar Dobler: *Las fuentes árabes y bizantinas en la Primera Crónica General, Vox Románica*, XII, 1951.

(٢) راجع R. Menéndez Pidal: *La España del Cid.* II, pp. 975-892 (Madrid, 1947).
هذا ومن المعروف أن ابن علقمة ولد فى بلنسية سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) وتوفى بها سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥م) وقد عاصر الأحداث المفجعة التى مرت بها بلنسية عند سقوطها فى يد القائد القشتالى السيد القمبيطور ، وقد ألف فى هذا الصدد كتابا سماه البيان الواضح فى الملم الفادح وذلك قبل سنة ٥٠٠ هـ ولقد ضاع هذا الكتاب للأسف ولكن نقل عنه عدد من المؤرخين الذين جاءوا بعده أمثال ابن الكردبوس وابن عذارى وابن الأبار وابن الخطيب . كذلك نقلت عنه بعض الحوليات التاريخية الاسبانية ونخص بالذكر منها حولية الفونسو العالم السالف الذكر .
راجع (Pons Boigues: *Ensayo Bio-Bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos Arábigo-Españoles*, pp. 175-176 (Madrid, 1893).
راجع كذلك (عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٢٤١ ، القاهرة ١٩٦٠)

والواقع ان ابن الكردبوس فى هذا الجزء الأندلسى ، لم يذكر للأسف المصادر التى استقى منها معلوماته والتى اعتمد عليها فى كتابة هذا الجزء من تاريخه ، إلا أنه على أية حال قد حمل إلينا مادة خصبة قيمة تمتاز عموماً بدقتها وعمق نظرتها ، بل إنه فى كثير من الأحيان يأتى بمعلومات جديدة لا نجدها فى المصادر التاريخية الأخرى .

ومن أمثلة ذلك ، وصفه الرائع لعمليات نزول جيوش المسلمين بقيادة طارق ابن زياد إلى الساحل الإسبانى ، وهو وصف ما زال يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم اختلاف الوسائل والعصور . ويظهر ذلك بوضوح عند قوله :

« فمضى طارق لسبتة وجاز فى مراكبه إلى جبل ، فأرسى فيه فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفاً فى موضع وطئ كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه فى البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم » .

فهذا الوصف إن دل على شىء ، فإنما يدل على عظم المقاومة التى لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم فى أرض اسبانيا لدرجة أنهم اضطروا إلى تغيير خططهم العسكرية التى كانت مقررة من قبل ، والنزول ليلا فى مكان آخر صخرى وعر ، مستخدمين فى ذلك براذع الدواب ومجاذف السفن كى تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم .

مثل آخر فريد يرويه لنا ابن الكردبوس ، وهو ذلك الحوار الجميل الذى ساقه بين عاهل الأندلس المنصور بن أبى عامر قبيل وفاته ، وبين حاجبه ومملوكه كوثر الصقلبى . فمن ذلك الحوار يتبين لنا أن المنصور لم يكن ذلك الرجل الجبار العتيد الذى حطم بلاد العدو وخربها ، بل على العكس من ذلك ، كان رجل مصلحاً ومعمراً لبلاد العدو التى غزاها ، وفى ذلك يقول المنصور نفسه :

« لمــا فتحت بلاد الروم ومعاقلهم ، عمرتها بالأقوات من كل مكان ، وسجنتها بها حتى عادت فى غاية الإمكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، وحصنتها غاية التحصين ، فاتصلت العمارة . . الخ » .

ولكن يفهم من الحوار بعد ذلك أن المنصور فى آخر حياته لم يرض عن تلك السياسة الاصلاحية التى سلكها وأنه ندم على تنفيذها ، وتمنى لو أنه كان قد خرب تلك البلاد فعلا كوسيلة لإنقاذ بلاد المسلمين من خطر جيرانهم النصارى فى المستقبل ، وفى ذلك يقول :

« فلو ألهمنى الله إلى تخريب ما تغلبت ، وإخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين والنصارى ، مسيرة عشرة أيام فيافى وقفاراً ، لا يزالون لو راموا سلوكها حيارى ، فلا يصلون إلى بلاد الإسلام إلا بمشقة وكثرة الزاد وصعوبة المرام » .

فهذه الرواية إن صحت ، فإنها تدل على بعد نظر المنصور وصدق حدسه وفراسته إذ لم تلبث توجساته هذه أن تحققت بعد وفاته بفترة وجيزة عندما انهارت الدولة العامرية ثم انهارت على أثرها الدولة الأموية الأندلسية وقامت على انقاضها دويلات ملوك الطوائف الضعيفة المتنازعة ممــا أتاح لملوك اسبانيا فرصة التدخل فى شؤونها ، والعمل على القضاء عليها لولا نجدة المرابطين لها .

وحينما يتكلم ابن الكردبوس عن زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، يسوق على لسان هذا القائد الصحراوى تصريحات هامة لا نجدها فى المصادر الأخرى . ومثال ذلك قوله عندما بلغه أن الملك الفونسو السادس قد تحرك إليه بعد جوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) « لست القاه أبداً ، فإن الهزائم مخلوقة ، وقد كان منا خطأ فى لقائه سنة الزلاقة (أى ١٠٨٦م) ، ولكننى أخرج إليه قوادى بأنجاد أجنادى ، فإن قدر الله بانهزامهم عند التقائهم ، كنت ردءاً لهم من ورائهم » . هذه الرواية — إن صحت هى الأخرى — فإنها تدل على دهاء يوسف بن تاشفين كقائد عسكرى محنك ، وإيمانه بالمبدأ القائل بأن حياة

الجيش مرهونة بحياة قائده خلال المعركة . ولاشك أن يوسف بن تاشفين قد تعلم هذا المبدأ الحربى من معلمه الأول الفقيه عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين الذى يؤثر عنه أنه كان دائماً ينصح بهذا المبدأ لدرجة أنه غضب يوماً على الأمير يحيى بن عمر اللمتونى وضربه بالسوط على رجله لأنه عرض حياته للخطر أثناء القتال وقال له : « إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة جنده وهلاكه هو هلاكهم[(١)] » .

ومن بين الاشارات القيمة التى أمدنا بها ابن الكردبوس ، نصه على اسم وقعة كنشره Consuegra التى انتصرت فيها جيوش المرابطين بقيادة محمد بن الحاج على الملك الفونسو السادس ملك قشتالة وليون سنة ٤٩٠ ﻫ (١٠٩٧ م) فهو بهذا يعتبر أول من أورد الاسم العربى لمكان هذه الموقعة . أما المصادر الإسبانية فقد تكلمت بوضوح عن انتصار المرابطين فى Consuegra وأضافت بأن ابن السيد القمبيطور المسمى دييجو Diego قد قتل فيها .

هذا ويعطينا ابن الكردبوس كذلك معلومات جديدة عن سقوط سرقسطة ثغر المسلمين الأعلى ، فى يد ملك أراجون الفونسو المحارب El Batallador سنة ٥١٢ ﻫ (١١١٨ م) ، وما جرى بعد ذلك لسكانها المسلمين عند مغادرتهم لها . ومن الطريف أن ابن الكردبوس فى هذا الصدد يتكلم بروح المؤرخ المنصف ، إذ يشيد بسياسة هذا الملك الإسبانى وبحسن معاملته لسكان هذا الثغر عندما أخذوا فى الرحيل عنه بجميع أموالهم ومتاعهم ، فلم يتعرض لهم بسوء بل أمر رجاله بمصاحبتهم وتشييعهم إلى آخر حدود بلاده .

هذا وقد أمدنا ابن الكردبوس كذلك بوصف قيم لحصن روطه Rueda بسردابه وأدراجه التى تنيف على الأربعمائه ، وكان هذا الحصن من أعمال مدينة سرقسطة وأحد معاقلها المنيعة فى منطقة الثغر الأعلى .

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الخاص بالمرابطين ، نشره المستشرق الاسبانى أويثى ميراندا فى مجلة *Hésperis-Tamuda*, Vol. II, fasc. I, 1961, p. 49.) .

كذلك لم يفته الكلام عن أحداث الجزر البحرية أو جزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) الواقعة فى شرق الأندلس ، وكانت فى أيام المرابطين قد تعرضت لهجمات أهل جنوا وبيزا الايطاليين ، غير أن أساطيل المرابطين تمكنت بعد ذلك من طردهم وأسر بعض سفنهم .

وبعد ، هذه مجرد نماذج لبعض ما ورد فى هذا النص ، أعرضها على سبيل المثال لا الحصر ، على أساس أن النص برمته منشور فى آخر هذا الكلام ، ويستطيع القارئ أن يطلع عليه بنفسه ويستخرج منه ما يشاء من المعلومات .

النص الثانى

أما النص الثانى فصاحبه كما قدمنا هو محمد بن على بن محمد بن الشباط المصرى التوزرى (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) [١] . وقد كتب هو نفسه تاريخ حياته فقال [٢] بأن أصله من أفارقة مدينة توزر [٣] ثم انتقل جده إلى مصر حيث عاش فى عاصمتها القاهرة واستوطنها ، وولد له هنـاك ولده علىّ والد مؤرخنا . ونشأ علىّ هذا وشبَّ فى القاهرة إلى أن توفى والده محمد ، فرحل

(١) راجع (حسن حسنى عبد الوهاب بمجلة الثريا ، يناير – فبراير سنة ١٩٤٥ ، محمد النيفر : عنوان الأريب ج ١ ص ٤١ — ٦٥ (تونس ١٣٥١ هـ) راجع كذلك :

(Hadi Roger Idris: *La vie intellectuelle en Ifriqiya meridionale sous les Zirides (XI siecle) d'apres Ibn al-Chabbat, melanges D' Histoire et d'Archeologie de l'Occident Musulman, Hommage a Georges Marçais*, tome II, pp. 95-106 (Algerie 1957).

Brunschvig (Robert): *La Berberie Orientale sous les Hafsides des origines a la fin du* XV siecle, tome II, pp. 339, 405 et 407.

(٢) راجع (ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط ورقة ٢٠١) .

(٣) يقول ابن الشباط (نفس المرجع ورقة ١٣٧ ط ، ١٢٢ ط) وتوزر بفتح التاء ويجوز ضمها . وبالضم رأيته بخط الفقيه أبى حفص التوزرى رحمه الله فى اسمه فى آخر كتاب رد ابن قتيبة على ابن أبى القاسم بن سلام فى غريب الحديث .

ونحن نستنتج من كلام ابن الشباط أن النطق العربى لاسم هذه المدينة يتفق تمامـاً مع النطق الأوربى لها وهو Tozeur .

إلى مدينة توزر على هيأة أهل مصر فى لباسهم وكلامهم ، فغلب عليه حينذاك اسم المصرى ، وصار لا يكاد يعرف إلا بذلك ، بل لم يلبث اسم المصرى أن اطلق بعد ذلك على أبنائه من بعده .

ويضيف المؤلف بعد ذلك قائلا بأن والده علىّ سافر فى شبابه من توزر إلى مدينة قسنطينة وسكنها مدة ، وتزوج بها ، وأنجب ولده هذا محمد بن على ابن الشباط . وبعد أربع سنوات عاد علىّ بأسرته ثانية إلى توزر حيث نشأ ابنه محمد نشأة علمية طيبة ، فحفظ القرآن ، وقرأ النحو واللغة والأدب والفقه والأصول على علماء المدينة وعلى غيرهم ممن ورد عليها من الغرباء وكانت جل إفادته بالقراءة على والده وعلى الشيخين أبى عبد الله محمد بن الطولقى — نسبة إلى طولقه من مدن الزاب[١] بالجزائر — وأبى عبد الله محمد بن شمدون[٢] .

وأهم عمل علمى قام به مؤرخنا محمد بن على بن الشباط ، هو شرحه للقصيدة المادحة للرسول (صلعم) التى نظمها فقيه توزرى آخر عاش قبله بنحو قرنين أى فى القرن الخامس الهجرى ، وهو أبو عبد الله محمد الشقراطيسى[٣] (ت ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م) نسبة إلى بلدة شقراطس[٤] التى كانت فى القديم إحدى قصور قفصه قاعدة الجريد جنوبى تونس[٥] .

ولقد اشتهرت هذه القصيدة باسم القصيدة الشقراطيسية نسبة إلى هذا المكان ، وهى قصيدة لامية فى ١٣٥ بيت ، تتناول سيرة الرسول وزهده وكراماته بالمدح والتكريم ، وقد ضمن بها كتابه المعروف بكتاب الإعلام فى معجزات الرسول

---

(١) راجع (ابن الشباط : المرجع السابق ورقة ٢٠٤) .

(٢) راجع (ابن الشباط : المرجع السابق ورقة ٢٠٣) .

(٣) انظر (ابن خير : الفهرسة ج ١ ص ٤١٩ — ٤٢٠) راجع كذلك :
(H. R. Idris: Op. cit. pp. 96-106. و Brock. I. S. p. 473).

(٤) لعلها تعريب لكلمة Sócrates اليونانية .

(٥) راجع (البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤٧ ، نشر دى سلان . (باريس ١٩١١) .

سيد الأنام . ولم تلبث هذه القصيدة الشقراطيسية أن ذاع صيتها ، وكتبت حولها الشروح والتعليقات ، كما استوحى منها فيما بعد العـالم السكندرى البوصيرى [١] (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) قصيدته المعروفة باسم « البردة النبوية فى مدح خير البرية » [٢] وهى فى مدح الرسول أيضاً ، وقد نالت هى الأخرى شهرة واسعة فاقت شهرة الشقراطيسية حتى يومنـا هذا ، كما نقشت أبياتها بأحرف من الذهب على جدران مسجده المعروف بالإسكندرية وهو ملاصق لمسجد أستاذه أبى العباس المرسى .

على أن أحسن الشروح التى كتبت حول الشقراطيسية هو فى الواقع شرح مؤرخنا السالف الذكر محمد بن على بن الشباط فى كتابه المعروف باسم : « صلة السمط [٣] وسمة المرط [٤] فى شرح سمط الهدى فى الفخر المحمدى »

---

(١) هو شرف الدين محمد بن سعيد بن محمد بن محسن الصنهـاجى ، ولد سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٢ م) فى أبى صير بالقرب من دلاص فى مصر الوسطى ، ولهذا سمى بالبوصيرى والدلاصي ثم سكن بلبيس ودرس على أبى العباس المرسى الصوفى الشاذلى بالاسكندرية . وقد اشتهر بقصائده فى الامداح النبوية وأهمها قصيدته المعروفة بالبردة . وسنة وفاته مختلف فيها فالبعض يجعلها فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) أمثال المقريزى وابن شاكر الكتبى ، والبعض الآخر مثل السيوطى يجعلها فى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

(٢) البردة : رداء من الصوف يسدل على الكتفين ، واستعمله العرب قبل الاسلام وبعده ، ويروى أن النبى (صلعم) كانت له بردة من هذا النوع وأنه ألقاها يوماً على كتفى الشاعر كعب بن زهير تعبيراً عن تقديره لشعره . ويقال إن معاوية بن أبى سفيان اشتراها من ولد كعب ثم حفظت بعد ذلك فى خزانة الخلفاء أيام العباسيين . ولما استولى هولاكو على بغداد قيل إنه حاول حرقها ولكنها انقذت من براثنه وهى الآن محفوظة بمدينة القسطنطينة ، أما قصيدة البوصيرى المعروفة بالبردة ، فسمها فى الأصل هو : « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » أما سبب تسميتها بالبردة فيرجع إلى أن البوصيرى مرض يوماً مرضاً عضالا فجاءه الرسول فى المنام وألقى بردته على كتفيه فشفى على الأثر ولم تلبث هذه المعجزة أن ذاعت واشتهرت حتى صار اسم البردة منذ ذلك الوقت عنواناً لهذه القصيدة ، وقصيدة البردة تبدأ بالنسيب على عادة الشعر القديم ثم برثاء الشباب الذى ولى ومضى ثم بمدح الرسول واظهار كراماته ومعجزاته ، وتنتهى القصيدة أخيراً برجوات وشفاعات موجهة إلى الرسول (صلعم) . ولقد اشتهرت هذه القصيدة وذاع صيتها إلى درجة لم تصلها قصيدة أخرى من هذا النوع . كذلك كتبت حولها شروح كثيرة تقرب من المائه ، بالعربية والفارسية والتركية .

راجع Ency. of Islam art. Burda, Busiri by René Bassét و Brunschvig; Op. cit. II, p. 399

(٣) السمط : خيط النظم ما دام فيه الخرز واللؤلؤ .

(٤) المرط : كساء من الصوف أو الخز يؤتزر به .

وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً وتوجد منه نسخة فى تونس ، وأخرى فى المتحف البريطانى برقم ٢١٨٦

ولقد صور معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد هذا المخطوط ، كى أقوم بدراسته ونشر القسم الأندلسى منه .

وقد لاحظت أن هذا الكتاب إلى جانب شروحه اللغوية للقصيدة الشقراطيسية ، قد تضمن معلومات تاريخية وجغرافية هامة عن العالم الإسلامى شرقاً وغرباً .

كذلك لاحظنا أن ابن الشباط — على عكس ابن الكردبوس — كان يحرص دائماً على ذكر المصادر التى نقل منها مادة كتابه ، بل إنه كان يفتخر أحياناً من أنه قد رجع إلى النسخة الكاملة من المرجع الذى قرأه كما هو الحال عند كلامه عن كتاب المسالك والممالك للبكرى (١) أو إلى رجوعه إلى النسخة الأصلية التى كتبها مؤلفها بخط يده كما هو الحال عند كلامه عن كتاب اختصار اقتباس الأنوار لابن الخراط الإشبيلى (٢) ، وهذا يدل على أن ابن الشباط كان يعتنى باختيار أوثق المصادر وأوفاها .

وإذا تصفحنا المصادر التى رجع إليها ابن الشباط فى الجزء الخاص بوصف الأندلس من كتابه ، نلاحظ أن بعضها موجوداً ومنشوراً ، والبعض الآخر ، وهو الغالبية ، إما مفقوداً أو لا يزال مخطوطاً ، وهذا يعنى بالتالى أن ابن الشباط قد حفظ لنا فى كتابه شيئاً هاماً من هذا التراث الإسلامي الضائع .

ومن أهم هذه المصادر التى اعتمد عليها ابن الشباط فى وصفه لمدن الأندلس ، نذكر كتاب اختصار اقتباس الأنوار لأبى محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الإشبيلى المعروف بابن الخراط (٣) . وهذا المؤرخ الفقيه عاش

---

(١) راجع (ابن الشباط : نفس المرجع لوحة ٩٦) .

(٢) المرجع السابق لوحة ١٦١

(٣) راجع (ابن الشباط : المرجع السابق ، اللوحات : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥) .

فى اشبيلية فى أيام المرابطين ثم تعرض لنقمة بعض أمراء المرابطين ، ففر إلى بجاية وظل بها مشتغلا بالعلم والتدريس إلى أن مات سنة ٥٨١ هـ[(١)] (١١٨٥ م) وكتابه السالف الذكر هو اختصار «لكتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى أسماء الصحابة ورواة الآثار» للمؤرخ المرّى أبى محمد عبد الله اللمخى الرشاطى[(٢)] الذى مات شهيداً فى معركة عند المرية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . وكتاب الرشاطى يعتبر من الكتب التاريخية الهامة وقد حاول عدد من المؤرخين الذين جاءوا بعده اختصاره والسير على طريقته مثـــل محمد بن عبد الرحمن الغسانى الغرناطى[(٣)] ، ومجد الدين اسماعيل البلبيسى[(٤)] وابن الخراط السالف الذكر . ولا تزال توجد بعض قطع مخطوطة من كتاب الرشاطى فى جامعة القرويين[(٥)] بفاس ، وجامعة الزيتونة بتونس .

أما مختصر ابن الخراط الإشبيلى فهو مفقود ، ولكن من حسن الحظ أن ابن الشباط قد نقل منه نصوصاً كثيرة ولا سيما فى الجزء الخاص بوصف الأندلس .

---

(١) راجع ترجمة ابن الخراط فى (الضبى : بغيـــة الملتمس رقم ١١٠٤ ، ابن الابار : التكملة رقم ١٨٠٥ ، الغبرينى : عنوان الدراية ص ٢٠ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٨٠٧ ، ج ٢ ص ١٢٢) راجع كذلك : (Pons Boigues: Op. cit. p. 251-252.) .

(٢) راجع ترجمة الرشاطى فى (الضبى بغيـــة الملتمس رقم ٩٤٣ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ (طبعة محي الدين عبد الحميد) ، ابن بشكوال : الصلة رقم ٦٤٨ ، ابن الأبار : المعجم ، رقم ٢٠٠ ، التكملة رقم ٢١٥١ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ١٣٤ ، السبكى : طبقات الشافعيـــة ج ٤ ص ٤٣ ، ابن الشباط لوحة ١٦) راجع كذلك : (Pons Boigues: Op. cit. p. 207.) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام الغسانى الغرناطى ، المتوفى بمرسية سنة ٦١٩ هـ .

راجع (Pons Boigues: Op. cit. p. 273.) .

(٤) هو مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم البلبيسى المتوفى سنة ٨٠٢ هـ ويقول صاحب كشف الظنون (ج ١ ص ١٣٤) أنه لخص اقتباس الأنوار للرشاطى وأضاف إليه زيادات ابن الأثير على انساب السمعانى وسماه القبس .

(٥) قطعتان برقمى ل ٩٢ ، ل ٣٠٢١ راجع كذلك (Flűgel, I, p. 375, N° MXXXVI)

مصدر آخر اعتمد عليه ابن الشباط فى هذا الجزء من كتابه ، وهو كتاب العبر أو العبره(١) لأبى بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفيـاض الذى ولد فى مدينة استجَّه Écija وعاش فى المرية ومات بها فى سن الثمانين ، سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م)(٢) وهذا الكتاب للأسف مفقود ولم يبق منه إلا بضع ورقات قليلة أشار إليها الدكتور حسين مؤنس فى مقاله عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس(٣).

ولقد أشاد كل من دوزى وسابدرا بأهمية هذا الكتاب على أساس أن عدداً كبيراً من المؤرخين قد أشاروا إليه أمثال ابن بشكوال وصاحب روض القرطاس وعبد الواحد المراكشى ومؤرخنا ابن الشباط .

كذلك اعتمد ابن الشباط على كتاب : المعرب فى محاسن أهل المغرب(٤) لليسع بن عيسى الغافقى الذى عاش فى بلنسية ، ودرس على شاعرها المشهور ابن خفاجة ، ثم سافر إلى الإسكندرية والقاهرة ، وخدم فى بلاط ملك مصر وقتذاك صلاح الدين الأيوبى الذى شمله بعطفه ورعايته ، وبنى له منزلا على ضفاف النيل ، ثم أمره بكتابة كتاب عن المغرب فكتب له هذا الكتاب . وتوفى اليسع فى القاهرة سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م)(٥) وكتاب اليسع مفقود هو الآخر وهذا يبين أهمية الجزء الذى نقله منه ابن الشباط فى كتابه .

---

(١) يسميه ابن الشباط (المرجع السابق لوحة ١٥٩) : كتاب العبرة ، بينما يرد اسمه فى المصادر الأخرى : كتاب العبر . وقد ورد ذكره فى كتاب ابن الشباط فى اللوحات : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٢) .

(٢) راجع ترجمة ابن أبى الفيـاض فى (ابن بشكوال : الصلة ص ١٢٤ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٣ ، دوزى : مقدمة البيان المغرب ج ١ ص ٥٧) وكذلك :
Pons Boigues: Op. cit., p. 138.

(٣) راجع (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلدان السابع والثامن ، ص ٣٠١ (١٩٥٩ - ١٩٦٠) .

(٤) راجع (ابن الشباط لوحة ١٥٠ — ١٥٢) .

(٥) راجع ترجمة اليسع فى (ابن الأبار : التكملة رقم ٢١١٢ ، المعجم رقم ٣١٥ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧١٣ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٥٠) وكذلك :
(Pons Boigues: Op. cit., p. 242).

كذلك اعتمد ابن الشباط على كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء لأبى مروان عبد الملك ابن الكردبوس ، صاحب النص الأول ، ونقل عنه معلومات فى أحداث الأندلس وغير الأندلس من كتابه (١) ، كما أعطانا معلومات جديدة عن حياته كما بينا ذلك آنفاً .

كذلك رجع ابن الشباط فى بعض رواياته إلى مختصر فى التاريخ (٢) للامام المحدث أبى الطاهر السلفى الذى عاش بالاسكندرية ومات بها سنة ٥٧٦ هـ وهذا التاريخ مفقود هو الآخر (٣) وقد ذكره أبو محمد التجانى فى رحلته (٤) .

ومن بين الكتب التى اعتمد عليها ابن الشباط أيضاً فى القسم الأندلسى من كتابه ، تاريخ محمد بن عيسى بن مُزَين (٥) الذى عاش فى بلاط بنى عباد باشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، وهو من سلالة بنى مزين ملوك شلب Silves قبل انضمامها إلى ملك بنى عباد . وتاريخ ابن مزين يعتبر الآن فى حكم المفقود ، وقد نقل عنه كثير من المؤرخين أمثال ابن الأبار وابن الشباط وغيرهما .

كذلك يشير ابن الشباط كثيراً إلى كتاب نزهة النفوس لأبى إسحاق بن الحسن البغدادى (٦) ، وهو أيضاً مفقود ولا نعرف عنه ولا عن مؤلفه شيئاً .

كذلك اعتمد ابن الشباط على كتاب المسالك والممالك (٧) لأبى عبيد عبد الله البكرى القرطبى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) . ونحن نعلم أن الجزء المنشور من هذا الكتاب ، هو الجزء الخاص بشمال إفريقيا

---

(١) راجع (ابن الشباط : اللوحات ٨٨ — ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٣٢ ، ١٥١ ، ١٥٥) .
(٢) راجع (ابن الشباط ، اللوحات ٩٤ ، ١١٨ ، ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٤٣) .
(٣) لعله يكون كتاب معجم السفر لأبى الطاهر السلفى الذى نشره الأستاذ إحسان عباس أخيراً .
(٤) راجع (رحلة أبى عبد الله محمد التجانى فى البلاد التونسية والقطر الطرابلسى من سنة ٧٠٦ إلى سنة ٧٠٨ هـ ، ص ١٦١ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨)
(٥) راجع (ابن الشباط لوحة ١٥٩) وترجمة ابن مزين فى (Pons Boigues: Op. cit. p. 171.)
(٦) راجع (ابن الشباط لوحة ١٤٤ ، ١٥٥)
(٧) راجع (ابن الشباط ، اللوحات : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١)

المسمى «بكتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» وقد نشره المستشرق الفرنسى دى سلان (باريس ١٩١١) أما الجزء الخاص بالأندلس، فالموجود لدينا منه فى نسخ البكرى جزء صغير فى بعض ورقات[١]. وقد نص ابن الشباط على أنه رجع إلى نسخة كاملة من كتاب البكرى، ونقل منه معلومات فريدة عن الأندلس[٢] وصقلية لم ترد فى نسخ البكرى التى تحت أيدينا. ولعل هذا هو السبب الذى جعل المستشرق الإيطالى ميشيل أمارى يعتمد على النص الذى أورده ابن الشباط نقلا عن البكرى فى وصف جزيرة صقلية[٣]، وإن كان أمارى مع ذلك قد فاته نقل النص الخاص بوصف البركان الذى أورده ابن الشباط فى تعليقاته على كلام البكرى. ولهذا رأينا، إتماماً للفائدة، أن نضيف إلى النص المنشور فى آخر هذا الكلام، ما أورده ابن الشباط عن جزيرة صقلية أيضاً[٤].

كذلك اعتمد ابن الشباط على مختصر تاريخ الطبرى للمؤرخ والطبيب القرطبى عريب بن سعد (ت ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م)[٥]. وقد يبدو من عنوان هذا الكتاب أنه مجرد اختصار لتاريخ الطبرى، فى حين أنه فى الواقع ذيل على تاريخ الطبرى ولاسيما فى أحداث المغرب والأندلس[٦]، وقد نص ابن الشباط على ذلك صراحة عندما قال بأن أخبار الغرب فى مختصر تاريخ الطبرى

---

(١) توجد بمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد صورة من مخطوطة البكرى المحفوظة بالخزانة العامة فى الرباط.

(٢) راجع على سبيل المثال ما ورد فى المتن عن وصف اشبونه ولبلة وطالقه فهو منقول عن البكرى.

(٣) راجع (Michele Amari: *Biblioteca Arabo-Sicula*, pp. 209-213; Lipsia 1855) وقد أشار أمارى إلى أن الفضل فى اطلاعه على مخطوط ابن الشباط يرجع إلى العالم الفرنسى الفونس روسو Alphonse Rousseau الذى كان يعمل بالسفارة الفرنسية بتونس فى ذلك الوقت.

(٤) وصف صقلية ورد فى ابن الشباط فى اللوحات التالية: ٩٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٥، ١٢٧

(٥) راجع (Pons Boigues: Op. cit., p. 88-89)

(٦) راجع الدراسة القيمة التى كتبها دوزى حول المصادر الأندلسية فى مقدمة الجزء الأول من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ص ٣٥ — ٣٩ (ليدن ١٨٤٨).

إنما هو زيادة عريب بن سعد الكاتب ، وأن الطبرى لم يتكلم إلا عن تاريخ المشرق خاصة [(١)] . ولقد نشر دى خويه الجزء الخاص بتاريخ المشرق من كتاب عريب [(٢)] ، أما الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس ، فلا نعلم عنه سوى ما قاله دوزى من أن ابن عذارى قد نقل قطعاً منه فى الجزء الثانى من كتابه البيان المغرب [(٣)] .

كذلك اعتمد ابن الشباط على بعض ما كتبه الجغرافى الأندلسى القديم أحمد بن محمد بن موسى الرازى الذى يعرف أيضاً بابن لقيط الكاتب (توفى حوالى سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م) [(٤)] . فنجد اسم الرازى يتردد بوضوح فى نص ابن الشباط أثناء وصف اشبيليه وباجه وماردة ، ولم يكتف ابن الشباط على ذلك ، بل حرص على ذكر أسماء من نقلوا عن الرازى أمثال البكرى وابن أبى الفياض وابن الخراط الإشبيلى [(٥)] .

وأخيراً وليس آخراً نذكر أيضاً من بين الكتب التى اعتمد عليها ابن الشباط ، كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) [(٦)]

---

(١) أشار ابن الشباط إلى عريب بن سعد فى اللوحات التالية من كتابه السالف الذكر : ٩٦ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) راجع عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ، نشر دى خوية De Goeje (ليدن ١٨٩٧) .

(٣) عندما نشر دوزى الجزئين الأولين من كتاب البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ، ذكر فى الصفحة الأولى لكل جزء العبارة التالية : الجزء الأول ، واختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطان ، الجزء الثانى ، واختلطت به قطع من تاريخ عريب بن سعد .

(٤) راجع ترجمته فى (الضبى : بغية الملتمس رقم ٣٣٠) . راجع كذلك :
(Pons Boigues: Op. cit., p. 62-63).

(٥) راجع (ابن الشباط : نفس المرجع ، اللوحات : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٦) ورد ذكره فى ابن الشباط لوحة ١٥٦ ، ١٥٨ ؛ وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة فى جزئين ١٣٢٥ هـ .

وكتاب طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢ ه) [(١)] ، وهى كتب منشورة ومعروفة فى وقتنا الحاضر .

ولقد اتبع ابن الشباط منهجاً طريفاً موجزاً عند وصفه للمدن الأندلسية ، يقوم على الخطوات التالية :

أولا : يبدأ بضبط اسم المدينة ضبطاً دقيقاً مستخدماً فى ذلك الحروف لا الشكل . ولقد اهتم بهذه المسألة اهتماماً كبيراً لدرجة أنه كان يقول أحياناً : « وسألت أكثر من واحد من الأندلسيين حول نطق هذه الكلمة فبعضهم لم يعرف ، وبعضهم عرف » [(٢)] .

ثانياً : يتكلم بعد ذلك فى وصف المدينة وصفاً جغرافياً .

ثالثاً : يذكر أهم العلماء الذين ينتسبون إليها .

رابعاً : يتكلم عن الأحداث التاريخية التى تم فيها استيلاء المسلمين على المدينة .

خامساً : بعد الانتهاء من كل هذا ، يقدم ابن الشباط ، شرحاً للمفردات التى وردت فى المتن سواء أكانت أسماء أشخاص أو مدناً أو ألفاظاً لغوية ، وذلك تحت عنوان : « شرح وتحقيق » ، وهو فى هذا يذكرنا بما يسمى بالحواشى أو التعليقات على البحث .

فعلى هذا الأساس السالف الذكر ، بدأ ابن الشباط وصفه بكلمة عامة عن جغرافية وتاريخ الأندلس . ثم تكلم بعد ذلك عن المدن والكور الأندلسية الآتية : شذونه Sidonia ، مورور Morón ، قرمونه Carmona ، اشبيليه Sevilla ، استجه Écija ، قرطبه Córdoba ، لبله Niebla ، أشبونه Lisboa ، باجه Beja ، مارده Mérida ، طليطله Toledo ، سرقسطه Zaragoza ثم إفرنجه أو افرنسه Francia .

---

(١) أشار إليه ابن الشباط فى لوحة ١٥١ ، ١٥٩ ؛ وكتاب صاعد كتاب صغير طبع فى مطبعة السعادة بالقاهرة .

(٢) راجع (ابن الشباط لوحة ١٦٢) .

ويلاحظ أن معظم هذه المدن يقع على الخطّين الرئيسيين اللذين سلكهما طارق بن زياد وموسى بن نصير فى غزوهما لاسبانيا .

أما عن مدى قيمة هذا النص من الناحية الجغرافية أو التاريخية ، فنلاحظ أولا أن ابن الشباط عند وصفه لهذه المدن الأندلسية ، قد سار مثل مواطنه ابن الكردبوس على نهج الأقدمين من حيث الاهتمام بذكر الغرائب والعجائب التى لا تحتمل التصديق ، ويبدو أن نزعة الرواية قد غلبت عليه فى هذا الصدد ، إلا أنه مع ذلك كان فى كثير من الأحيان يتدخل بآراء ومعلومات لغوية وتاريخية قيمة تستحق التقدير والعناية ومثال ذلك : اهتمامه كما سبق أن قلنا بضبط المواقع الجغرافية ضبطاً صحيحاً ، وهى مسألة وإن كانت معروفة لذوى الاختصاص ، إلا أن هناك كثيراً ممن يخطئون فى نطقها حتى اليوم ، ومثال ذلك قوله : وطُليطُله بضم الطاء الأولى والثانية ، ونهر تاجُه بضم الجيم وسكون الهاء ، واشبيليَه ، بكسر الهمزة واللام وتخفيف الياء ثم هاء تأنيث ، ولبله بفتح اللام أو كسرها ، وغرناطه بفتح الغين ؛ واكشونبه Oxonoba ، بعضهم ينطقها أشكونبه أو أشكونيه والصحيح على حد قول ابن مزين أكشونبه بتقديم الكاف ؛ وكُوره Kora بضم الكاف ومعناها الصقع أو الناحية وتطلق أيضاً على المدينة ؛ ورُذْريق Rodrigo بضم الراء الأولى وسكون الذال . . . الخ .

ويلاحظ هنا أن النطق العربى لهذه الأسماء يتفق مع نطقها الاسبانى ، وهذا شىء معقول ، لأن أصول هذه الكلمات إسبانية وليست عربية .

وعندما يتكلم ابن الشباط عن الخلاف الذى قام بين موسى وطارق ، ينص صراحة على أنه سوء تفاهم بسيط حول اختصاصات القائد العام لم يلبث أن زال سريعاً باعتذار قدمه طارق لموسى . كذلك انكر ابن الشباط الرواية القائلة بأن المائدة التى عثر عليها طارق فى طليطلة ، تنسب إلى النبى سليمان موضحاً بأنها كانت من صنع رجال الكنيسة لوضع الأناجيل عليها .

وعندما يصف مدينة سرقسطة بأنها مشهورة بالملح الذَّرءانى ، وهو الملح الشديد البياض ، نجده يتناول كلمة ذرءانى بالشرح والتحليل فيقول بأنها من الذُرَاة وهو بياض الشيب والمعنى هنا مجازى أى الملح الأبيض ، ثم يضيف ولا تقـــل درءانى أو درانى بالدال المعجمة ولكن بالذال المنقوطة[١] . وهذه الإشارة مهمة لأن بعض الكتاب كتبها بالدال مثل الحميرى صاحب الروض المعطار[٢] الذى عاش بعد ابن الشباط بحوالى قرن . كذلك كتبها دوزى فى معجمه اندرانى ودارنى نقلا عن ابن بطوطة ولم يشرح معناها[٣] . أما ليفى بروفنسال فقد ترجم هذه الكلمة على اعتبار أنها من الدُّر le Sel gemme[٤] أى الملح المتبلور اللامع الذى يشبه الدرر .

مثل آخر يدل على دقة ابن الشباط وسعة اطلاعه ، وهو أنه عند كلامه على بلاد الافرنج يقول : وأَفْرَنْجه ، بفتح الهمزة والراء ، على وزن أَفْرَنْسَه ، وأفرنجه معرب من أفرنسه . فإطلاق اسم افرنسه على ما نسميه اليوم بفرنسا ، لا نجده إلا فى روايات ابن الأثير[٥] وصاعد الأندلسى[٦] وابن الخطيب[٧] ،

---

(١) ابن الشباط لوحة ١٥٥ ، ١٦٢

(٢) الحميرى ، الروض المعطار ص ٩٦

(٣) انظر (Dozy: *Supplement aux Dic. Arabes*, I, p. 420).

(٤) راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١١٨ من الترجمة الفرنسية) .

(٥) يقول ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) فى كتابه الكامل (ج ٥ ص ١٠٢ ، الطبعة المنيرية) ، «وفى هذه السنة (أى ١٨٥ هـ) سير الحكم بن هشام جيشاً إلى بلاد الفرنج فخربوا كثيراً من بلاد فرنسيه» .

(٦) يقول صاعد الأندلس فى هذا الصدد (ت ٤٦٢ هـ) : وهذا الجبل (هيكل الزهرة) هو الحاجز ما بين الأندلس وبين بلاد افرانسه من الأرض الكبيرة . راجع (طبقات الأمم ص ٩٩) .

(٧) لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) وهو متأخر عن الشباط ذكر هذا الاسم عند كلامه عن «غزو الفرنجه المتصلة بأرض إفرنسه» انظر (أعمال الاعلام ص ٧٤ نشر ليفى بروفنسال) .

هذا ومن المعروف أن امبراطورية شرلمان كانت قد قسمت بمقتضى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م إلى الأقسام الثلاثة الآتية : إيطاليا وجرمانيا ثم غاليا la Gaule التى أطلق عليها بعد ذلك اسم فرنسا فى عهد شارل الأصلع Charles le Chauve (٨٤٣ — ٨٧٧ م) .

راجع (Larousse du XXe siècle, tome III, p. 603: France)

أما بقية كتاب العصر الوسيط فقد أطلقوا على هذه البلاد اسم الأرض الكبيرة أو غاليا أو بلاد الافرنج . فابن الشباط فى هذا الصدد يعتبر من أوائل الكتاب الذين كتبوا ونطقوا اسم فرنسا كتابة ونطقاً سليماً .

مثل أخير ، نقف عنده فى شيء من التفصيل لأهميته التاريخية والجغرافية ، وهو يدور حول النص الذى أورده ابن الشباط عن وقعة السواقى الفاصلة التى هزم وقتل فيها ملك القوط رذريق Rodrigo أمام جيوش المسلمين بقيادة طارق ابن زياد بعد معركة عنيفة دامت ثمانية أيام (الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال سنة ٩٢ هـ/١٩ إلى ٢٦ يوليو سنة ٧١١ م) . وهذا الاسم ، لم يذكره أحد من المؤرخين سوى مؤرخ مجهول الاسم فى كتاب له بعنوان : « فتح الأندلس »[١] ، حيث يرد اسم هذه الوقعة تارة باسم السوانى ، وتارة أخرى باسم السواقى ، وكلاهما معناهما واحد تقريباً .

هذا ويبدو أن هذا الاسم أيضاً قد ورد فى تاريخ المؤرخ القرطبى المشهور أحمد بن موسى الرازى (ت ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م) . وهذا التاريخ كما هو معروف مفقود للأسف ، إلا أنه توجد له ترجمة برتغالية قديمة بعنوان : Crónica del moro Rasis ، كتبها راهب برتغالى اسمه خيل بيريث Gil Pérez بمعاونة بعض كتاب المسلمين وبأمر من ملك البرتغال ديونيسيو D. Dionisio الذى حكم

---

(١) نشر هذا الكتاب مع ترجمة اسبانية له المستشرق الاسبانى خواكين جونثالث J. Gonzáles (الجزائر ١٨٨٩) معتمداً فى ذلك على نسخة خطية فى المكتبة الوطنية بالجزائر رقم ١٨٧٦ هذا وقد كتب استاذنا غرسية غومس García Gómez دراسة حول هذا الكتاب تحت عنوان :
(García Gómez: Novedades sobre la crónica anónima, titulada: *Fath al-Andalus*, en *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*, tome XIV, 1945, pp. 31-42).

راجع كذلك تعليق أستاذنا إلياس تيريس سادبا Elías Terés Sádaba على هذا البحث السابق فى مجلة (Al-Andalus, tomo XX, fasc. I, 1955, p. 237).

وكذلك تعليق سانشث البرنث :

Sánchez Albornoz: *Precisiones sobre Fath al-Andalus*, Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vols. IX y X, pp. 1-22 (1961-1962).

فى الفترة ١٢٧٩ — ١٣٢٥ م . ولم تلبث هذه الترجمة أن كتبت بعد ذلك فى نسخ عديدة امتلأ بعضها بالأخطاء والتحريفات ، فاختلف بعضها عن بعضها فى كثير من الألفاظ والعبارات . ونتج عن ذلك أن اسم السوانى أو السواقى السالف الذكر ، قد كتب فى هذه النسخ البرتغالية العديدة لترجمة الرازى بأشكال مختلفة مثـــل : Saguyue, Sagoneira, Sangonera, Sagaynera, Sagoynera, Segonera . . . الخ [١]

على أن المهم هنا هو أن هذا الاختلاف فى تسمية هذا المكان ، لم يلبث أن انتقل إلى المصادر والحوليات التاريخية الإسبانية ، التى حاولت بدورها ، على ضوء هذه التسميات ، أن تحدد بمعرفتها مكان هذه المعركة جغرافياً فى اسبانيا .

ففى ملحمة فرنان جونثالث Fernán González ، ورد هذا الاسم على شكل Sangonera وهو اسم نهر فى مقاطعة مرسية شرق اسبانيا ، ويسمى كذلك بوادى التين Guadatin أو Guadalentin ويصب فى نهر شقورة Segura ، وعلى هذا الأساس افترضت الملحمة المذكورة أن هذه المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط ، وقعت عند هذا المكان بين مدينتى مرسيه Murcia ولورقه Lorca شرقى الأندلس [٢] .

وفى أواخر القرن الماضى خرج المؤرخ الاسبانى إدواردو سابدرا برأى جديد ، اعتمد فيه على كلمة Saguyue التى وردت فى إحدى النسخ البرتغالية لترجمة الرازى كتسمية لهذا المكان . وافترض بأنها تنطبق على المكان المسمى حتى اليوم باسم Segoyuela [٣] فى ولاية شلمنقه Salamanca فى شمال اسبانيا ، وقال

(١) راجع (*Crónica Geral de Espanha de 1344*, vol. II, p. 332, Edição crítico de texto portugués, pelo: Louis Felipe Lindley Cintra, *Academia Portuguesa de Historia* (Lisboa. MCMLIV).

(٢) راجع (E. Saavedra: *Estudio sobre la invasión de los Árabes en España*, p. 100).

(٣) الاسم الكامل لهذا المكان هو Segoyuela de los Cornejos شرقى بلدة تماس Tamames فى ولاية سلمنكا .

بأن هذا اللفظ قريب الشبه من كلمة السواقى أو السوانى السالفة الذكر . كذلك حاول سابدرا تدعيم نظريته هذه بنص تاريخى قديم ورد فى ترجمة الرازى وفى بعض الحوليات الإسبانية القديمة (١) مثل حولية أو تاريخ الملك الفونسو الثالث — الملقب بالعظيم El Magno — التى كتبت فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، أى فى تاريخ سابق لترجمة الرازى . وهذا النص يقول بأنه فى القرن التاسع الميلادى عندما أمر الملك الفونسو الثالث بتعمير مدينة بيزيو Viseo شمالى البرتغال ، عثر فيها على مقبرة نقش على شاهدها باللغة اللاتينية ما معناه : « هنا يرقد الملك دون رودريجو آخر ملوك القوط » (٢) .

فالمؤرخ سابدرا اعتمد على هذا النص فى تدعيم نظريته القائلة بأن الملك رذريق لم يمت فى معركة البحيرة أو وادى لكه التى انهزم فيها أمام طارق ابن زياد فى جنوب اسبانيا بل فر شمالا إلى ولاية سلمنكا حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين فى معركة ثانية عند بلدة Segoyuela انتهت بمقتله فى أواخر صيف سنة ٧١٣ م ، ثم دفنه هنـاك فى مكان قريب عند بلدة بيزيو Viseo السالفة الذكر (٣) .

ولقد ذاعت نظرية سابدرا ، وأخذ بها عدد كبير من المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الإسبانى المعروف فرانسسكو سيمونيت فى كتابه تاريخ المستعربين فى اسبانيا (٤) .

---

(١) من هذه الحوليات نذكر :
Crónica de Alfonso III (El Magno), Crónica de Albelda y la Crónica Profética.

(٢) انظر (Menéndez Pidal: *Floresta de Leyendas heroicas españolas, Rodrigo el último rey godo,* página LXXX).

(٣) (E. Saavedra: *Estudio sobre la invasión de los Árabes en España,* pp. 99-100).

(٤) راجع (Francisco Simonet: *Historia de los Mozárabes de España,* pp. 23-29) (Madrid, 1897-1903).

على أن ذلك لم يمنع من أن عدداً من المؤرخين البارزين قد عارضوا نظرية سابدرا وأبدوا شكوكهم فى صحتها . وقد اتسمت هذه المعارضة أحياناً بطابع التحفظ والاختصار كما هو الحال فى كتابات منندث بيدال[(١)] ، وليفى بروفنسال[(٢)] ، وأحياناً أخرى بطابع الاطناب والاسهاب كما فعل المؤرخ الاسبانى سانشث البرنث فى بحثه القيم ، أين ومتى مات دون رودريجو ؟ [(٣)] .

ونظراً لأهمية هذا البحث الأخير بالنسبة لما ورد هنا فى المتن وفى الرواية العربية والإسبانية بصفة عامة حول هذه المعركة الفاصلة ومكانها ، فإننا نلخص آراءه فى النقط الآتية :

أولا : يتفق سانشث البرنث مع ما أجمعت عليه الرواية العربية من أن المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط ، كانت معركة واحدة حدثت فى أراضى شذونه جنوبى غرب اسبانيا وانتهت بهزيمة ملك القوط وهلاكه .

ثانياً : يرى أن كلمة Saguyue التى اعتمد عليها سابدرا كأصل لكلمة Segoyuela ، لم ترد إلا فى نسخة رديئة من ترجمة الرازى ، وأن جميع النسخ الجيدة لهذه الترجمة فضلا عن كتب التاريخ والملاحم القديمة ، قد أوردتها على شكل Sigonera ، Sagonera التى هى فى نظره قراءة محرفة لكلمة شذونه التى كانت تسمى فى القديم Gigonza ، Saguntia ثم اتخذت — حسب قوله — روايات سماعية مختلفة مثل : Sidonna ، Sadunna ثم Sadunera أو Sidonera إلى أن صارت Sigonera أو Sagonera التى وردت فى ترجمة الرازى وفى الحوليات الاسبانية القديمة .

ويعلل سانشث البرنث ذلك بأن منطقة شذونه ظلت فى حوزة المسلمين حتى وقت متأخر حينما استولى عليها الملك الإسبانى الفونسو العاشر المعروف

---

(١) راجع (Menéndez Pidal: *Leyendas del último rey godo*, p. 141-142).
(٢) راجع (Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane*, tome I, p. 25).
(٣) راجع (Claudio Sánchez Albornoz: *¿Dónde y cuando murió Don Rodrigo? Cuaderno de Historia de España*, III, pp. 5-105. Buenos Aires, 1945).

بالعالم El Sabio فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا يعنى أن بعض المؤرخين الاسبان القدامى قد نقلوا هذه التسمية إما عن طريق الرواية السماعية الخاطئة وإما جهلا بجغرافية هذه المنطقة الجنوبية نظراً لكونها وقتئذ تحت سيطرة الإسلام .

ثالثاً : يرى أن النص الذى ورد فى حولية الفونسو الثالث وغيرها من المصادر الاسبانية القديمة حول نقش بيزيو Viseo ، قد اعترض على صحته بعض العلماء المحدثين ، ومع التسليم جدلا بصحته ، فإنه ليس من المستبعد أن يكون جثمان الملك رودريجو قد حمله اتباعه بعد هلاكه فى معركة وادى لكه إلى مدينة بيزيو Viseo شمالى البرتغال حيث دفنوه هناك بعيداً عن ميدان القتال . وقد يؤيد ذلك ما هو معروف عن تقاليد الشعوب الجرمانية — ومنها الشعب القوطى — من أنها تقدس الارتباط بسيدها وعدم التخلى عنه ولو بعد هلاكه فى المعركة . وهذه العادة ظلت متبعة فى اسبانيا بعد ذلك خلال العصر الوسيط .

رابعاً : يرى كذلك أن وجود نص بيزيو Viseo السالف الذكر فى ترجمة الرازى ، ليس فى الواقع من عمل الرازى نفسه ، وإنما من صنع المترجم البرتغالى Gil Pérez الذى أقحمه فى الترجمة نقلا عن حولية الفونسو الثالث التى كان يعرفها فى ذلك الوقت حق المعرفة . والدليل على ذلك أن جميع المؤرخين المسلمين على السواء ، ولا سيما الذين نقلوا عن الرازى لم يذكروا هذه العبارة فى كتبهم .

هذه هى أهم آراء سانشث البرنث عرضناها باختصار ، وهى آراء قيمة بلا شك ، إلا أنها هى الأخرى لم تسلم من اعتراضات بعض المؤرخين أمثال المستشرق الاسبانى فلكس إيرناندث الذى كتب مقالا حديثاً يقول فيه[1] بأن

---

(١) راجع (Félix Hernández Giménez: *Acerca de Majadat al-Fath y Saguyue;* Al-Andalus, volumen XXIX, 1964, fasc. I, pp. 1-21).

كلمة Saguyue أو Sagonera ... الخ التى وردت فى الترجمة البرتغالية لتاريخ الرازى ، تتفق كثيراً مع كلمة السواقى أو السوانى التى جاءت فى كتاب فتح الأندلس ، وأنه غير بعيد بالمرة أن تكون هذه الكلمة قد وردت كذلك فى الأصل العربى المفقود من تاريخ الرازى ، وأن صاحب كتاب فتح الأندلس قد نقلها عنه . ثم يضيف فلكس إيرناندث بأنه وإن كان لا يستطيع تحديد مكان السواقى ، إلا أنه يستبعد رأى سانشث البرنث القائل بأن كلمة Sigonera وأخواتها هى تحريف لكلمة Saguntia أو Gigonza التى هى شذونة العربية . وذلك لأن السواقى أو السوانى تسيمة نوعية عامة ، أما شذونة فإسم علم خاص . ثم يختم مقاله مؤيداً رأى سانشث البرنث الخاص باستبعاد وقوع لقاء ثان بين ملك القوط والمسلمين فى شمال اسبانيا ، وبأن العبارة التى وردت عن مقبرة بيزيو قد أقحمها مترجم الرازى فى ترجمته نقلا عن حولية الفونسو الثالث أو غيرها من المصادر الاسبانية القديمة .

وبعد ، هذا عرض سريع للآراء التى أثيرت حول هذه المعركة الإسلامية الأولى والفاصلة فى فتح الأندلس . والآن ، يحق لنا أن نتساءل ، ما هى أهمية النص الذى أورده ابن الشباط هنا فى المتن حول معركة وادى لكه والسواقى ؟ وما هى قيمته التاريخية بالنسبة للآراء المتقدمة فى هذا الشأن ؟

للاجابة على هذا التساؤل ، ينبغى أن نشير إلى الملاحظات التالية :

أولا : يفهم من النص الذى بين أيدينا أن لذريق ملك القوط نزل بجيوشه فى وادى لكه بكورة شذونه فى جنوب غرب اسبانيا ، بينما نزل طارق بجيوش المسلمين فى موضع قريب منه ، ثم التقى الجمعان هناك يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١ م) واستمر القتال بينهما ثمانية أيام ، انهزم خلالها القوط ثم أفلت ملكهم إلى موضع قريب يقال له السواقى فامتد القتال إلى هناك ، وانتهى الأمر بمصرع الملك القوطى دون أن تعرف شخصيته أو بغرقه فى الوادى عندما أراد التستر بأعشابه ، ولم يعثر على جثة الملك ولكن

وجد فى ذلك المكان خف منظوم بالدر والياقوت قد سقط من رجله . ثم يضيف ابن الشباط أن طارق بن زياد بعد هذا النصر الذى أحرزه نزل بجيوشه مدينة شذونه !

هذا الوصف المتقدم يبين أن المعركة كانت واحدة ، وأنها دارت كلها فى منطقة واحدة وهى كورة شذونة ، كما أنها استغرقت مدة طويلة دامت ثمانية أيام[1] فى صراع وكر وفر ومتابعه ، ثم انتهت بهلاك ملك القوط فى موضع فى تلك المنطقة يقـال له السواقى ثم نزل طارق بعد انتصاره فى قاعدة هذه الكورة وهى مدينة شذونه .

وهذا الوصف ينطبق تمامـاً مع ما جاء فى كتاب فتح الأندلس مع فارق واحد وهو أن هذا الكتاب الأخير مجهول المؤلف ، بينما الوصف الذى أورده هنا ابن الشباط قد نقله — كما يقول هو نفسه — من كتاب مختصر تاريخ الطبرى للمؤرخ القرطبى عريب بن سعد . وهذا التشابه بين النصين يجعلنـا نرجح أن كلا من المؤلفين قد نقل مادته من مصدر تاريخى واحد وهو فيما يبدو تاريخ الرازى السالف الذكر ، ذلك لأننا عند مقارنة كلامهما بالوصف الذى ورد فى الترجمة البرتغالية للرازى ، نجد تشابهاً كبيراً يكاد يكون

---

(١) تحديد مدة المعركة بثمانية أيام ابتداء من الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١ م) ورد أيضاً فى عدة مراجع أخرى مثـل كتاب فتح الأندلس لمؤلف مجهول ص ٨ وكذلك في ترجمة الرازى :

Crónica Geral de Espanha de 1344, edição crítica do texto portugués, pelo: Louis Felipe Lindley Cintra, vol. II, p. 331 (Lisboa, 1954).

وكذلك ورد أيضاً فى (الحميرى : الروض المعطار ص ١٦٦) حيث يقول فى وصف لكه : وعلى نهر لكه التقى لذريق ملك الأندلس فى جموعه من العجم ، وطارق ابن زياد فى من معه من المسلمين يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان لسنة ٩٢ من الهجرة ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعده (٢٦ يوليو سنة ٧١١ م) ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك دهراً طويلا بتلك الأرض . راجع كذلك الترجمة الفرنسية ص ٢٠٤ وحواشيها حيث يشير المترجم أن النص منقول عن الرازى) أما ابن القوطيه وصاحب أخبار مجموعة فقد أشارا إلى المعركة بدون تحديد مدتها .

مطابقـاً[١] ، اللهم إلا من بعض الخلافات التى لا نشك فى أنها من صنع المترجم نفسه وأهمها ذلك النص الخاص بمقبرة بيزيو Viseo الذى ورد فقط فى بعض المصادر الاسبانية القديمة ، أما المصادر العربية ولا سيما التى نقلت عن الرازى ، فإنها لم تشر اطلاقـاً إلى هذا النص مما يدل على أنه قد أقحم فى الترجمة كما سبق أن اشار بذلك أيضاً كل من سانشث وفلكس إيرناندث .

ثانيـاً : فيما يتعلق بكلمة السواقى التى وردت فى المتن ، فهى جمع ساقية ومعناها الناعورة المـائية ، وقد تعطى أيضاً معنى النهر الصغير الذى هو فوق الجدول ودون النهر . وقد اشتهرت منطقة شذونة — كما هو واضح فى وصف الرازى — بكثرة مياهها وأنهارها وسواقيها وأرحائها أو طواحينها التى يديرها الماء لرى الأراضى الزراعية . فإذا كان المقصود بكلمة السواقى ذلك المعنى العام ، فإنه فى هذه الحالة يصعب تحديد مكانها[٢] وإن كان الرازى قد حصر منطقة الأرحاء والسواقى المائية فى جبل مشرف على شذونة اسمه كما ورد فى الترجمات المختلفة للرازى Montebir أو Montebur . وهذا الاسم قد اندرس الآن وإن كان جاينجوس قد حاول تحديد مكانه فيما بين شريش Jerez وأركش Arcos التى تقع فى شمالها[٣] .

---

(١) يقول الرازى : وبعد معركة عنيفة دامت ثمانية أيام فى صراع ومتابعة ، اختفى الملك دون رودريجو ولم يعثر له إلا على نعل ثمين لا يستعمله إلا رجل واسع الثراء والنفوذ مثله . ولهذا اعتقد البعض أنه غرق فى البحر (كذا !) بينما اعتقد البعض الآخر أنه فر إلى الجبال المجاورة حيث أكلته الحيوانات المفترسة . وبعد وقت طويل عثر فى بلدة بيزيو Viseo على مقبرة نقش على شاهدها العبارة التالية : « هنا يرقد دون رودريجو آخر ملوك القوط الذى هلك فى وقعة Sangonera وحكم أربع سنوات » . راجع الترجمة البرتغالية فى (*Crónica Geral de Espanha de 1344*, vol. II, pp. 330-332)

(٢) اطلقت كلمة ساقية وناعورة على عدة أماكن فى الأندلس ففى ولاية غرناطة مثلا نجد مكاناً باسم Acequias أى السواقى ، وفى بلنسية نجد مكاناً آخر باسم وادى السواقى Guadasequies وفى المرية نجد Anoria وفى قرطبة Añora وفى لاردة Naura وفى مرسية وغرناطة Noria, Nora وكلها معناها الناعورة . راجع :
(M. Asín Palacios: *Contribución a la Toponimia Árabe de España*, pp. 42, 75, 111, 125).

(٣) انظر (Pascual de Gayangos: *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del moro Rasis*, p, 58, notas 4 y 5).

هذا إذا كان المقصود بالسواقى هو معناها العربى المعروف ، أما إذا كانت كلمة السواقى هى تعريب أو تحريف لاسم مكان عَلَم فى منطقة شذونة ، فإننا لا نجد فيها لفظاً قريباً منها سوى كلمة سقا Saca التى وردت فى الترجمة البرتغالية والإسبانية للرازى على أنها مدينة فى مراعى[١] شذونة بالقرب من الساحل . أما ليفى بروفنسال فقد سماها فى ترجمته الفرنسية للرازى باسم شلوقة وقال بأنها هى التى حرفت فيما بعد إلى سان لوكر الحالية Sanlúcar de Barrameda [٢] [٣] التى تقع فى شمال غرب شريش عند مصب الوادى الكبير على ساحل المحيط الأطلسى فى أقصى شمال غرب كورة شذونة . ولا ندرى على أى أساس فسر ليفى بروفنسال كلمة Saca بشلوقه ، ولكن على أى حال فإنه يحتمل أن يكون ذلك المكان هو المقصود بالسواقى على اعتبار أنه كان المأوى الأخير الذى انسحب إليه ملك القوط وهلك فى نهره أو بحره ، وقد يؤيد ذلك إشارة

---

(١) راجع الترجمة البرتغالية فى : (*Crónica Geral de Espanha*, II, p. 73).
والترجمة الاسبانية فى :
(Pascual de Gayangos: *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del moro Rasis*, p. 58-59).

(٢) راجع نص الترجمة الفرنسية فى :
(Lévi-Provençal: *La Description de l'Espagne de Rázi*, Al-Andalus, vol. XVIII, 1953, fasc. I, pp. 96-97).

(٣) ذكر أسين بلاثيوس أن شلوقه اسم عربى لقلعة حصينة ذات أبراج سبعة كانت قائمة فى ذلك المكان عند مصب الوادى الكبير ثم تطور اسمها إلى Solucar, Xoluca وأخيراً Sanlúcar الحالية وأما معنى شلوقه فهو الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية الحارة التى تعرف بالشروق ومنها جاءت الكلمات الاسبانية Siroco, Jaloque بمعنى الزوابع الشرقية . راجع
(Miguel Asín Palacios: *Contribución a la toponimia árabe de España*, p. 133), (Madrid-Granada, 1944).

أما دوزى ، فقد فسر كلمة شلوقه بمعنى السفاهة وقلة الحياء ، فالمرأة الشلقة أو الشلوقة هى المرأة الماجنة الوقحة . راجع (R. Dozy: *Supplement* I, p. 782).

ويبدو أن المعنى الأول الذى أورده أسين هنا هو الذى ينطبق على هذه التسمية بدليل ما ورد فى المعجم الجغرافى الاسبانى لمادوث من أن هذه المنطقة كانت معرضة لرياح شرقية شديدة الحرارة فى فصل الصيف راجع : (Madoz: *Diccionario Geográfico de España*, t. XIII, p. 738 b.)

الرازى الصريحة باحتمال غرقه فى البحر . كذلك إذا افترضنا صحة نقش قبر بيزيو Viseo السالف الذكر ، فإنه من هذا المكان كان يسهل على رجال رودريجو نقل جثمان سيدهم إلى تلك البلدة فى شمال البرتغال ودفنه هناك .

ثالثاً : فيما يتعلق بكورة شذونة التى أجمع المؤرخون على أن هذه المعركة الفاصلة قد وقعت بأرضها ، فإنها كانت منطقة واسعة فى جنوب غرب اسبانيا ، تبلغ مساحتها خمسين ميلا فى مثلها ، وتمتد إلى جانب المحيط الأطلسى حتى مصب الوادى الكبير شمالا ، يحدها من الشرق كورة الجزيرة الخضراء Algeciras ، ومن الجنوب إقليم البحيرة Laguna de la Janda ، ومن الشمال كورة مورور ، ومن الغرب المحيط الأطلسى . وقد امتازت كورة شذونة بخصوبة أرضها وكثرة خيراتها البرية والبحرية ، ووفرة مياهها وأرحائها المائية ، وتعدد أنهارها مثل نهر البرباط Río Barbate الذى يخترق البحيرة ويصرف مياهها فى البحر المحيط ، ومثل وادى لكه Guadalete الذى يخترق أراضيها بنواحى مدينة شريش Jerez de la Frontera ويصب فى المحيط بالقرب من قادس Cádiz . وأما مدنها فهى عديدة وأهمها شريش وقادس ثم مدينة سقا أو شلوقة السالفة الذكر(١) .

واسم شذونة موجود من قديم وبنفس الاسم تقريباً وقد ورد على شكل Saduna أو Saguntia أو Saturny .. الخ ثم جاء المسلمون وأبقوا على هذا الإقليم وتسميته مثلما أبقوا على غيره من الأقاليم الإدارية الاسبانية التى كانت

---

(١) راجع وصف كورة شذونة فى (الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٠ — ١٠١ ؛ ابن غالب : فرحة الأنفس ، نشر لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، نوفمبر ١٩٥٥ ص ٦٩٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٤٤ ؛ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٢٣٢ — ٣٠١ ، تحقيق شوقي ضيف (مجموعة ذخائر العرب رقم ١٠) حيث ترد أيضاً أسماء الكتب التى ألفها ابن سعيد عن كورة شذونها ومدنها الهامة) راجع كذلك وصف الرازى لشذونة فى الترجمات السالفة الذكر (البرتغالية ص ٧٣ ، والاسبانية ص ٥٨ ، والفرنسية ص ٩٦) .

على عهد الرومان والقوط[١] ، وأطلقوا عليه اسم كورة شذونة كما اتخذوا لهم فيه مدينة أى قاعدة عسكرية سموها مدينة شذونة أى بنفس اسم الكورة . وهذه العادة — أى عادة تسمية الحاضرة باسم الولاية — كانت شائعة جداً فى معظم البلاد التى خضعت للحكم الإسلامى .

على أن المهم هنا ، هو ما يبدو بوضوح من وصف الرازى ومن بعض المصادر الإسبانية ، من أن المراد بمدينة شذونة — قاعدة الإقليم — هو مدينة شريش Jerez التى كانت تسمى كذلك شريش شذونة Xerez Saduna أو Eixarez Saturny [٢] يضاف إلى ذلك أن جميع المصادر العربية التى تناولت وصف الأندلس ، قد نصت على أن شريش كانت قاعدة أو حاضرة كورة شذونة[٣] ، وهذا يعنى احتمال تسميتها باسم كورتها جرياً على العادة المتبعة فى كثير من الأقاليم الإسلامية ، وقد يؤيد ذلك أيضاً أن وصف شذونة قد ورد فى الرازى تحت عنوان : وصف شريش[٤] . وهذا كله يعنى أن مدينة شريش كانت تسمى أيضاً بمدينة شذونة على اعتبار أنها قاعدة إقليم شذونة كله ، مثلها فى ذلك مثل مدينة القاهرة التى تسمى أيضاً مصر باعتبار قاعدة مصر كلها .

---

(١) راجع (حسين مؤنس : التقسيم الادارى للاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العدد ١ — ٢ ، ١٩٥٧ ص ٣١٨ ، ٣٢٦ والقسم الأوربى ص ٧٩ ، ١٣٦).

(٢) راجع وصف الرازى (الترجمة البرتغالية ص ٣٧ والاسبانية ص ٥٧ ، ٥٨ حاشية ٣ ، والفرنسية ص ٩٦) ويؤيد كلام الرازى مؤرخ إسبانى مستعرب قديم عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى وألف كتباً عديدة باللغة اللاتينية فى تاريخ الرومان والقوط والعرب وهو اسقف طليطلة دون رودريجو خيمينث دى رادا الذى قال في هذا الصدد ما معناه : « ثم بلغوا (أى الجيوش القوطية والعربية) النهر الذى يسمى وادى لكه بالقرب من سيدونيا التى تسمى حالياً شريش » . راجع :
(El Arzobispo D. Rodrigo Jiménez de Rada: *De Rebus Hispaniae*, cap. XX),
(Dubler (Cesar): *Fuentes árabes y bizantinas en la primera Crónica General; Vox Románica*, XII, p. 195).
(Madoz: *Op. cit.*, IX, p. 625).

(٣) راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٦٠ ، ابن غالب : فرحة الأنفس ص ٢٩٤ فى مجلة معهد المخطوطات العربية نوفمبر ١٩٥٥) .

(٤) راجع وصف الرازى فى الترجمات السالفة الذكر .

على أن هذا الرأى السابق يتعارض مع حقيقة أخرى هامة ، وهى وجود مدينة أخرى بنفس الاسم وفى نفس الكورة وهى مدينة سيدونيا Medina Sidonia (١) التى ما زالت باقية حتى اليوم وتقع فى جنوب شريش عند إقليم البحيرة ووادى البرباط .

ومن هنا نشأ خلاف بين المؤرخين حول تحديد مكان هذه المعركة الفاصلة المعروفة بمعركة وادى لكه :

فهناك فريق يرى أنها حدثت فى شمال كورة شذونة عند وادى لكه Guadalete بالقرب من مدينة شريش (٢) التى كانت تعرف بشذونة أيضاً .

وهناك فريق آخر تزعمه سابدرا Saavedra يرى أنها حدثت فى جنوب كورة شذونه عند إقليم البحيرة ووادى البرباط فى المكان المعروف الآن باسم Casas Viejas بجوار مدينة سيدونيا الحالية ؛ ولكى يدعم رأيه افترض أن اسم وادى لكه الذى ورد فى المصادر العربية ما هو إلا تحريف لاسم وادى بكه الذى كان يطلق أيضاً على وادى البرباط لوقوع قرية عليه — اندرست الآن — اسمها بكه Beca فسمى باسمها (٣) .

وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ، يرى أن هذه المعركة حدثت عند بحيرة لاخاندا بالقرب من المكان السابق ، وعلى

---

(١) هى الآن فى محافظة قادس Cádiz . راجع وصفها فى :
(*Diccionario Geográfico de España*, tomo XII, p. 279 (Madrid, 1960).
Madoz (Pascual): *Diccionario Geográfico-Estadístico, Histórico de España y sus posesiones de Ultramar*, tomo XI, p. 341).

(٢) راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٦٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، هذا إلى جانب ما ورد هنا فى المتن نقلا عن عريب بن سعد .

(٣) راجع (Saavedra: *Op. cit.*, p. 68-69 هذا ويرى دوزى أن المقصود بوادى لكه هو نهر سلادو *Río del Salado* الذى يقع شمال نهر البرباط (Dozy: *Recherches*, I, p. 307)

هذا الأساس فسر وادى لكه على أنه تعريب لكلمة Locus أو Lago ومعناها البحيرة (١) .

ورأينا فى الموضوع ، أن هذه المعركة التى توقف عليها مصير اسبانيا فى يد المسلمين ، كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه الأماكن المحدودة الضيقة . لقد كانت معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق إلى أرض اسبانيا ، وحشد فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح بدرجة روعت طارق وأزعجته ، وقد عبر عن ذلك صاحب أخبار مجموعة عند ما قال :

وكتب طارق إلى موسى يستعدّه (٢) ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وأنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به ! وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ فى عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق إثنا عشر ألفاً (٣) .

ولا شك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة ، وهذا الهدف الخطير ، وهذه المدة الطويلة التى استغرقها فى صراع وطراد ومتابعة ، لابد وأن تكون معركة عظيمة تليق بمكانة هذا الفتح العربى العظيم ، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذونة أو شمالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة ، فهى معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها . ومن هنا جاز لنا

---

(١) راجع :
(Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane,* tome I, p. 20-21 (Paris-Leiden, 1950).

(٢) كذا ، ولعلها يستغذه بمعنى أنه يطالبه بالاسراع فى السير لنجدته .

(٣) انظر (كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، لمؤلف مجهول ص ٧ (مدريد ١٨٦٧) .

أن نقول بأن ما ورد فى كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة ، ووادى بكه ، ووادى البرباط ، ووادى لكه ، وشريش ، والسواقى ، ما هى فى الواقع إلا تسميات لتلك الأماكن التى دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة فى أراضى كورة شذونه .

وقد يشفع لنا فى هذا القول أن جميع المعارك التى حدثت بعد ذلك فى بقية أنحاء اسبانيا ، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الفاصلة بحيث لم يستغرق استيلاء المسلمين على اسبانيا بعد ذلك رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها ، أكثر من سنتين فقط ، وهذا يدل على أن المقاومة الجدية كانت قد انتهت وأن اتمام عملية فتح الأندلس كان على حد قول بعض المؤرخين الاسبان ، « مجرد نزهة عسكرية » « un paseo militar »[١] .

---

(١) راجع على سبيل المثال :
(A. Jiménez Soler: *La Edad Media de la Corona de Aragón*, p. 19-20, *Colección Labor*, N.° 223-224).

النص الأول

قطعة من كتاب الاكتفاء فى اخبار الخلفاء
لابن الكردبوس

وأقام الوليد سنتين ، فحج بالناس ، وكان عامياً قليل المعرفة بالأدب لكونه رُبى فى القصور ، وكان يضرب به المثل ، فيقال ألحن من الوليد فى خطبته . وكان يصوم الإثنين والخميس ، وكانت فى أيامه فتوحات كثيرة ، افتتح ما وراء النهر بخراسان والسند وغزا ملك الصين ، وافتتح جزيرة الأندلس .

قال الليث بن سعد ، أخبرنى خادم كان للوليد ، قال : إنى لقريب منه وبين يديه طست وهو يتوضأ ، إذ أتاه رسول من عند وادى خراسان بفتح مدينة من مدنها ، فأعلمته فقال خذ الكتاب منه فقرأه ، فما أتى على آخره ، حتى قدم رسول آخر بفتح السوس الأقصى من قِبَـلِ مروان بن موسى بن نصير فقرأه ، فما أتى على آخره حتى قدم رسول آخر من عند موسى بن نصير بفتح الأندلس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم التفت إلىَّ فقال امسك الباب علىّ ولا تدع أحداً يدخل ، ففعلت ، قال وكان عنده ابن صغير يحبو بين يديه . قال فخرَّ الوليد لله ساجداً شكراً له ، وحبا الصبى إلى الطست فوقع فيه ، فاضطرب وصاح فما التفت إليه ، وأنا لا أستطيع أن أغيثه لما أمرنى من امساك

الباب ، فأطال السجود حتى خفت[١] موت الصبى ثم رفع رأسه وصاح بى ، فدخلت وأخذت الصبى لِمَا به .

قضية فتح الأندلس[٢] : وذلك أن الأندلس ومغرب العدوة كانا بأيدى الروم والبربر ، فساحل البحر كله للروم والبرية للبربر ، منهم من بلغته الدعوة فأسلم ومنهم من لم تبلغه الدعوة فبقى جاهلياً ، وكان على طنجة[٣] رومى يسمى يليان[٤] مُقَدَّمٌ[٥] من قبل لذريق[٦] ملك الأندلس . وكانت دار ملكه طليطلة ، وكان فيها بيت عليه أقفال ، فكل من يلى منهم الملك ، يزيد قفلا على ذلك البيت ولم يفتحه قط ملك منهم ولا عَلِم ما فيه حتى انتهت الاقفال إلى عشرين

---

(١) فى رواية ابن قتيبه (الامامة والسياسة ج ٢ ص ٧٣) : وأطال السجود حتى خفى صوت الصبى ثم رفع رأسه فصاح بى فدخلت وأخذت الصبى وأنه لما به روح .

وفى رواية عبد الملك بن حبيب : حتى خفت صوت الصبى . (نشر الدكتور محمود مكى تاريخ ابن حبيب فى آخر مقاله عن مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى . راجع :

(Mahmoud Makki: *Egipto y la Historiografía arábigo-Española;* Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, Vol. V 1957, Fasc. 1-2, p. 221).

(٢) فى نسخة ح : صفة فتح الأندلس .

(٣) يفهم من النصوص أن مدينة طنجه كانت فى ذلك الوقت فى يد المسلمين بينما كان يوليان هذا والياً على مدينة سبته وما حولها . وقد حاول موسى بن نصير فتح معقله سبته ، ولكنه وجد عنده عدة قوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم ، فرجع عنهم إلى طنجة وجعل يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم . راجع (أخبار مجموعة ص ٤) ولعل المقصود هنا هو منطقة موريطانيه الطنجية Mauritania Tingtana التى كان يحكمها يوليان قبل أن يصل إليها موسى بن نصير وكانت تشمل المنطقة الشمالية للمغرب الأقصى . راجع :

(E. Saavedra: *Estudio sobre la invasión de los árabes en España* p. 49, Madrid 1892).

(٤) ورد هذا الاسم فى الكتب العربية بالاشكال الآتية : يوليان ، يليان ، وليان ، جليان ، إليان ، اليان ، كذلك اختلفت هذه المراجع حول شخصيته ، فبعضها يرى أنه قوطى ، والبعض الآخر يرى أنه رومى أى بيزنطى ، والبعض الثالث يرى أنه بربرى من غماره ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبته ونواحيها .

راجع : (Saavedra: Op. cit., p. 48) وكذلك (الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٢ — ٥٣) .

(٥) المقدم هنا يعنى قائد الجيش المرابط عند الحدود ، ومنه جاءت الكلمة الاسبانية Almocaden التى تعطى نفس المعنى .

(٦) لذريق أو رذريق ويعرف فى المصادر الاسبانية Rodrigo .

قفلا . فلما رأى لذريق هذا قال لابد أن أفتح هذا البيت حتى أعرف ما فيه ، فقال أَقَامِطَتُهُ وأَقِسَّتُه [١] ، لا تفعل ولا تحدث ما لم يحدثه من تقدمك من الملوك [٢] . فقال لابد لى من فتحه والوقوف على ما فيه (٨١ ا) ففتحه فلم يجد فيه شيئاً غير رَقّ كبير فيه صورة رجال عليهم العمائم وتحتهم صور خيول مُسَوَّمَة ، وفى أيديهم السيوف والرايات على القنى بين أيديهم . وفيه مكتوب بالعجمية هذه صورة العرب ، فإذا فتحت أقفال هذا البيت ودُخل البيتُ ، فتحت العرب هذه الجزيرة وتملكوا أكثرها . فندم على فتحه وأغلقه .

وكانت سير الروم إذ ذاك : إذا كان فيهم من له قدر يدخل بناته قصر الملك الأعظم ، فيكنَّ مع بناته ويتأدبن بآدابهن ويتعلمن ما يتعلم بناته من العلوم والصنايع ثم يتخير لهن الملك من أشراف رجاله من يزوجهن منهم فيجهزهن إليهم ليحبب بذلك نفسه إلى الرجال والنساء والصبيان .

وكان يليـان [٣] صاحب سبتة وطنجة من خواص الملك لذريق ووجوه رجاله ، فأنفذ ابنته إليه إلى طليطله ، فكانت فى قصره وكان يزوره جليان مرة فى العام فى أغشت [٤] بهدايا وألطاف وطيور للصيد ، وكانت بنته من أجمل النساء [٥] فوقعت عين لذريق عليها وهو سكران ، فواقعها وافتضها . فلما صَحَا

---

(١) إقامطه جمع قمط أى كونت أو أمير Conde وأقسته أى قساوسته .

(٢) فى نسخة قديمة لحولية دون رودريجو (Crónica de Don Rodrigo (Toledo 1549 ، توجد صورة للوحة خشبية رسم عليها ملك القوط أمام باب حصن كبير مغلق باقفال سبعة وبجواره أسقف وجماعة من النبلاء يحاولون ثنيه عن عزمه بفتح هذا الباب المقدس .
راجع : (Gayangos: Op. cit., Vol. I, app. D. p. Xliv).

(٣) فى نسخة ح : جليان .

(٤) أغشت تعنى شهر أغسطس ، وما زالت هذه الكلمة تستعمل فى المغرب العربى .

(٥) هذه القصه العربية تذكرنا بقصة ابنة المقوقس حاكم مصر ، وقصة ابنة جرجير حاكم إفريقية على عهد البيزنطيين . ولا شك أن هذه القصص كلها من اختراع قصاص العرب إلا أنه يلاحظ أن قصة بنت يوليان لم تلبث أن ذاعت شهرتها بعد أن دخلت فى الاغانى الشعبية الاسبانية Romancero التى أعطتها فوق ذلك اسما وهو فلوريندا Florinda . راجع (Saavedra: Op. cit. pp. 58-61) وكذلك (حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٥٩ — ٦٠) .

وأخبر بذلك ، ندم وأمر بكتم ذلك وأن تمنع الصبية ابنة جليان من أن تخلو بأحد فتحدثه أو تكتب معه كتابا إلى أبيها . فلما لم تتمكن الصبية من شىء ، انفذت إلى أبيها هدية عظيمة وفى جملتها بيضة مفسودة . فلما رآها جليان أنكرها وعلم أن ابنته أفسدت ، فجاز إليه فى خلاف الوقت المعهود وذلك فى شهر يناير ، فقال له لذريق ، ما جاء بك فى هذا الشتاء الحاد ؟ قال له جئت لابنتى فإن أمها مريضة وتخاف المنيـة فقالت لى لابد أن أرى ابنتى واتشفّ منها . فقال له وهل نظرت لنا فى طيور ؟ فقال قد نظرت لك فى صيد طيور لم يُر مثلها قط ، وأنا آتيك بها عن قريب إن شاء الله . يعنى بذلك العرب . فأخذ ابنته وانصرف ، ومضى من فوره إلى افريقية إلى الأمير موسى بن نصير ، فلقيه بالقيروان . وموسى هذا هو ابن نصير بن عبد الرحمن بن زيد البكرى ولد سنة تسع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان معاوية بن أبى سفيان قد ولَّى نُصيراً والد موسى هذا على حرسه فلم يقاتل معه علياً رضى الله عنه . فقال له معاوية ما منعك من الخروج معى على عَلِىّ ويدى عليك لم تكافئنى بها ؟ فقال له لم يُمَكِّنى أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى منك . قال ومن هو ؟ قال الله عز وجل ! قال وكيف لا أُمَّ لك ؟ قال له نصير وكيف ما أَعْلَمك بها(١) فأغضِ وامْضِ ، فأطرق معاوية ملياً ثم قال : أستغفر الله ورضى عنه .

وكان موسى بن نصير قد أُمِّرَ على افريقية وما افتتح من الغرب(٢) فى حياة عبد الملك سنة تسع وسبعين وقيل سنة ثمان وسبعين ثم مات عبد الملك فأبقاه الوليد عليها .

ولمـا اجتمع يليان صاحب طنجة مع موسى بن نصير بالقيروان ، أخبره بقصة ابنته وقرَّب عليه مرام غلبة الأندلس وسرعة فتحها وكثرة أموالها وجمال سبيها ، وأنها بلاد مياه كثيرة وجنات وأنهار وغلات .

(١) يقصد بذلك أن معاوية كان يعلم فى قرارة نفسه أن على بن أبى طالب أحق منه بالخلافة .
(٢) فى ح : المغرب .

وكان موسى ذا رأى وتدبير وحُنكة وتجربة فى جميع الأمور . فقال للنصرانى إنا لا نشكُّ فى قولك ولا نرتاب ، غير انَّا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر وبينك وبين ملكك حمية الجاهلية واتفاق الدين . ولكن ارجع إلى مكانك واجمع جندك ومن يقول بقولك ، وجز إليه بنفسك ، وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، وإذ ذاك تطيب النفس عليك ونحن من ورائك إن شاء الله .

فكتب إذ ذاك موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك معلماً بما جاء به يليان فراجعه أن خذها بالسرايا حتى تُختبر ولا تُغَرِّرْ[١] . وإن يليان انصرف فجمع وحشد وجاز فى مركبين فحـل بالجزيرة الخضراء[٢] فشن الغارة على تلك البلاد وحرق وسبى وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيراً ، فشاع الخبر فى كل قطر ، ثم اجتمع ناس من البربر نحو ثلاثة آلاف راجل وقدَّموا عليهم أبا زرعة طريف بن مالك المعافرى[٣] ، وجاز بهم فحل فى جزيرة ، فسميت طريفا[٤] فثبت لها هذا الاسم إلى اليوم ، فشن الغارة وسبى وقتـل ورجع

---

(١) فى أخبار مجموعة ص ٥ — ٦ : خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . فكتب إليه موسى : أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه الخليفة الوليد . وإن كان ! فاختبره بالسرايا .

(٢) تسمى اليوم Algeciras وهى ميناء فى أقصى جنوب اسبانيا بجوار جبل طارق ، وتسمى أيضاً فى المراجع العربية بجزيرة أم حكيم وهى جارية لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند غزوه لاسبانيا ثم تركها فى هذه البلدة فنسبت إليها (الروض المعطار ص ٧٣) .

(٣) فى رواية أخرى طريف من ملوك ، وواضح من المتن أنه كان عربياً يمنياً وإن كان بعض المؤرخين يرى أنه بربرى (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٥) ولقد ظهر اسم طريف بعد ذلك على مسرح الحوادث المغربية على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بدمشق ، إذ تشير المصادر العربية إلى زعيم خارجى يدعى صالح بن طريف كان زعيما لقبائل برغواطه بتامسنا وهى المنطقة الممتدة من الرباط إلى ما وراء الدار البيضاء حتى مصب وادى أم الربيع وتعرف اليوم بالشاوية . وقد انضم صالح بن طريف إلى الثورة الخارجية التى قام بها ميسرة المطغرى الزناتى المعروف بالحقير ضد السياسة الاموية بدمشق .

راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام — القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب العربى — نشر أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى ، ص ١٨١ حاشية) .

(٤) ما زالت تعرف هذه البلدة إلى اليوم باسم Tarifa ، وتؤرخ غزوة طريف هذه فى شهر رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) .

سالماً ، فكتب يليان إلى موسى بالفتح ، وكتب به موسى إلى الوليد ، فاتفق أن وردت عليه فى ذلك اليوم إحدى عشرة بشارة كلها بفتوحات ، فخرَّ ساجداً لله تعالى .

ثم رجع يليان ثانية إلى موسى ، وأعلمه بما كان من فعله وبلائه وحرصه على غزو الأندلس . فدعا عند ذلك موسى مولاه طارق بن زياد[١] ، وعقد له على إثنى عشر ألفاً بين عرب وبربر ، وأمر يليان بالجواز معه بجملته ، وانحاش إليه خلق كثير متطوعين ، فمضى لسبتة وجاز فى مراكبه إلى جبل فأرسى فيه فسمى جبل طارق[٢] باسمه إلى الآن وذلك سنة اثنتين[٣] وتسعين من الهجرة . ووجد بعض الروم وقوفاً فى موضع وطى كان عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه فى البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم[٤] ، ورحل نحو قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه قاتلوا

---

(١) اختلف المؤرخون حول شخصية طارق فالبعض يرى أنه فارسى همذانى وأنه كان مولى لموسى بن نصير ، والبعض الآخر انكر ولاءه لموسى وقال إنما هو رجل من صدف أو مولى لهم ، والبعض الثالث يرى أنه مغربى من نفزه وهو الرأى الغالب . راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٣٣ ، ١٥٩) راجع كذلك ما قاله عنه ابن الشباط فى النص التالى .

(٢) هذا الجبل كان يسمى فى القديم Mons Calpe وهو اسم فنيق قديم معناه مغارة أو تجويف لعل المقصود بها تلك المغارة الكبيرة التى فيه وتسمى الآن بمغارة سان ميجيل ، ومن الطريف أن إحدى سفن الخط البحرى الانجليزى Bland Line التى تنقل الركاب من طنجة إلى جبل طارق وبالعكس يطلق عليها هذا الاسم القديم Mons Calpe وفى العصر الإسلامى سمى هذا الجبل بأسماء متعددة مثل الصخرة وجبل طارق ثم جبل الفتح على عهد الموحدين . على أن اسم طارق غلب عليه آخر الأمر فصار يعرف حتى الآن فى جميع اللغات الأوربية باسم Gibraltar .

(٣) فى الأصل سنة ٩٣ ﻫ وهو خطأ إذ أن الرأى السائد هو ربيع سنة ٩٢ ﻫ (٧١١ م) .

(٤) هذا النص مهم وفريد فى نوعه ، وإن كان ابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٩) قد أشار إلى استخدام المسلمين لبراذع الدواب عند صعودهم لجبل طارق وذلك عند قوله :

« وذلك لما جاز المسلمون ونزلوا فى المرسى وهما عرب وبربر وحاولوا الطلوع فى الجبل وهو حجارة حرش ، فوطؤوا للدواب بالبراذع وطلعوا عليها ، فلما حصلوا فى الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب » .

أو موتوا . فلقى عجوزاً فقالت له ، كان لى زوج عالم بالحدثان وكان يخبر أنه سيجوز رجل فى صفتك عظيم الهامة فى كتفه شامة[١] ، وفيه علامة تكون له الزعامة ، فكشف لهم عن الشامة والعلامة ، فتباشر الناس بذلك وتشجعوا به .

فلما انتهى خبره إلى لذريق ، خرج إلى لقائه فى مائة ألف فارس ومعه العجل تحمل الأموال والكسا وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت ، وعلى جسده حلة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الإبريسم ، ومعه أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى إذ لم يَشُكّ فى أخذهم[٢] .

وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقا ، مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى ، والابتهال إليه فى أن ينصر جيش المسلمين ، وما عُلم أنه هزم له جيش قط .

ورحل لذريق قاصداً قرطبه يريد طارقاً ، فلما تدانيا ، تخير لذريق رجلا شجاعاً عارفاً بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل فى عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيآتهم ، فمضى حتى دخل فى محلَّة المسلمين ، فأحس به طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ . فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها . فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذَبَح بقراً وغنما وجعل لحومها فى تلك القدور . وأصبح الناس ، فنودى فيهم بالاجتماع إلى الطعام ، فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم . فلما فرغوا ، انصرف الرسول إلى لذريق وقال له أتتك

---

(١) عبد الملك بن حبيب فى تاريخه (المرجع السابق ص ٢٢١) يصف طارق بأنه رجل طوال أشقر ، بعينيه قبل ، وبيديه شلل .

(٢) راجع (تاريخ عبد الملك بن حبيب : المرجع السابق ص ٢٢٢ حيث يوجد نفس النص مع بعض الفروقات الطفيفة) .

أمة تأكل لحوم الموتى من بنى آدم ، صفاتهم الصفات التى وجدنا فى البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح . فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا .

ثم لم يكن له بدٌّ من المقابلة ، فالتقيا يوم الأحد ، وصدق المسلمون القتال وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم ، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بان له أثر . فقيل إنه ترجل وأراد أن يستتر فى شاطئ الوادى ، فصادف غديراً[1] فغرق فيه فمات ، ولهذا وُجد فيه فرد خُفِّهِ وهو مرصع بالدر والياقوت عليه الحمل ، فانسل من رجله . وقُوِّمَ فى المغنم بمائة ألف دينار ، وانتهبت محلته وانتشر عسكر المسلمين فى الجزيرة يميناً وشمالا ، وكل ما غنم أخذ منه طارق الخمس لبيت المال . وقسم أربعة الأخماس على كل من حضر الوقيعة من المسلمين ، فتحصل منه مال عظيم ، وامتلأت أيدى الناس ، فتسامع الناس به من كل مكان ، فجاؤا إليه من شرق وغرب واتصل الخبر بموسى بكتاب طارق إليه ، فكتب به موسى إلى الوليد . ومضى طارق على وجهه إلى طليطلة ففتحها وما وراءها ، ووجد فى كنيستهم العظمى مائدة سليمان بن داوود عليه السلام ، ومرآة إذا نظر الناظر فيها رأى الدنيا كلها بين عينيه ، كانت مدبرة من أخلاط أحجار وعقاقير منقوشة بخط يونانى جليل ، وواحداً وعشرين مصحفاً من التوراة والانجيل والزبور ، ومصحف ابراهيم وموسى عليهما السلام ، وخمسة وعشرين تاجاً مكللة كلها لأن كلما مات ملك منهم ترك تاجه وكتب فيه اسمه وصفته وكم عاش وكم ولى[2] ، ومنافع الحيوان والأشجار والأحجار ،

---

(١) الغدير ، مستودع أو مجرى مائى ، وقد انتقلت إلى الاسبانية على شكل Gadayra ولعل اسم نهر Guadayra جاء من هذه الكلمة أيضاً . راجع (Gayangos: Op. cit., Vol. I, ap. D. p. Xliv).

(٢) راجع (تاريخ عبد الملك بن حبيب ص ٢٢٥) .

وطَلْسَمات عجيبة محكمة ، وكتاباً فيه الصنعة الكبرى وعقاقيرها واكسيرها[١] ، وصنع الأحجار واليواقيت ، الجميع فى أوان من ذهب مرصعة بالدر .

ورجع طارق إلى قرطبة واستوطنها بعد أن وغل فى بلاد الروم وانتهى فى غزوه إلى أن لقى أمة كالبهائم والوحوش حتى مل الناس السفر وخلقت أبدانهم من طول المشى المستمر . فقالوا له ألم تقنع بما فتح الله عليك ؟ فضحك وقال : تالله لو ساعدتمونى لسرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى وافتتحها بإذن الله[٢] . فإذا قد مللتم وسئمتم ، فارجعوا . فلما بلغ ذلك كله إلى موسى بن نصير حسده وخاف إن بلغ الوليد فعله وفتحه أن يسمو عنده ويرأس عليه ، فسار بنفسه إلى الأندلس فى عشرة آلاف فارس ، وكان معه من التابعين رضى الله عنهم حنش بن عبد الله الصنعانى وأبو عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد البجلى ، وعبد الرحمن بن شماسة المصرى وأبو النضر حيان بن أبى جبله مولى عبد الدار ويقال مولى ابن جبل بن حسنة ، فى عشرين رجلاً منهم[٣] ، وجاز إلى الجزيرة الخضراء وقصد قرطبة[٤] فتلقاه طارق وأكبره وعظَّمه ، فعلاه موسى بالقضيب على رأسه

---

(١) الصنعة الكبرى ، فسرها دوزى بالكيمياء (Supplemet aux Dic. Arabes t. I, ٨٤٨) بينما فسرها جاينجوس بصناعة الأحجبة والرقى والسحر الخ. (Op. cit., Vol. I, ap. D) والتفسير الأول أصح .

(٢) هذه العبارة تنسبها معظم المراجع إلى موسى بن نصير . راجع (تاريخ عبد الملك بن حبيب ص ٢٢٧ ، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٢) .

(٣) يؤيد عبد الملك بن حبيب هذا العدد (المرجع السابق ص ٢٢٣) وذلك عند قوله : « ودخل الأندلس من التابعين — سوى من لا يعرف — نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم أقبل موسى بن نصير إلى إفريقية » .

(٤) اختلفت المصادر حول المكان الذى التقى فيه موسى بطارق ، فابن عذارى يقول : اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة وهذا يتفق مع ما ورد فى المتن هنا . أما الرازى فإنه يشير إلى مكان بالقرب من طلبيرة غربى طليطلة وهو يتفق فى ذلك مع بعض المصادر الاسبانية التى تقول بأن اللقاء كان عند ناحية تسمى المعرض Almaraz وهو مكان على مقربة من طلبيرة .

راجع (حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٩٨ حاشية ٢ ، Saavedra Op. cit., p. 98) .

وقرعه[1] ومضى على وجهه حتى دخل قرطبة فقال لطارق : احضرنى جميع ما غنمت وما وجدت من الذخائر ، فأتاه بجميع ذلك وبالمائدة على زوج أرجل ، وأزال الثالث وخبأه لأمر دبّره لما أصابه وما شكره .

وكانت قطعة واحدة من زمرده خضراء خرط منها أحد أرجلها وحواشيها ، فقال له موسى ما هذا ؟ قال هكذا وجدتها ، فصدقه وصنع لها رجلا من ذهب وتتبع الأخماس والأموال وجمع منها ما لا يحصى عدده ، ومضى حتى أتى طليطلة وجاوزها وفتح ثمان عشرة مدينة وغنم وسبى وانصرف . وأقام ثلاث سنين يغزو ويجاهد ، وقد أقام طارق قبله ثلاثة أعوام ثم جاز البحر وأجاز معه طارق ، واستخلف على الأندلس ابنه[2] عبد العزيز بن نصير ، وقصد دمشق حيث أمير المؤمنين الوليد ، وحمل جميع ما جلبه من الأندلس وذلك ثلاثون عجلة موقرة ذهبا وفضة ، ومن الأعلاق النفيسة من الياقوت والدر والزبرجد ، والذخائر الرفيعة من الملابس ، ومائة ألف من سبى بين الرجال والنساء والصبيان ، منهم أربعمائة رجل من ملوك الأعاجم متوجين .

فلما قرب من دمشق بلغه أن الوليد مريض ، فكتب إليه سليمان بن عبد الملك أخوه وولى عهده من بعده ، أن يتأخر حتى يموت الوليد ، ويقدم بتلك الأموال عليه ، فتكون مالا له فى أول ولايته ، فلم يفعل موسى بل جدَّ فى السير حتى وصل والوليد لِمَا به ، فلم يعبأ به ، ولا عرف مقداراً لما جاء به .

---

(١) يذكر ابن عبد الحكم فى هذا الصدد أن موسى شد وثاق طارق وحبسه وهم بقتله لولا تدخل مغيث الرومى (فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢١٠) والواقع إن مثل هذه المعاملة القاسية لم يسجلها إلا نفر قليل من المؤرخين ، أما الغالبية ومعظمها من الأندلسيين فقد نظروا إلى هذه المسألة على أنها خلاف شخصى بسيط لم يتعدى دق التأنيب أو التوبيخ ثم الرضى والصلح والتعاون المشترك بينهما لانجاز هذه القضية الاسلامية الكبرى وهى فتح الأندلس .

راجع (رواية ابن حيان فى كتاب نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٢ وكذلك رواية ابن الشباط فى النص الثانى المنشور فى هذا المقال ، وأيضاً رواية عبد الملك بن حبيب) (المرجع السابق ص ٢٢٣) .

(٢) فى الأصل ، أخاه ، وهو خطأ واضح وقع فيه المؤلف مما اضطرنا إلى تصحيحه فى المتن .

وكان دخوله الأندلس فى جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين[١] وهو ابن ستين ، وأقام بافريقية ست عشرة سنة واليـاً ، وقفل منها سنة خمس وتسعين[٢] ، فمات الوليد عن قريب .

وكانت خلافة الوليد تسع سنين وسبعة أشهر ، وتوفى بدمشق يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وسبعة أشهر ، وقيل ست وأربعون ، وكان سبب موته أنه ركب يوماً فى قصره نجيباً وجعل حاديا يحدو به تشبهاً بالأعراب ، فكان الحادى يقول فى حدوه رجزاً منه :

يَا أَيُّهَا البِكْرُ الذى أَرَاكا　　وَيْحكَ هَلْ تَعْلم مَنْ عَلاكا
خَليفــةُ اللهِ الذى امْتَطَاكا　　لم يَعْطِ بِكْراً قَطُّ ما أَعطَاكا

فاستحسن الحدو ووصل الحادى وجعل يتمايل حتى سقط فمرض فمات وصلى عليه أخوه سليمان . ولما ولى سليمان الخلافة ، استحضر موسى بن نصير وسأله عن المائدة وأين رجلها فقال له هكذا وجدتها حين أخذتها ، فأخرج له طارق الرجل من عنده وقال بل أنا أخذتها هى وجميع ما أتى به غير اليسير . فلم يجد موسى جواباً وبقى باهتاً ، فسطا عليه سليمان وطالبه بمائتى ألف دينار ، فدفع إليه مائة ألف وعجز عن الباقى ، فسجنه حتى ضمنها عنه الأمير يزيد بن المُهَلَّب بن أبى صُفرة ، ووزعها على قومه وذلك لمخالفته إياه فيما كان أمره به من التثبط بتلك الأموال إلى أن يموت الوليد . وسأل سليمان بن عبد الملك عن هذه المائدة ، فقيل له إن الجن كانت تتحف سليمان النبى عليه السلام

---

(١) فى الأصل سنة ٩٧ ﻫ وهو خطأ فى النسخ بلاشك بدليل أنه يحدد بعد ذلك تاريخ عودة موسى تحديداً صحيحاً . هذا ومن المعروف أن عبور موسى إلى الأندلس كان فى شهر رمضان سنة ٩٣ ﻫ (يونيو ٧١٢ م) .

(٢) كان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٩٥ ﻫ (سبتمبر سنة ٧١٤ م) .

بهذه الفوائد ، تغوص عليها إلى قعر البحر فتخرجها . فكانت هذه المائدة فى بيت المال معظمة إلى أن ولى القرطر جزيرة الأندلس حين تغلب بخت نصر على بيت المقدس فحملها هى وغيرها من الذخائر الغريبة معه .

ثم عفا سليمان عن موسى وحج مع سليمان سنة ثمان وتسعين فمات موسى فى تلك الحجة فى مدينة النبى صلعم ودفن بها وصلى عليه سليمان[١] . فيروى عن بعض أهل المدينة أن موسى قال يوماً لبعض من يثق به ليموتنَّ إلى يومين رجل قد بلغ ذكره المغرب والمشرق . قال فلم أظن إلا أنه يعنى الخليفة فلما كان صباح اليوم الثانى لم أشعر وأنا فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم حتى سمعت الناس يقولون توفى موسى بن نصير » .

ذكر مروان بن محمد الجعد وأخبار الأندلس وولاتها

هو مروان بن محمد بن الحكم بن أخى عبد الملك بن مروان ، يكنى أبا اسحق ، وقيل أبا عبد الملك ، لقبه حمار[٢] الجعدى . أمه ريا ويقال طروبة[٣]

---

(١) فى بعض المصادر الأخرى أن الذى صلى عليه هو القائد المعروف مسلمة بن عبد الملك . راجع على سبيل المثال (عبد الملك بن حبيب ص ٢٣٥) ونحن نستبعد ذلك لسبب بسيط وهو أن مسلمة كان محاصراً للقسطنطينيه فى نفس هذه السنة سنة ٩٨ ﻫ التى توفى فيها موسى . ولعل أصحاب هذه الرواية كان يهدفون من وراء ذلك اختيار قائد لا يقل مكانة عن موسى مثل مسلمه بن عبد الملك .

(٢) لقب بالحمار لقوة تحمله وصبره فى القتال ، يقال فلان أصبر من حمار فى الحروب . أما تسميته بالجعدى فلأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . انظر (ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٣١ ، ٣٣٢) وقيل كذلك لأن أمه كانت من جعدة بن كعب (ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط لوحة ١ : ١ (مخطوط) .

(٣) كذا فى الأصل ويذهب المسعودى (مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٧) إلى أن أمه أم ولد يقال لها ريا وقيل طرونة كانت لمصعب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه . أما ابن الأثير (جـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ حاشية ٣) فيقول بأن أمه كانت أمة كردية يقال لها لبابه وكانت لابراهيم ابن الأشتر النخعى ، أخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم ، فولدت له مروان هذا ، ولهذا قال عبد الله بن عياش المشرف للسفاح : الحمد لله الذى أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أمة النخع ، ابن عم رسول الله (صلعم) ابن عبد المطلب .

كانت لمصعب بن الزبير وصارت من بعده لمحمد بن مروان فولدت له مروان هذا بحوران[١] من الجزيرة[٢] .

بويع فى صفر[٣] سنة سبع وعشرين ومائه ، واجتمع على بيعته أهل الشام ، وقعد عنها سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بنى أمية . وكان أبيض مشرباً بحمرة ، أشهل العينين ، عظيم الهامة ، كبير اللحية ، كثها . كاتبه عبد الحميد[٤] بن يحيى الأكبر ، وحاجبه صقلاب مولاه ، وصاحب شرطته كُريز ابن الأسود العنوى[٥] ، ونقش خاتمه : « اذكر الموت يا غافل » ، وهو آخر خلفاء بنى أمية .

ولما ولى الخلافة ، نبش قبر يزيد بن الوليد ، واستخرجه وصلبه[٦] ، وعزل عبد الملك بن قطن عن الأندلس ، وقدم عليها[٧] ثوابة بن نعيم الأنصارى وفتح حمص ، وخرب سورها لخلافهم عليه وذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائه . وخرج عليه الضَّحاك بن قيس الشارى فيمن تبعه من الخوارج[٨] وتوجه إليه ، وأقبل مروان نحوه ، فالتقوا بكفرتوثا[٩] سنة ثمان وعشرين ومائة ، فى صفر ،

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها حران بالجزيرة لأن حوران (بفتح الحاء) كورة من أعمال دمشق من جهة القبلة أى الجنوب . راجع (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٦٠) .

(٢) فى نسخة م بحوران من الجزيرة بالشام .

(٣) صفر ساقطة فى ج .

(٤) حول أخبار هذا الكاتب الكبير راجع (الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٧٢ وما بعدها (القاهرة ١٩٣٨) .

(٥) فى (م) : الغنوى .

(٦) راجع (ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٢٨٣) .

(٧) فى (م) : سوابه .

(٨) فى كتاب المعارف لابن قتيبة الدينورى ص ١٦١ (مصر ١٩٢٥) : الضحاك بن قيس الشارى من شهر زور فيمن بايعه من الخوارج .

(٩) في ج ، ج I ثونا ، وفى م بكعربوتا ويبدو أن الاسم الصحيح هو كفر توثا وهى من أعمال ماردين بالجزيرة كما ورد فى (الطبرى جـ ٦ ص ١٥ ، ١٦ ؛ ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ؛ ابن قتيبة المعارف ص ١٦١) .

فقتل الضحاك بن قيس الشارى ، وقام مقامه الخبيرى[١] ، فَهُزِمَ مروان وانصرف[٢] . وولَّى الخوارج شيبان ورجع أصحابه إلى الموصل[٣] ، وأتبعه مروان فقاتله شهراً فانهزم شيبان ، ووجه مروان خلفه عامر بن ضُبارة المُرِّى .

واستعمل يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى على العراق ، فأقبل حتى قدم واسطاً ، وجاء[٤] عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مخالفاً لمروان ، فأخذه يزيد ابن عمر بن هبيرة وأوثقه وبعث به إلى مروان ، فلم يزل فى حبسه مع ابن له حتى مات فيه .

ولم يزل مروان فى تَشَتُّتٍ من أمره[٥] واضطراب من النواحى عليه ، وهو مع ذلك يقيم الحج للناس إلى سنة ثلاثين ومائة[٦] فظهر عبد الرحمن أبو مسلم بخراسان داعياً لبنى هاشم وبهـا نصر بن سيار عامل لبنى أمية . فواقعه أبو مسلم ، ففض جموعه ، وسار نصر هارباً حتى توفى بأرض ساوه[٧] من همذان .

وكانت خلافة مروان خمس سنين وعشرة أشهر وقيل غير ذلك ، وتوفى

---

(١) كذا ، وفى معظم المصادر الأخرى يسمى الخيبرى . راجع (الطبرى ج ٦ ص ١٦ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٩٦ ، ابن قتيبة : المعارف ص ١٦١) .

(٢) من المعروف أنه بعد انصراف مروان منهزماً تجمع بعض عبيده وأنصاره وقتلوا الخيبرى الذى كان مقيماً فى خيمة مروان مع قلة من أصحابه . فلما علم الخوارج بقتله ولوا عليهم شيبان الحرورى وبايعوه . راجع (ابن الأثير ج ٤ ص ٢٩٧)

(٣) فى (ابن قتيبة : المعارف ص ١٦١) : وولى الخوارج شيبان فرجع بأصحابه إلى الموصل .

(٤) فى (ابن قتيبة : العارف ص ١٦١) وبها عبد الله ... وهى من حيث السياق والمعنى أصح .

(٥) فى م : تشتيت .

(٦) يضيف (ابن قتيبة : المعارف ص ١٦١) : فكان ذلك آخر ما أقام بنو أمية للناس حجهم وظهر أبو مسلم عبد الرحمن بخراسان .

(٧) فى الأصل سارة وصحتها كما ورد فى (ابن الأثير ج ٤ ص ٣١٧ ، وياقوت ج ٥ ص ٢١) ساوه وهى مدينة بين الرى وهمذان . وتنتهى حروفها بهاء ساكنه وابدالها تاء خطأ . وقد توفى نصر بن سيار فى شهر ربيع الأول سنة ١٣١ هـ .

أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة بأبى صير[١] ، وتأتى سير من أعمال مصر على الصفة التى أذكرها فى أخبار أبى العباس السفاح إن شاء الله . وهو ابن ست وخمسين سنة وقيل سبع وستين[٢] .

وأقام ثوابة بن نعيم الأنصارى[٣] ، أميراً على الأندلس[٤] أربع سنين إلى أن ظهرت الدولة العباسية بالمشرق وزالت دولة بنى أمية وقام بالخلافة بنو العباس ، فبقى الأمر بالأندلس سُدًى[٥] . فاتفق أهل الأندلس على تقديم يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، وكانت دار الإمارة قرطبة ، فأقام بها أميراً إلى أن يأتى أمر الخليفة بوال ، فتأخر الأمر باشتغال بنى العباس بالمشرق لأنه كان أهمَّ وأعظم وذلك سبع سنين ، وقيل أقام الفهرى والياً عشر سنين إلى أن قصد الأندلس عبد الرحمن بن معاوية[٦] بن هشام بن عبد الملك فاراً من بنى العباس حين استولوا على الخلافة بالمشرق . وانحاش إليه كل من كان من بنى

---

(١) فى م ، خمس سنين غير شهر ، وتوفى آخر إحدى وثلاثين ومائة ، وهذا الاختلاف نجده أيضاً فى روايات المؤرخين الآخرين فيجعله المسعودى فى أول سنة ١٣٢ هـ (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨) أما ابن الأثير وابن قتيبة وياقوت فيتفقون على أن مروان قتل فى ذى الحجة سنة ١٣٢ فى قرية بوصير من أعمال الفيوم بصعيد مصر . ومن الطريف أن ياقوت يسمى هذه القرية باسمها القديم إذ يقول : وفى بوصير قوريدس من كورة الأشمونين قتل مروان بن محمد (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠٦) .

(٢) فى م : وقيل تسع وستون .

(٣) لعله يقصد من غير شك ثوابة بن سلامة العاملى الجذامى وهو من أهل فلسطين وكان سيد قبائل لخم وجذام فى الأندلس وقد تولى ولاية الأندلس سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م) . أما مدة ولايته فقد اختلف فيها المؤرخون فبينما يرى ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٦١) وابن بشكوال (ينقل عنه المقرى فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٤) وابن القوطية (تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨٨) وصاحب أخبار مجموعة (ص ٥٧) أن مدة ولاية ثوابة لم تدم إلا سنة أو نحوها ، نجد أن ابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥ ، يجعلها سنتين بينما يجعلها ابن الكردبوس فى المتن أربع سنوات ! ! هذا وتجدر الاشارة هنا أن اسم ثوابه لم يرد فى قائمة اسماء الولاة التى وردت فى معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى للمستشرق زامباور ج ١ ص ٨٥ (الترجمة العربية) .

(٤) هذه العبارة ساقطة فى ج .

(٥) سدى ، بالضم والفتح ، يقال إبل سدى أى مسيبة مهملة للواحد والجمع .

(٦) فى نسخة ج ، فاشتغل بنو العباس بالمشرق لأنه كان أهم وأعظم ولم يقدموا على الأندلس أحداً وذلك قدر سبع سنين إلى أن قصد الأندلس عبد الرحمن بن معاوية .

أمية بالأندلس ، وممن[1] يقول بقولهم ، ومن كان[2] يَجِدُ على يوسف الفهرى موجدة لمظلمة جرت عليه ، أو لتقصير قصَّر به ، أو لعطاء حرمه ، مال إلى عبد الرحمن فاجتمع[3] عنده جمع كبير ، وقصد بهم قرطبة دار إمرة[4] الفهرى فبرز[5] إليه الفهرى فى جيش لا يحصى كثرة فاقتتلا وتحاربا مدة من عام إلى أن هزم الفهرى وقتل[6] ، واستبيح عسكره وقتل أكثره ، ودخل عبد الرحمن قرطبة ، وطاعت له الأندلس بأسرها[7] ؛ وملكها ثلاثاً وثلاثين سنة ، ولقى فيها

---

(١) فى م : ومن .

(٢) فى م : يوجد .

(٣) فى م : منه .

(٤) في م : إمارة .

(٥) فى م : فنزل .

(٦) يوسف الفهرى لم يقتــل فى هذه الموقعة وإنما قتل بعد ذلك بأربع سنوات عندما قام بثورة ضد عبد الرحمن محاولا استعادة نفوذه القديم ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله بنواحى طليطلة سنة ١٤٢ (٧٥٩ م) . (راجع ابن عذارى ج ٢ ص ٤٩) .

(٧) عرفت هذه الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها عبد الرحمن على يوسف الفهرى باسم المصارة (بالصاد أو السين) كما عرفت كذلك فى المراجع الاسبانية باسم ألاميدا Alameda وكان ذلك فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٥ مايو سنة ٧٥٦ م) . وتمتد مصارة قرطبة — التى حدثت عندها الوقعة — فى جنوب غرب المدينة على الضفة اليمنى من نهر الوادى الكبير . وكلمــة المصارة لا نعرف معناها أو أصلها وقد أطلقت على عدة أماكن فى المغرب والأندلس ولا سيما على الفضاء الفسيح المجاور للمدن الكبرى مثل قرطبة وغرناطة وفاس . وعادة ما كانت تقام فى هذه الأماكن ألعاب الفروسية وعرض الجيوش كما تقام فيها أيضاً الصلوات العامة كصلاة العيدين أو صلاة الاستسقاء ، ولهذا اختلط الأمر بين المصارة والمصلى خصوصاً وأنهما فى مكان واحد . ومن الطريف أن هذا اللفظ انتقل إلى اللغة الاسبانية باسم Almuzara المثارة . ولا زالت الى اليوم توجد عدة أماكن فى شمال اسبانيا بهذا الاسم وأغلبها أراضى زراعية فسيحة وهذا مما دعا بعض المستشرقين إلى اعتبار كلمة المزارع والمزارعة أصلا لكلمــة المصارة . راجع :

(Torres Balbás: *Al-Muzara*, al-Andalus, 1959, fasc. II, pp. 425-433 & Jaime Oliver Asín: *Las dos Almuzaras*, al-Andalus, 1962, fasc. I).

أما التسمية الثانية لهذه الموقعة وهى ألاميدا Alameda فقد وردت فى الكتب الاسبانية فقط . ويبدو أن وجود أل فى هذه الكلمة جعل بعض الكتاب يظن أن أصلها عربى مثل معظم الكلمات الاسبانية العربية الأصل ومثـــال ذلك تفسير دائرة المعارف الإسلامية لهذه الكلمة بالميدان . انظر (*Ency. of Islam*, art. Alameda) غير أن الأمر الذى لا شك فيه هو أن أصل هذه الكلمة لاتينى =

حروباً وقاسى خطوباً . ثم توفى عبد الرحمن[١] وولى ابنه هشام بن عبد الرحمن وأقام ملكاً[٢] سبع سنين وتوفى[٣] .

وولى ابنه الحكم فأقام ملكاً ستاً وعشرين سنة ثم توفى[٤] . وولى ابنه عبد الرحمن[٥] فأقام والياً إحدى وثلاثين سنة ثم توفى . وولى ابنه محمد[٦] فأقام والياً أربعاً وثلاثين سنة وفى أيامه انتهى جيش المسلمين عنده مائة ألف فارس ، منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة ، وأنشأ فى البحر سبع مائة غراب[٧] ثم توفى .

وولى ابنه المنذر بن محمد[٨] ، فأقام والياً ثلاث سنين ثم توفى .

= Alamo أى شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق ، والمكان الذى يكثر فيه هذا الشجر يسمى ألاميدا Alameda وهذا الاسم منتشر فى بلاد اسبانيا ولا سيما بنواحى ليون وسرقسطة وبرغش وأسترقه .

راجع تفسير هذه الكلمة فى قاموس الأكاديمية الملكية للغة الاسبانية . وانظر كذلك :
(Aguado Bleye: *Historia de España*, I, p. 405).

(١) هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن الأول بن معاوية المعروف بالداخل وبصقر قريش وقد حكم الأندلس من ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٦ — ٧٨٨ م) .

(٢) فى م ، مالكها .

(٣) هو الأمير أبو الوليد الراضى هشام الأول بن عبد الرحمن من ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ — ٨٢٢ م)

(٤) هو الأمير أبو العاصي الحكم الأول بن هشام المعروف بالربضى ، حكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ — ٨٢٢ م) .

(٥) هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن — الأوسط أو الثانى — بن الحكم ، مدة ولايته من ٢٠٦ إلى ٢٣٨ هـ (٨٢٢ — ٨٥٣ م) .

(٦) هو الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الثانى ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ (٨٥٢ — ٨٨٦ م) .

(٧) هذه القوة العسكرية الأندلسية قد ورد ذكرها أيضاً فى كتاب (ابن أبى دينار : **المؤنس** فى أخبار افريقية وتونس ص ٩٧) .

(٨) هو الأمير أبو الحكم المنذر بن محمد وحكم من سنة ٢٧٣ إلى ٢٧٥ هـ (٨٨٦ — ٨٨٨ م) .

وولى أخوه عبد الله بن محمد[١] ، فأقام والياً خمساً وعشرين سنة ثم توفى . وولى ابنه عبد الرحمن الناصر بن عبد الله[٢] وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فأقام ملكاً خمسين سنة ، منهـا خمس وعشرون سنة فى غزو وحروب حتى دانت له الروم كلها وولت وخمدت فى أقصى بلادها فى كثرة أعدادها ، وخمس وعشرون سنة أخرى فى البطالة والراحة والمجون ، وإذ ذاك أمر ببنيان الزهراء[٣] فكملت فى خمس وعشرين سنة . وأحصى الأمناء على بنيانهـا جملة ما أنفق

---

(١) هو الأمير عبد الله بن محمد وحكم من سنة ٢٧٥ إلى ٣٠٠ هـ (٨٨٨ — ٩١٢ م) .

(٢) هو الخليفة أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الثالث حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ (٩١٢ إلى ٩٦١ م) ويلاحظ أنه حفيد سلفه الأمير عبد الله وليس ابنه ويعتبر عهده من أزهر عصور الأندلس .

(٣) ما زالت بقايا هذه المدينة قائمة على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس Sierra de Córdoba ، ويسميها الاسبان Medina Zahra . وواضح أن الدافع لانشائها هو رغبة الخليفة عبد الرحمن الناصر فى اقامة مدينة ملكية خاصة أو دار للخلافـة السنية الجديدة التى أقامها فى الأندلس ، وإن كانت المصادر الأندلسية تشير إلى أنه بناها تكريمـاً لذكرى جارية له اسمها الزهراء ، وكيفما كان الأمر فإن تصميم هذه المدينة يشهد ببراعة الأندلسيين فى الهندسة والبناء ، فمن وصف المؤرخين القدامى ، أمثال الشريف الادريسى وابن عذارى ، ومن كلام علماء الآثار المحدثين أمثال المهندس الاسبانى بلاسكث بوسكو Velázquez Bosco والعالم الفرنسى جورج مارسيه ، يتضح لنـا أنها كانت مدينة ثلاثية مدرجة على سفح الجبل : القسم الأعلى فيه القصر الخلافى ، والقسم الأوسط عبارة عن بساتين ورياض ، والقسم الأسفل يحتوى على المسجد ومنازل الخاصة والحرس . وكل قسم من هذه الأقسام له سور وأبواب ، وكانت الميـاه تأتيها من أعلا الجبل فى قنوات على بعد ثمانين كيلومتراً ، وقد اقتضى هذا الأمر إلى نقب الجبل بطريقة هندسية رائعـة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم على شكل عيون فى الجبل . وتشير المصادر إلى اسم المهندس العربى الذى أشرف على هذا البناء وهو سلمة بن عبد الله . هذا وينبغى أن نشيد بالمجهودات العظيمة التى يبذلها فى وقتنا الحاضر العلماء الاسبان فى سبيل ترميم هذه المدينة وإعادة بنائها كما كانت من قبل ، ونخص بالذكر منهم فلكس ايرناندث Félix Hernández ورفاييل كاستخون Rafael Castejón .

راجع وصف الحميرى لبنـاء مدينة الزهراء فى كتابه الروض المعطار ص ٨٠ — ٨٢ ، وكذلك (محمد بن غالب ، فرحة الأنفس ص ٣١ — ٣٤ نشر لطفى عبد البديع — مجلة معهد المخطوطات المجلد الأول ج ٢ سنة ١٩٥٥) .

راجع كذلك : R. Velázquez Bosco: *Medina Azzahra y Alamiriya.* (Madrid, 1912)

عليها ، فوجدوه خمسة وثمانين مُداً[١] من الدراهم القاسمية[٢] [٣] ، سوى من سُخِّر فيها من الرعية ومن زوامله وزوامل أجناده . وحُصِّلَ[٤] مجباه فى العام فبلغ خمسة آلاف ألف دينار ، فكان يقسمها أثلاثاً ، فالثلث يختزنه فى بيت المال ، والثلث ينفقه على الأجناد ، والثلث يهبه على الشعراء والخطباء والقصاد[٥] .

---

(١) فى نسخة أخرى مديا ، والمد والمدى معناهما واحد وان كانت الأولى أقرب للعامية من الثانية . والمد أو المدى والجمع أمداد ، كيل معين اختلفت سعته فى العالم الإسلامى حسب اختلاف الأمكنة والعصور والمذاهب ويبدو أن هذه الكلمة مأخوذة من اللاتينية Modius أو Modium ثم انتقلت إلى العربية ومنها إلى الاسبانية بنفس الشكل : al Mud وقد اختلف كيل المد حسب المناطق التى تستعمله ، فهناك المد النبوى مكيال أهل المدينة وسعته ربع الصاع ، وفى الحديث : « أن النبى (صلعم) كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد » ، أى أن صاع الرسول بالمدينة كان أربعة أمداد بمدهم المعروف عندهم . هذا ويروى أبو حنيفة أن سعة المد أربعة أرطال بغدادية ، بينما يرى أبو يوسف أن المد رطـــل وثلث بغدادى . ولا يزال المد النبوى معروفاً فى المغرب فى وقتنا الحاضر ، وسعته حوالى ٣/٤ لتر بينما سعة الصاع ٣ لتر . على أنه يلاحظ أن المد الذى كان متداولا فى المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط كانت سعته أكبر من ذلك بكثير : فالمد الذى كان مستعملا فى مدينة أصيلا كانت سعته عشرين مداً نبوياً ، وسعة المد فى مليلية ٢٥ مداً نبوياً ؛ أما سعة المد فى قرطبة أيام عبد الرحمن الناصر فقد حدده النويرى بقوله : فاشتد بها الغلاء فبيع مدى القمح — وهو قفيزان ونصف بالقروى (نسبة إلى القيروان) — بثلاثمائة درهم » . راجع (الأب انستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميـــات ص ٣٩ — ٤٠ (القاهرة ١٩٣٩) . أبو الحسن على بن يوسف : الدوحة المشتبكة فى ضوابط السكة ، نشر الدكتور مؤنس ، ص ٨٦ (مدريد ١٩٦٠) ، الونشريشى : كتاب أحكام السوق ، نشر الدكتور محمود مكى ، (مجلة المعهد المصرى بمدريد العدد ١ — ٢ (١٩٥٦) راجع كذلك :

(R. Dozy: *Supplement*, II, pp. 575-576 y Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane*, t. III, p. 246-247 note).

(٢) يرى المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال أن الدرهم القاسمى ينسب إلى شخص غير معروف اسمه قاسم ، وأن هذا الدرهم كان متداولا بكثرة أيام الخلافة الأموية لدرجة أنه قد ورد ذكره فى بعض دساتير مملكة ليون تحت اسم Kazimi ، Cathimi ممـــا يدل على رواجه فى اسبانيا المسيحية أيضاً . راجع (Lévi-Provençal: *Op. cit.*, t. III, p. 257).

(٣) قدر ابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١) أن جملة ما أنفقه عبد الرحمن الناصر فى بناء مدينة الزهراء وقصورها خمسة وعشرون مديا من الدراهم القاسمية وستة أقفزة وثلاثة أكيال ونصف .

(٤) راجع تفسير كلمة حصل في (Dozy: *Supplement aux Dictionnaires Arabes*, I; p. 296).

(٥) فى ابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢) وكان الناصر قد قسم الجباية على ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانية ألف دينار ، ومن المستخلص والأسواق سبع مائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار .

وأمر ببنيان مدينة سالم[١] . واستقضى جحّاف[٢] بن أيمن ، وتسمى بالخليفة أمير المؤمنين[٣] ، وخطب لنفسه وكان من تقدمه من آبائه يخطبون لبنى

---

(١) مدينة سالم Medinaceli وتقع شمالى مدريد بنحو ١٥٣ ك. م. فى الطريق الذى بين مدريد وسرقسطة وهى الآن من أعمال مقاطعة سورية Soria . ولا شك أن المقصود فى النص هو إعادة بنائها وتعميرها إذ من المعروف أن مدينة سالم قديمة البنيان وقد عرفت فى العصر الرومانى باسم Ocilis ولما فتح العرب اسبانيا ، عمر هذه المدينـــة زعيم مغربى مصمودى اسمه سالم بن ورعمال المصمودى الذى يحتمل أن يكون من قادة الرعيل الأول الذى قام بفتح اسبانيا . ومنذ ذلك الوقت عرفت هذه المدينة باسم هذا القائد سالم . راجع (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٦) ولكن يبدو أن الفتن والاضطرابات التى حلت بالأندلس فى أيام الأمير عبد الله قد خربت هذه المدينة وفى ذلك يقول ابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤) :

وفى سنة ٣٣٥ كان ابتداء مدينة سالم بالثغر الأوسط ، ففى هذه السنة ابتنى الناصر مدينة سالم القديمة التعطيل بالثغر الاوسط الشرقى ، المواجهة لبلد قشتيلة Castilla دمرها الله تعالى ، وهى يومئذ خالية مقفرة ، وأرسل لذلك غالبا مولاه فى جيش جرده معه من الحضرة ، وانفذ العهد إلى قواد الثغر بالاجتماع إليه لبنيانها ، فسارعوا إلى أمره ، وبنيت أحسن بناء ، ونقل إليها البناؤون من بلاد الثغر للاختطاط لديارها والرباط بها ، فتم ذلك فى صفر من هذه السنة ، واطمأنت الدار بها وصيرها شجا فى حلوق الكافرين : راجع تفاصيل كثيرة حول أسرة القائد سالم السالف الذكر فى (ابن حيان : المقتبس نشر محمود مكى تحت الطبع —) .

(٢) جحاف بن أيمن ، وفى (ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٩١ ترجمة ٣٢٠) : جحاف بن يمن ، من أهل بلنسية ، حسن التصرف ، وجيها ، ولاه أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر رحمه الله أحكام القضاء بموضعه أى بلنسية ، فلم يزل قاضياً إلى أن استشهد فى غزاة الخندق عند مدينة شنت منكش أو شمنقة Simancas سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩م) وهى التى هزم فيها عبد الرحمن الثالث أمام جيوش راميرو الثانى ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة نبرة Navarra . راجع حول هذه الوقعة (أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ص ١٢ — ١٣ معهد مدريد ١٩٥٣) ولعل من سلالته قاضى بلنسية جعفر بن عبد الله بن جحاف الذى قتله السيد الكمبيادور سنة ٤٨٩ هـ عندما استولى على بلنسية .

(٣) هذا الحدث الهام الذى تحولت به الإمارة الأموية فى الأندلس إلى خلافة مستقلة سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية وقع فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، عندما أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة وتلقب بالخليفة الناصر لدين الله . وكان الدافع الأساسى لذلك هو مقاومة نفوذ الخلافة الشيعية الفاطمية التى بسطت سلطانها على المغرب وأخذت ترنو ببصرها نحو احتلال الأندلس حتى يصبح الغرب الإسلامى كله فى يدها (ابن أبى دينار : ص ٤٢) ومن حسن الحظ أن الاعلان الخاص بقيام هذه الخلافة الأموية السنية الجديدة موجود ومنشور . راجع :

(Lévi-Provençal y García Gómez: *Una Crónica anónima de ʿAbd al-Rahman III al-Nasir*, p. 78-80 (Madrid, 1950).

العباس[1] ، فلما قام على بنى العباس بمصر وإفريقية بنو عبيد ، وتسموا بالخلفاء وأمراء المؤمنين ، وانشغل عنهم بنو العباس بما كانوا فيه من الخلع والخلاعة والقيام عليهم والفتك بهم ، اقتدى عبد الرحمن الناصر بهم وسلك مسلكهم

---

(١) يفهم من المتن أن جميع أمراء بنى أمية الذين حكموا الأندلس قبل عهد عبد الرحمن الناصر قد دعوا فى خطبهم الدينية لخلفاء بنى العباس ببغداد رغم العداء السياسى الذى كان قائماً بين هاتين الدولتين . غير أن هذه الرواية فى الواقع لم يقم عليها دليل تاريخى ، والمؤرخ الوحيد الذى أيدها عاد ثانية ونفاها وهو محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار ، وذلك عند قوله فى كتابه المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤٢ — ٤٣ ، ص ٩٧ (تونس ١٢٨٦) : ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد وبقى ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة وتداولتها بنوه من بعده ، ولم يخطب أحد منهم لبنى العباس ، ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن الذى تلقب بالناصر لدين الله وتسمى بأمير المؤمنين . . . وقيل إن من تقدمه من آبائه كان يخطب لبنى العباس ! !

أما ثقاة مؤرخى الأندلس أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقرى ، فقد حددوا مدة الدعاء لبنى العباس فى الأندلس بفترة قصيرة فقط فى بداية عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك .

فابن حزم فى كتابه نقط العروس ص ٧٥ يقول إن الدعوة للعباسيين استمرت عدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الأول .

كذلك يقول ابن الأبار فى كتابه الحلة السيراء (ج ١ ص ٣٥ — ٣٦) وأقام عبد الرحمن (الأول) أشهراً دون السنة يدعو لأبى جعفر المنصور . . . متقيلا فى ذلك يوسف الفهرى فى الدعوة للعباسيين .

أما المقرى فقد أورد لنا رواية طريفة لعلها نقلا عن ابن حيان يبين فيها الظروف والملابسات التى تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين . يقول :

وفر من الشام الامير عبد الملك بن عمر بن مروان الأموى خوفاً من المسودة (أى العباسيين) فنزل بمصر ومضى إلى الأندلس ، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوه به وولاه اشبيلية لأنه كان قعدد بنى أمية (كان ابن عم هشام بن عبد الملك أى أنه بالنسبة لعبد الرحمن الداخل فى مقام جده) . ثم انه لما وجد الداخل يدعو لأبى جعفر المنصور العباسى ، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بنى العباس ببنى أمية ، فتوقف عبد الرحمن فى ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم ، قتلت نفسى ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر .

راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٩) . راجع كذلك :

(M. Makki: *Las aportaciones Orientales*, p. 112, nota 2, Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vol. IX y X, 1962).

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن ما ورد فى المتن من أن أمراء بنى أمية فى قرطبة قد دعوا للعباسيين أمر مبالغ فيه وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عهد عبد الرحمن الأول ثم قطعت بعد ذلك نهائياً .

فى مذهبهم ، ثم توفى . وولى ابنه الحكم[١] بن عبد الرحمن وأقام والياً خمس عشرة سنة كاملة واستكتب محمد ابن أبى عامر[٢] وقرّبه وأظهره ثم توفى .

وولى ابنه هشام بن[٣] الحكم ، فاستوزر محمد بن أبى عامر المذكور ، فأقام معه وزيراً نحو العام ، وكان ابن أبى عامر فى غاية من الذكاء والشهامة والشجاعة ، فرأى هشاماً صبياً غراً ، مشتغلا باللعب والفتك والخلاعة ، فحجر عليه ، وضرب على يديه بعد أن استمال الأجناد بالإحسان إليهم ، والرعايا بالرفق والامتنان عليهم ، فمالوا معه جملة ، واتفقوا على هذه الفعلة ، فبنى لنفسه قصراً[٤] ونقل إليه بيت المـال ، واستكتب الكُتّاب ، واستعمل الحُسّاب ، وأنفذ إلى جميع الأعمال من وثق بأمانتـه من العمال ، ولم يترك لهشام سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ، واختار هو لنفسه ، وصيّر باسمه سائر رسمه ، غير أنه ينفذ الأمور عنه ، ويظهر للناس أنها تصدر منه .

---

(١) الخليفة أبو المطرف الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله ، بن عبد الرحمن الناصر حكم من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٦ هـ (٩٦١ — ٩٧٦ م) .

(٢) هو الحاجب المشهور . المعروف بالمنصور بن أبى عامر ، وقد توفى فى ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) .

(٣) الخليفة أبو الوليد هشام الثانى المؤيد بن الحكم ٣٦٦ — ٤٠٠ هـ (٩٧٦ — ١٠٠٩ م) .

(٤) هو القصر المعروف باسم المدينة الزاهرة وهى التى بناها المنصور بن أبى عامر فى شمال شرق قرطبة وهى تقابل مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر فى شمال غرب قرطبة ولقد اندرست هذه المدينة بعد مدة قصيرة من بنائها وذلك عندما قام الخليفة المهدى محمد بن عبد الجبار بثورته ضد عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر المعروف بشنجول سنة ٣٩٩ هـ . وفى ذلك يقول ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام ص ١١١ (القسم الخاص بالأندلس) :

وانتهب الزاهرة فتقسمت الأيدى كل ما اشتملت عليه من مال مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية وفرش وآنية حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة ، وتوصل منها القائم — زعموا — بعد ذلك لخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار دراهم ، ومن الذهب لألف ألف وخمسمائة ألف دينار . واستخرج من بعض الدفائن مائتى ألف لم يغن عنه شيئاً مع الاضطراب والفتنة . وأطلق من حرم آل عامر الحرائر ، واصطفيت الإماء . ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدمها وحط أسوارها وقلع أبوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس آثارها وتعجيل ذلك توقعاً لتدارك عبد الرحمن بن أبى عامر ومن لديه من الجيوش أمره ، وسوغ الناس انقاضها كأن لم تغن بالأمس . أما ابن عذارى فإنه يضيف فى أحداث سنة ٤١٥ أيام الخليفة المستكفى بقوله : وطمست أعلام قصر الزاهرة ، فطوى بخرابها بساط الدنيا ، وبتغيرها تغير حسنها . راجع (البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢) .

ثم سمت به همته وشجاعته إلى قود العساكر التى هى فى طاعته ، وغزو بلاد الروم ، إلى أن ذلل منها كل صعب غير مروم ، ففتح الله على يديه ، وفتح برجلونه Barcelona ، وقتل ملكها بريل Borrell(١) ، وسبى أهلها وخرّبها وغنم منها غنائم كثيرة من عبيد وخدم ومال وسلاح وثياب وبهائم ، وآب إلى قرطبة سالماً غانماً ظافراً . ثم غزا عدة غزوات ، وفتك فى الروم جملة فتكات حتى دانت(٢) له أقاصى بلاد الشرك ، ودخلت له بالسلم تحت الملك إلى أن وافاه رسول صاحب القسطنطينية(٣) العظمى ، ورسول صاحب رومة(٤)

---

(١) فى نسخة م ، مربل وصحته كما ورد فى المصادر المسيحية Borrell II بريل الثانى وكان قومسا أى حاكماً على مدينة برشلونه فى ذلك الوقت (٩٥٤ – ٩٩٢) . ومن المعروف أن المنصور ابن أبى عامر قد خرج بحملته هذه من العاصمة قرطبة متجهاً إلى برشلونه فى ١٢ ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (٥ مايو ٩٨٥ م) . وسارت الحملة فى طريق البيرة وبسطة ثم مرسية ، ومن هناك اتجهت شمالا فى الطريق الساحلى الشرقى المطـل على البحر المتوسط حتى بلغت برشلونة بعد شهرين تقريباً ، فقلبت أعاليها سافلها ، ولم يجرؤ حاكمها بريل الثانى على مواجهة المنصور وانقاذ المدينة من براثنه . على أنه يلاحظ أن هذا الحاكم لم يقتل فى هذه الحملة كما هو مبين فى المتن وإنمـا مات بعدها سنة ٩٩٢ م .
راجع : (Lévi - Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane,* II, pp. 238-239 et note 3; Aguado Bleye: *Hist. de Esp.*, I, p. 506).

(٢) فى ج ، ذلت .

(٣) صاحب القسطنطينية أو امبراطور الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت هو بازيل الثانى Bazile II (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) ويعتبر عصره الطويل من أزهر عصور هذه الأسرة المقدونية الحاكمة .
راجع : (Augustin Feliche: *La Chrétienté Médiévale,* 395-1254), *Histoire du Monde,* tome VII, p. 247, (Paris, 1929).

(٤) صاحب روما : المقصود به أوتو أو أوتون الثالث (Othon ou Otto III) ملك ألمانيـا وإيطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة . تولى الحكم وهو صغير السن بعد وفاة والده الامبراطور أوتو الثانى سنة ٩٨٣ ، فقامت أمه بالوصاية عليه . ولما بلغ سن الرشد سنة ٩٩٦ م . غادر ألمانيا واستقر فى إيطاليا محاولا القضاء على الحروب الأهلية التى سادت فيها . ويؤثر عنه أنه أقام ابن عمه الشاب الألمانى Brun بابا فى روما باسم جورج الخامس ، وبعد وفاة هذا الأخير أقام استاذه العـالم الفرنسى Gebert فى هذا المنصب البابوى باسم سلفستر الثانى وبهذا لم يجد متاعب فى الحكم من ناحية البابوية . وكان أوتو الثالث رجلا محباً للسلام مشجعاً للعلم يجيد عدة لغات كالألمانية واللاتينية واليونانية . حاول أن يستعيد عظمة الامبراطورية الرومانية المقدسة كما كانت على عهد شرلمان ولكنه فشل ومات كمدا فى عز شبابه سنة ١٠٠٢ م . أى فى نفس السنة التى مات فيها المنصور بن أبى عامر .
راجع : (*Histoire du Monde,* tome VII, *La Chrétienté Médiévale par Augustin Feliche,* pp. 257-262 Paris, 1929).

وقشتالة[١] بهدايا وألطاف ، وغرائب اتحاف ، وكلهم يخطب أمانه ويطاب أن يحاشى[٢] من معارته[٣] مكانه ، وأقام على هذه الحال مع هشام ثمانياً وعشرين سنة ، فلماحضرته الوفاة بكى فقال له حاجبه كوثر الفتى[٤] «مم تبكى يا مولاى ؟ لا بكت عيناك» . فقال «مما جنيت على المسلمين ، فلو قتلونى وحرقونى ما انتصفوا منى»[٥] . فقال له وكيف ذلك ؟ وأنت أعززت الإسلام وفتحت البلاد وأذللت الكفر وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قرطبة حين بنيت بها جامعها[٦] . فقال له : لَمَّا فتحتُ بلاد الروم ومعاقلهم عمرتها بالأقوات من كل مكان وسجنتها بها حتى عادت فى غاية الإمكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين وحصنتها غاية التحصين فاتصلت العمارة[٧] . وهأنا هالك

(١) يلاحظ أن قشتالة فى ذلك الوقت كانت امارة صغيرة ، وكان حاكمها يلقب بالكوند Conde أى القمط وهو دون الملك فى الرتبة . وقد حكم قشتالة فى أيام المنصور بن أبى عامر اثنان من هؤلاء الأقماط وهما : García Fernández (٩٧٠ — ٩٩٥ م) ثم ابنه Sancho García (٩٩٥ — ١٠١٧ م) وكلاهما لقى الكثير من الهزائم والمحن على أيدى المنصور ، فمن المعروف أن الأول وهو الأب قد انتهت حياته بأن هزم وجرح وأسر فى معركة مع المنصور ثم حمل إلى قرطبة حيث مات بها ودفن هناك فى كنيسة المستعربين تعرف باسم القديسين الثلاثة Los tres Santos ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى دير Cardeña بقشتالة أما الثانى وهو الابن فقد منى هو الآخر بهزائم عديدة أمام المنصور واضطر أخيراً أن يعقد اتفاقاً معه بل ويزوجه أخته كما تشير بذلك بعض الروايات المسيحية .

راجع : (*Diccionario de Historia de España*, tomo I, p. 1208, t. II, p. 1122).

(٢) حاشى : كلمة استعملت للاستثناء ، فيقال مثلا حاشى زيداً من القوم أى استثناه .

(٣) فى بعض النسخ معرته ، والمعارة معناها الشراسة والتقطيب غضباً .

(٤) كوثر الفتى يذكره ابن الخطيب ضمن كبار الفتيان الصقالبة العامريين الذين كانوا فى خدمة المنصور بن أبى عامر وولده عبد الملك المظفر . والصقالبة عناصر مملوكية أوربية الأصل ولكنهم نشأوا نشأة عسكرية اسلامية عربية فى قصور الخلافة بقرطبة شأنهم فى ذلك شأن المماليك الاتراك فى الشرق العربى . راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام — القسم الثانى نشر بروفنسال ص ١٠٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦ م) راجع كذلك بحثنا عن الصقالبة فى اسبانيا (مدريد ١٩٥٣) .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى ج .

(٦) فى ج : وجعلت الروم ينقلون التراب من أقصى بلادهم ومعاقلهم .

(٧) هذه العبارة مضطربة فى م .

وليس فى بنى من يخلفنى ، وسيشتغلون باللهو والطرب والشرب[(١)-(٢)] ، فيجىء العدو فيجد بلاداً عامرة وأقواتاً حاضرة فيتقوى بها على محاصرتها ، ويستعين بوجدانها على منازلتها[(٢)] فلا يزال يتغلبها شيئاً فشيئاً ، ويطويها طياً فطياً حتى يملك أكثر هذه الجزيرة ، ولا يترك فيها إلا معاقل يسيرة . فلو ألهمنى الله إلى تخريب ما تغلبت عليه وإخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين وبين بلاد الروم ، مسيرة عشرة أيام فيافياً وقفاراً ، لا يزالون لو راموا سلوكها حياري ، فلا يصلون إلى بلاد الاسلام ، إلا بمشقة[(٣)] وكثرة الزاد وصعوبة المرام » . فقال له الحاجب : «أنت إلى الراحة إن شاء الله أقرب ، فتأمر بهذا الذى رأيت » . فقال له هيهات ! حال الجريض[(٤)] دون القريض ، والله لو استرحت ، وأمرت بما ذكرت ، لقال الناس : مرض ابن أبى عامر فأورثه مرضه جنوناً[(٥)] وهوساً تمكن من دماغه ، فخرب بلاد المسلمين وأجلاهم وأقفرها »[(٦)] . فمات رحمه الله عما قريب[(٧)] ، وقام بالأمر من بعده ابنه عبد الملك ويسمى

---

(١) هذه الرواية فريدة فى نوعها لأنها تظهر المنصور بمظهر يختلف كل الاختلاف عما وصفته به المصادر الأخرى من أنه قد خرب بلاد النصارى ودمرها تدميراً تاماً . إذ أنه يبدو من النص هنا أنه عمل على تعمير وتحصين بعض المناطق التى غزاها ولا سيما القريبة منهـا للحدود الإسلامية . وعلى خلاف ما ورد فى المتن فإن ابنه عبد الملك المظفر قد سار بعد ذلك على نفس هذه السياسة التى اتبعها والده فاهتم بعمارة البلاد التي غزاها من أراضى العدو وفى ذلك يقول ابن عذارى : وعهد الحاجب (أى عبد الملك المظفر) وقت الفتح إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلا ولا يهدموا بناء لما ذهب إليه من اسكان المسلمين فيه ، فشرع للوقت فى اصلاحه ونادى فى المسلمين : من أراد الإثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن فى هذا الحصن فعل وله مع ذلك المنزل والمحرث ! فرغب فى ذلك خلق عظيم واستقروا به فى حينهم . راجع (البيان المغرب ج ٣ ص ٧) .

(٢) هذه الصفات تنطبق على ابنه عبد الرحمن المعروف بشنجول ، ولا تنطبق على ولده عبد الملك المظفر الذى خلفه فى منصب الحجابة والذى كانت أعماله وسيرته موضع ثناء المؤرخين .

(٣) فى ج ، فيصعب على النصارى الوصول إلى بلاد المسلمين إلا بعد الجهد والمشقة .

(٤) الجريض : الغصة ، ويضرب هذا المثل للشيء الذى فات أوانه .

(٥) فى ب ، المرضى وحمقا .

(٦) هذه العبارة ساقطه فى ج .

(٧) كانت وفاة المنصور بن أبى عامر فى ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (١١ أغسطس ١٠٠٢ م) وهو ابن خمس وستين سنة ، ويروى ابن عذارى أن الناس حينما علموا بوفاته صاحوا قائلين : =

بالمظفر ، فاقره هشام على ما كان عليه أبوه معه ، فلم يسد مسده ولم يحل موضعه[١] وكان يزاحم بغير عود ، وكان اسم أبيه حماه ، فلم يستبح إلا اليسير من حماه ، وغزا غزوات كان على الروم منه فيها ظهور[٢] ثم أصابته[٣] ذبحة ليلا فمات من حينه[٤] ، ونظر فى غسله وتكفينه . وكانت مدة ولايته سبعة أعوام .

ثم قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن وذلك سنة أربعمائة ، وتسمى بالمهدى ، وسمّته العامة شنجول[٥] أى أحمق ، فعامل خالقه بالكذب والفجور ، وعاشر الأجناد والرعايا أسوأ معاشرة ، وعكف على المعاصى ، وشرب الخمور

= مات الجلاب ! مات الجلاب ! والجلاب كلمة معناها قبيح فى الأصل إذ كانت تطلق على بائع الدواب أو على النخاس بائع الرقيق ولكنها أطلقت هنا بمعنى مجازى مستحب يراد به مدح المنصور كقائد عظيم غمرهم بالسبايا والنعم عقب إيابه من غزواته التى بلغت سبعة وخمسين غزوة .

ودفن المنصور فى مدينة سالم Medinaceli ويروى ابن عذارى أنه قد نقش فى رخامة على قبره الأبيات التالية :

آثاره تنبيك عن أخباره	حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله	حقاً ولا قاد الجيوش سواه

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ج ٣ ص ١٣) .

(١) ولم يحل موضعه : ساقطة فى ج .

(٢) فى ج : ظهر فيها على الروم ظهوراً جيداً .

(٣) فى ج : أخذته .

(٤) توفى عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩ هـ بعد حكم دام ست سنين وأربعة أشهر ، وتشير بعض المراجع أنه مات مسموماً وأن أمه وهى أم ولد تسمى الذلفاء كانت تعتقد فعلا فى أن ولدها المظفر مات مسموماً بتدبير من أخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول . راجع (ابن حزم : نقط العروس طبعة سيبولد ص ٢٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام — القسم الثانى نشر بروفنسال ص ١٠٩) .

(٥) شنجول أى Sanchuelo سانشويلو وهو تصغير للفظ سانشو وهو اسم جده للأمه Sancho Garces II Abarca (٩٧٠ — ٩٩٥) ملك نافارا . وكان المنصور قد تزوج ابنته التى اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبده ، وانجب منها المنصور عبد الرحمن هذا الذى أطلقت عليه أمه اسم Sanchuelo أى سانشو الصغير ذكرى لأبيها ، وليس معناه الأحمق كما ورد فى المتن ، ولكن من المعروف أن عبد الرحمن هذا كان فعلا شاباً أحمقاً طائشاً ولعل هذا هو ما يعنيه المؤلف .

راجع : (Lévi-Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane*, II, pp. 180, 241-242, 293).

راجع كذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٦) .

مجاهرة ، ونصر الباطل ، وغير الحق ، وأذلّ أهل الشرف ، ورفع كل وغد أحمق(١) ، حتى أدَّاه غالب حُمقه وهَوَسه أن ضَمَّ الناس إلى مبايعته بولاية العهد من بعد هشام ، وتسمى بولى عهد الإسلام(٢) . فضج لذلك بنو أمية ، واستعظموا طغيانه وغيه فثار عليه وعلى هشام منهم ثائر(٣) ، وتبعه الأجناد وكافة الناس فقبض على هشام وغيبه ، وقطع خبره وسببه ، وقتل شنجولا وصلبه .

فلمـــا اتصل الخبر بأمراء البلاد ، ثار كل واحد منهم فى بلده(٤) بمن عنده(٥) من الأجناد ، فثار ابن(٦) زيرى بن منـــاد بمن تبعه فى ناحية غرناطة ، وثار محمد ابن عَبَّاد القاضى باشبيلية ، وثار اسماعيل بن ذى النون بطليطلة وكان أميراً عليها لابن أبى عامر . وثار يوسف بن هود بسرقسطة وكان أميراً عليها لبنى أمية وأقره ابن أبى عامر . وثار كل قاض فى موضعه ، وكل عامل وكل من فيه مُنَّة(٧) كابن الأفطس فى بطليوس ، وابن صمادح فى المرية ، وابن مجاهد الصقلبى فى دانية ، وابن طـــاهر فى مرسية وغيرهم من جنسهم كثير لكن هؤلاء هم المشاهير . ثم قام قائم من بنى أمية ويسمى

---

(١) ورفع كل وغد أحمق : ساقطة فى ج .

(٢) من المعروف أن شنجول هذا قد أعلن نفسه ولياً لعهد الخليفة هشام ولقب نفسه بألقاب الخلافة مثل ناصر الدولة والناصر تشبهاً بعبد الرحمن الناصر وتلقب كذلك بالمأمون .

راجع : (Lévi-Provençal; *Op. cit.*, t. II, p. 294)

(٣) يقصد محمد بن هشام بن عبد الجبـــار بن عبد الرحمن الناصر الذى تولى الخلافة بعد مقتل شنجول سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) وتسمى بالمهدى ولكنه لم يلبث أن قتل هو الآخر فى العام التالى سنة ٤٠٠ هـ . انظر (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٥٠ — ٦٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١١٣ — ١٢٩) .

(٤) فى ج : فى موضعه .

(٥) فى ج : بمن معه .

(٦) فى ج : زيرى بن زيرى ، ولعل صحتها زاوى بن زيرى .

(٧) المنة بالضم ، القوة ، يقال ذهب السفر بمنته والجمع منن بضم الميم أيضاً . والمنه بكسر الميم ، اسم من من عليه أى قرعه بصنيعته واحسانه ، فيقال المنه تهدم الصنيعة ، والجمع منن بكسر الميم . والمعنى الأول هو الذى يستقيم مع المتن .

بالمهدى[(١)] فى قرطبة على قاتل شنجول ، ومغيّب هشام ، وجرت بينهما فتن وحروب إلى أن قتل المهدى ، وقيل إن هشاماً وجد فى أثناء تلك الحروب مستخفياً فى بعض تلك القصور ، فقتل . ولذلك أقام ابن عبّاد باشبيلية رجلا كان أشبه الناس بهشام[(٢)] ، فبايعه على أنه هشام ، وبايعه الناس محبة ، وجعل ينفذ الأوامر باسمه ، ويأمر عنه بما يريده . فلما تمكن ابن عباد فى الرياسة وبتعدد غيبه (كذا) ، زعم أنه مات واستبد بالأمر . وعند ذلك انقطع اسم الخلافة من الجزيرة ، ودارت الدوائر المبيرة ، وفسد حال الرائس والمرءوس ، وارتفع كل خامل وخسيس ، وثار الثوار ، واشتعلت بكل مكان النار ، وظهر العدو غاية الظهور ، لا سيما على الأطراف والثغور[(٣)] ، فسار العدو وقصد طليطلة ، فخرج إليه أميرها اسماعيل بن ذى النون[(٤)] فهزمه العدو هزيمة بددت الأجناد ، وأفنت الأعداد ، ثم قصد سرقسطة فبرز إليه واليها

---

(١) العبارة هنا مضطربة ، ولعله يقصد بذلك سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين .

(٢) يقال إن هذا الرجل الشبيه بهشام كان يسمى خلف الحصرى لأنه كان يعمل حصرياً فى مصنع للحلفا . فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمناً إلى أن أظهر موته المعتضد بن عباد بعد ذلك ونعاه إلى رعيته سنة ٤٥٥ هـ . واستظهر بعهد عهده له هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس .

راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٣) .

(٣) لعل هذا الاعتداء كان منذ سنة ٤٣٧ هـ . إذ يروى ابن عذارى أنه فى هذه السنة كان عيث النصارى بالثغر الأعلى والأدنى باشلاء ابن هود وابن ذى النون نتيجة للتنافس القائم بين هذين الملكين واستعانة كل منهما بفريق من ملوك الاسبان .

راجع (البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٧٨ — ٢٨٢) .

(٤) هو الأمير اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذى النون ، وهو من أسرة بنى ذى النون المغربية الأصل ، وحكم طليطلة (الثغر الأدنى) من سنة ٤٢٧ — ٤٣٥ هـ . وإذا أخذنا برواية ابن عذارى التى تقول بأن اعتداء النصارى على طليطلة كان فى سنة ٤٣٧ هـ . فيكون المقصود هنا فى المتن هو ابنه أبو الحسن يحيى بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون ، وقد حكم من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٦٧ هـ .

سليمان بن هود[١] ، فهزمه وانتهب محلته وأفنى رجاله وجملته . وخرج من أقصى بـــلاد الروم جيش عظيم — ووصل إلى صاحب قشتالة — وهى دار ملكهم وبها كان البيطين ملكهم[٢] .

---

(١) هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى الملقب بالمستعين بالله ، وكان من كبار قادة الجند بالثغر الأعلى ، وعند قيام الفتنة بقرطبة استولى على مدينة لاردة سنة ٤٣١ ثم دخل سرقسطة وأصبح صاحب الثغر الأعلى كله سنة ٤٣٨ هـ . وأورثه لبنيه بعد وفاته سنة ٤٤١ هـ .

راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢٤٥ حاشية ١ نشر الدكتور حسين مؤنس ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠) .

(٢) كذا ، وفى رواية أخرى البسطين ، وهى من الكلمات الغامضة التى اختلف المؤرخون فى تفسيرها وتحديد مدلولها . وقد يفهم من المتن هنا أن المراد بالبيطين هو صاحب قشتالة وعلى هذا الأساس افترض المستشرق الأسبانى باسكوال دى جاينجوس أن لفظ بيطين تحريف لكلمة بطير أو البيطر أى بدرو Pedro بالاسبانية على أساس أن هذا الاسم أطلق على بعض ملوك قشتالة ، ولكنه يعود فيقول بأنه لم يكن يوجد فى ذلك الوقت ملك على قشتالة بهذا الاسم فالفترة التى نحن بصددها والتى تنحصر فيما بين سنتى ١٠٠٠ — ١٠٦٥ م . كان يحكم قشتالة فيها الملك سانشو العظيم ملك نافارا Sancho el Mayor (ت ١٠٣٥) ثم ولده فرناندو الأول (ت ١٠٦٥) وهكذا نجد أن افتراض جاينجوس لم يقم عليه دليل باعترافه هو نفسه .

راجع : (Pascual de Gayangos; *Op. cit.*, vol. II, appendix C, p. XXVI, note)

على أننا إذا تصفحنا المصادر العربية الأندلسية الأخرى ، نجد أن ابن عذارى يذكره على شكل البيطيين (البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٥) كما يذكره الحميرى على شكل البيطش (الروض المعطار ص ٤٠) ويسميه البكرى ، البطين (المسالك والممالك — القسم الخاص بوصف الأندلس لوحة ١٢٤ وهو مخطوط بمكتبة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد) . وكلهم يعنى به اسم قائد الحملة النورماندية التى استولت على القلعة الاسلامية بربشتر Barbastro شمالى سرقسطة سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .

وهنا قد يبدو لنا لأول وهلة أن هذا التفسير الجديد سوف يؤدى بنا إلى معرفة اسم هذا القائد بسهولة وذلك بمجرد الرجوع إلى المصادر المسيحية التى تكلمت عن هذه الحملة بكثرة ، غير أننا للأسف لا نلبث أن نقف حائرين أمام هذا الاسم بسبب اختلاف المؤرخين المسيحيين حول اسم قائد هذه الحملة أيضاً :

فهناك عدد كبير منهم يطلق على هذا القائد اسم روبرت كرسبين Robert Crespin بمعنى أنه هو المعنى هنا بلفظ البسطين أو البيطين ، غير أن المستشرق الهولندى رينهارت دوزى اعترض على شخصية هذا القائد معتمداً فى ذلك على نص عربى للمؤرخ القرطبى الكبير أبى مروان بن حيان ينص فيه على أن قائد هذه الحملة النورماندية على بربشتر كان يسمى : « بقائد خيل روما » ، واستناداً على هذا النص يرى دوزى أن روبرت كرسبين هذا لا ينطبق عليه هذا الوصف لأنه وإن كان قد سبق له أن خدم فى جيوش الامبراطورية البيزنطية إلا أنه لم يشغل مطلقاً قيادة الفرق البابوية فى روما هذا فضلا =

= عن أن المصادر المسيحية التى ذكرت اسم روبرت كرسبين كقائد لهذه الحملة غير موثوق بها فى نظر المؤرخين المحدثين الأوربيين . ولقد رجح دوزى أن يكون قائد هذه الحملة هو القـائد النورماندى جيوم دى مونترى Guillaume de Montreuil الذى كان قائداً لفرسان البابا Alexander II الكسندر الثانى فى روما (١٠٦١ — ١٠٧٣) والذى قاد باسم البابا حملة عسكرية لاخضاع ثورة مونت كاسين Mont Cassin فى ايطاليا .

هذا ولم يعترض دوزى على اشتراك روبرت كرسبين فى هذه الحملة كقائد من قواد جيوم دى مونترى المذكور . راجع :

(R. Dozy: *Recherches sur l'Hist. et la Litterature de l'Espagne*, t. II, pp. 350-353).

وهكذا نرى أنه إذا صحت رواية دوزى ، يكون المقصود بالبيطين هو جيوم دى مونترى وإن كان التشابه بين الاسمين من حيث النطق منعدماً بالمرة إلا إذا حاولنا التوفيق بينهما بافتراض آخر وهو اسم قرية إيطالية تابعة لمونت كاسينو التى حارب فيها هذا القائد وهى قرية البيطو Alvito فلعله نسب إليها باسم Alvitense وصرفت إلى البيطس مثلا ؟ راجع :

(*Enciclopedia Universal Ilustrada Europeo-Americana*, vol. I, p. 474).

أما المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فإنه رجح بأن يكون المقصود بالبيطين أو البيطش هو أسقف مدينة ليون الاسبانية الذى كان يسمى فى ذلك الوقت باسم البيطس Alvitus ، وكان ملك قشتالة وليون فرناندو الأول قد أرسله سنة ١٠٦٣ على رأس سفارة إلى المعتضد بن عباد ملك اشبيلية لنقل رفات القديس والعالم الاشبيلى سان إسيدورو San Isidoro (القرن السابع الميلادى) من هناك . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٥١ حاشية ٢ ، الترجمة الفرنسية ، نشر وترجمة ليفى بروفنسال) .

ولكننا إذا علمنا أن هذا الاسقف المعروف باسم Alvitus قد مات فى خلال سفارته سنة ١٠٦٣ أى قبيل حملة بربشتر سنة ١٠٦٤ م . فإنه يكون بذلك شخصاً آخر غير شخصية قائد هذه الحملة على بربشتر وعلى هذا الأساس يكون افتراض ليفى بروفنسال فى غير محله . أما الروايات المسيحية الأخرى ، فهى كلها تشير إلى أن هذه الحملة على بربشتر وإن كانت فرنسيه نورماندية فى معظمها إلا أنها كانت صليبية مسيحية عامة بشر لها البابا اسكندر الثانى فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكان الهدف منها هو الاسراع فى انقاذ دولتى أراجون ونافارا فى شمال اسبانيا من الخطر الإسلامى بمنطقة الثغر الأعلى ولا سيما بعد كارثة جرادوس Grados أو Graus التى قتل فيها ملك أراجون راميرو الأول سنة ١٠٦٣ م. على يد المقتدر بن هود ملك سرقسطة . غير أن هذه المصادر المسيحية وإن كانت قد اتفقت حول هدف هذه الحملة إلا أنها قد اختلفت فيما بينهـا حول اسم قائدها العام ، فالبعض يرى أنه النبيل الفرنسى Elbes de Roucy ، والبعض الآخر يرى أنه الكونت بلدوين دى فلاندس El Conde Balduino de Flandes الذى كان وصياً على فيليب الأول ملك فرنسا ، وأن قواد الفرق التى عملت تحت قيادته فى هذه الحملة هم :

١ — جيوم دى منترى Guillaume de Montreuil حامل شعار البابوية الذى أرسلة البابا على رأس فرقة من الفرسان الايطاليين .

٢ — سانشو راميرث Sancho Ramírez ملك أراجون الذى خلف اباه المقتول راميرو الأول .

٣ — الكونت أورخيل Conde Urgel ابن أخى ملك أراجون وقائد الجيوش القطلانية . =

وخرج أيضاً من الأرض الكبيرة[١] جيوش كثيرة ، فانتشر جميعهم على الجزيرة يقتلون ويأسرون إلى أن انتهوا إلى بلنسية[٢] ، فبرز إليهم واليها أبو مروان عبد الملك بن رزين ، فهزم وقتل[٣] ، واستبيح معسكره الذى كان تهمّم

= ٤ — البارون روبرت كرسبين Robert Crespin قائد جيوش جنوب فرنسا مثل ولايتى نورماندیا واكيتانيا .

٥ — جى جيوفروا Gui Geoffroi قائد جيوش بواتيه وبوردو وبقية تلك الجهات . راجع :

(Antonio Ballesteros: y Beretta: *Hist. de España y su influencia en la Historia Universal,* t. II, pp. 242-243, Segunda edición, 1962 & *Diccionario de la Historia de España,* II, p. 1118 & *Historia de la Crónica General,* II, p. 476).

وسواء أكان قائد هذه الحملة الصليبية على بربشتر هو بلدوين أو خلافه ، فالذى يثير التساؤل فى هذا الصدد هو أنه إذا كان اسم بلدوين قد اشتهر فى الحروب الصليبية بالمشرق العربى وحرفه المشارقة إلى بغدوين ، راجع (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢١) أفلا يجوز أن يكون نفس هذا الاسم قد عرفه الأندلسيون أيضاً فى المغرب العربى وحرفوه إلى بيطين ؟ .

(١) المراد بالأرض الكبيرة هى فرنسا وقد كان أهلها فى العصر الوسيط يسمونها بنفس هذا الاسم أيضاً : Tere Major راجع (*La Chanson de Roland,* II, vs. 158, ed. Génin) ولعل المقصود هنا بالذات الأقاليم الفرنسية الجنوبية وأهمها اقليم نورماندى Normandie الذى كان مقراً للجيوش النورماندية بعد أن سمح لهم ملك فرنسا شارل الأبله Charles le Simple بالاقامة فيه ، فعرف ذلك الاقليم منذ ذلك الوقت باسمهم . ومن المعروف أن هؤلاء النورمانديين قد شاركوا فى الحملة الصليبية على قلعة بربشتر شمالى سرقسطة وحاربوا أهلها المسلمين سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .

(٢) لعله يقصد سهلة بنى رزين أو شنتمرية بنى رزين التى تعرف أيضاً بشنتمرية الشرق تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب التى تسمى الآن الفارو Faro جنوبى البرتغال . أما شنتمرية الشرق فتقع غربى تيروال Teruel وشرق وادى الحجارة Guadalajara وكانت تسمى بالسهلة لخصبها وكثرة أنهارها ، وتسمى حالياً البراثين Albarracín ، أما مدينة بلنسية المذكورة هنا فى المتن فهى تقع بعيداً نحو الجنوب من هذا المكان . راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠٩ نشر حسين مؤنس) ، راجع كذلك

(Jacinto Bosch Vila: *Historia de Albarracín y su Sierra,* tomo II, páginas 33-80, Teruel, 1959).

(٣) المصادر الأخرى لا تتفق مع ما ورد هنا فى المتن من أن أبا مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين قتل فى هذه المعركة ، بل على العكس من ذلك تشير إلى أنه حكم مدة طويلة (٤٣٦ – ٤٩٦ هـ/ ١٠٤٥ – ١١٠٣ م) فهو أطول ملوك الطوائف عهداً . ويرجع طول حكمه إلى حصانة ولايته (سهلة بنى رزين) التى كانت تقع وسط تلال ومرتفعات كما كانت عامرة بالحصون التى بناها الخلفاء الأمويون من قبل لتحصينها ، وهذا أدى إلى ابتعاده عن دوامة الحوادث التى احاطت بإمارته أيام ملوك الطوائف والمرابطين . هذا ومن المعروف أن بنى رزين أو بنى الأصلع من أصل بربرى ، دخلوا =

فى جمعه واحتفل . وقصدوا وادى الحجارة[١] ، فلقيهم قائدها ابن الكنانى[٢] فهزموه وأثقلوه جراحاً . ووثب البيطين[٣] فألقى على الثوار الجزية فأدُّوها على رغم أنوفهم ، وذلك وأيم الله أعظم من لقاء جيوشهم ، وكان ذلك فى سنة خمس وأربعمائة[٤] .

ورجع البيطين إلى بلاده ، وخلف قائده ردمير فى تلك[٥] النواحى ، فاستوطن مدينة بربشتر[٦] التى أخذت من يد ابن هود[٧] .

= الأندلس منذ القرن الثامن الهجرى مع عبد الرحمن الداخل واستقروا فى منطقة الثغور الأندلسية وبمرور الوقت ضعفت عصبيتهم البربرية واعتبروا أنفسهم أندلسيين من أهل البلاد فلم ينضموا إلى حزب البربر الذين كان المنصور بن أبى عامر قد جلبهم من المغرب فى عهد الخليفة الحكم المستنصر .

راجع على سبيل المثال (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ١١٤ حاشية ٢) .

(١) وادى الحجارة Guadalajara فى شمال شرق مدريد ، وكانت تعرف أيضاً بمدينة الفرج ، قال ابن حزم فى جمهرته ص ٤٦٦ : « وبنو سالم الذين تنسب إليهم مدينة سالم Medinaceli ، وتنسب مدينة الفرج إلى ابنه الفرج بن سالم » . ومن المعروف أن بنى سالم من بربر مصموده ، جاءوا إلى الأندلس فى موجة الفتح الأولى .

(٢) فى نسخة م : ابن الكتانى .

(٣) فى نسخة م : ورتب البسطين .

(٤) يخطىء الكاتب هنا فى تحديد هذه السنة (٤٠٥ هـ) إذ أنها لا تتفق مع هذه الأحداث الجارية ، وقد اخطأ جاينجوس كذلك بتحديدها ، سنة ٤٢٥ هـ (*Op. cit.*, vol. II, app. C, p. XXVI) ولعل الصواب هو سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

(٥) يرى باسكوال جاينجوس أن المقصود بردمير هنا هو راميرو الأول ملك أراجون ، (Muham. *Dynasties*, t. II, appendix C, p. XXVI) وهذا غير صحيح لأن هذه الحملة الصليبية لم تأت إلى الأندلس إلا على أثر مقتل هذا الملك على يد ابن هود سنة ١٠٦٣ م. كما سبق أن بينا ، فلعل المقصود هنا هو ابنه وخليفته من بعده الملك سانشو راميرث Sancho V Ramírez (١٠٦٣ — ١٠٩٤) .

(٦) بربشتر Barbastro مدينة حصينة على بعد ٦٠ ك. م. شمالى سرقسطة ، وتقع على أحد فروع نهر الإبرو Ebro بين مدينتى لاردة وسرقسطة عمودى الثغر الأعلى ، وهى الآن مدينة ومركز إدارى فى مديرية وشقة Huesca . وقد تعرضت بربشتر لمحنة دامية عندما استولى عليها الصليبيون سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وقتلوا أهلها وسبوا نساءها ونهبوها نهباً ذريعاً . راجع التفاصيل فى (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٥ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٧) .

(٧) المقصود هنا هو أبو جعفر أحمد بن هود الملقب بالمقتدر وقد خلف أباه سليمان المستعين بالله على حكم سرقسطة (٤٤١ — ٤٧٥ هـ) بينما حكم أخوه يوسف بن سليمان الملقب بالمظفر مدينة لاردة القاعدة الثانية للثغر الأعلى . وينسب إلى أبى جعفر المقتدر بن هود بناء قصر الجعفرية Aljaferia الذى سمى باسمه والذى ما زالت آثاره باقية إلى اليوم بمدينة سرقسطة .

وعند انصراف البيطين إلى بلاده وجد بعض ملوك النصارى وهو فردلند[١] قد خالفه إلى قشتالة طمعاً فى تملكها ، فتحاربا عليها مدة ، واشتغل الروم فى الحرب شهوراً عدة ، فانتهز ابن هود[٢] فى ردمير الفرصة ، إذ كان فى صدره غُصَّة ، فكتب إلى ابن عباد[٣] أن يمـدّه ، فبعث إليه قائداً يسمى معاذ[٤] ابن أبى قرة بعسكر انتخبه وأعده[٥] ، فسار إليه وهزمه عن بلاده وطرده ، واسترد بربشتر[٦] وغيرها ، وكفى الله المسلمين ضر تلك الطـاغية ، فاستحيي

(١) لعله يقصد فرناندو الأول بن سانشو العظيم (١٠٣٥ — ١٠٦٥) الذى قامت فعلا حروب بينه وبين صهره ملك ليون Vermudo III حول امتلاك امارة قشتالة . وقد انتهت تلك الحروب بمقتل برمودو الثالث ملك ليون سنة ١٠٣٧ وامتلاك فرناندو الأول لقشتالة وليون معا ملقباً نفسه بالامبراطور وهو نفس اللقب الذى كان يتلقب به صهره برمودو الثالث . ولم يكتف فرناندو بهذا النصر بل عمد إلى محاربة أخيه غرسية García ملك نافارا وانتهى الأمر بمقتل غرسية واستيلاء فرناندو على اجزاء كبيرة من مملكة أخيه . راجع : (Aguado Bleye: *Hist. de España,* I, p. 594). راجع : (Menéndez Pidal: *La España del Cid,* vol. I, p. 110 & *Diccionario de Historia de España,* t. I, pp. 1115-1118).

(٢) أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر صاحب سرقسطة (٤٤١ — ٤٧٥ هـ) .

(٣) المعتضد بن عباد ملك اشبيلية .

(٤) بنو قرة من زعماء بنى يفرن الزناتيين الذين استقروا خلال الفتنة أواخر أيام الدولة الأموية فى منطقة تاكرنا ، وكانت قاعدتهم مدينة رنده ، وكان زعيمهم وأميرهم فى ذلك الوقت يسمى أبو نوار ابن أبى قرة . ويروى ابن عذارى (البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٧٠) أن هذا الأمير كان معاصراً وحليفاً للمعتضد بن عباد صاحب اشبيلية . فلعل القائد المذكور هنا فى المتن هو أحد قرابته أو أبنائه .

(٥) يروى دوزى نقلا عن ابن حيان أن عدد هذه الكتيبة العسكرية الاشبيلية كان يقدر بنحو خمسمائة فارس ، وإن كان لم يذكر اسم قائدها الوارد هنا فى المتن . راجع : (R. Dozy: *Recherches,* II, p. 348).

(٦) بعد استيلاء الصليبين على بربشتر (١٠٦٤) تركوها فى طاعة ملك أراجون سانشو راميرث الذى بدوره ترك فيها حامية بقيادة ابن أخيه الكونت أورخل El Conde Urgel Armengol على أن الجرائم الوحشية التى أرتكبها الصليبيون فى هذه المدينة لم تلبث أن اثارت غضب الأندلسين عامة وسكان سرقسطة خاصة . الذين قاموا بقيادة ملكهم أحمد بن سليمان بن هود وبتأييد عسكرى من جانب المعتضد ابن عباد ملك اشبيلية ، وهاجموا بربشتر فى السنة التالية مباشرة فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ (١٠٦٥ م) واستولوا عليها عنوة بعد قتل حاميتها وعلى رأسها الكونت أورخل السالف الذكر . ويروى الحميرى فى هذا الصدد (الروض المعطار ص ٤١) أن ابن هود قد تلقب بالمقتدر بالله بعد هذا النصر الذى أحرزه باسترداد بربشتر .

المسلمون قليلا ، ولم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلولا ، وإنما كان خذلهم التحاسد وفرط الخلاف ، والتباغض وقلة الانصاف .

وطال اشتغال الروم بعضهم ببعض ، فاتفقت كلمـة المسلمين ، فشن العدو الغارة على ناحية غرناطة ، فخرج فى إثره برابرها[١] فهزموه ، واحتووا على مضربه فانتهبوه ، وقصد ردمير[٢] بن شانجه مدينة وشقة[٣] ، وشن عليها وعلى نواحيها غاراته ، فخرج ابن هود من سرقسطة قاصداً لملاقاته ، فهزمه وقتله ، واستباح معسكره . وأغار الفرنج على نواحى طليطلة فاتبعهم واضح الفتى[٤] قائد ابن[٥] ذى النون ، فهزمهم . ثم كانت الحروب بينهم سجالا ، إذ كانت الروم قد اشتغلت بعضها ببعض ، إلا أنهم فى خلال ذلك تغلبوا على جملة من مدن المسلمين منها : حصن قَلَهرَّة[٦] ، وحصن وخشة ، وحصن شيرون تغلب عليه

---

(١) كان يحكم غرناطة فى ذلك الوقت دولة طائفية بربرية الأصل وهى الدولة الزيرية الصنهاجية التى كانت تتفرع من الدولة الزيرية الصنهاجية التى قامت فى المغرب الأوسط بعد رحيل الفاطميين إلى مصر . والنص هنا يشير إلى جيوش باديس بن حبوس بن زاوى بن زيرى الصنهاجى حاكم غرناطة فى ذلك الوقت (٤٢٨ — ٤٦٥ هـ / ١٠٣٨ — ١٠٧٣ م) .

(٢) يلاحظ أن المؤلف هنا لا يلتزم تسلسلا تاريخياً أو ترتيباً زمنياً معيناً إذ نراه يعود إلى الوراء قليلا لاستدراك بعض الأحداث التى فاتته دون أن يذكرها وهذا يحدث كثيراً لمؤرخى العصر الوسيط . فهو هنا يشير إلى الحروب التى قامت بين ملك أراجون راميرو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٣) وبين ملك سرقسطة المقتدر بن هود . تلك الحروب التى انتهت بانتصار بن هود ومقتل راميرو الأول سنة ١٠٦٣ م. وقد سبق ان اشرنا إلى أن هذا الحادث كان من الدوافع القوية التى من أجلها قامت تلك الحملة الصليبية التى استولت على بربشتر سنة ١٠٦٤ م .

(٣) وشقة Huesca وفى القديم Osca وكانت من مدن الثغر الأعلى ، وتقع على مسافة ٧٣ ك.م. شمالى شرق سرقسطة .

(٤) لعله هو نفسه القائد واضح الصقلبى الذى كان من رجال الخليفة هشام الثانى من قبل .

(٥) هو يحيى بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون (٤٣٥ — ٤٦٧ هـ) .

(٦) لعله يقصد مدينة Calahorra قلهرة التى هى الآن مركز إدارى فى ولاية لكروى Logroño وتقع فى منتصف الطريق بين هذه المدينة الأخيرة وبين مدينة تطيلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٢٤٨ حاشية ٦) . هذا ويلاحظ أن جاينجوس قد قرأها قلمرية Coimbra وهى مدينة بالبرتغال حالياً . راجع (جاينجوس : نفس المرجع ص ٢٨ حاشية ١١) .

شانجه بن أبَرْكَه[(١)] ثم توفى عن قريب. وقام بالأمر من بعده بنوه: فردلند[(٢)]، وغرسية[(٣)]، وردمير[(٤)] لعنهم الله، فقدموا كبيرهم فردلند، فاحتوى على حصون كثيرة منها شنتمرية بلد ابن رزين[(٥)] وما سواها، وأخذ من بلاد ابن الأفطس[(٦)]

---

(١) يقصد سانشو الثالث الملقب بالعظيم Sancho III el Mayor (١٠٠٠ — ١٠٣٥ م) ملك نافارا وقشتالة وليون وأراجون. أما لفظ أبرَكه الوارد فى المتن هنـا فهو اسم جده سانشو أبركه Sancho Garés Abarca.

(٢) هو فرناندو الأول Fernando I الابن الأكبر لسانشو العظيم (١٠٣٥ — ١٠٦٥ م) وحكم قشتالة فى بادئ الأمر ثم حارب صهره (أخو زوجته سانشا Sancha) برمودو الثـالث Vermudo III ملك ليون فانتصر عليه وقتله وضم بلاده إلى مملكته ثم حارب أخاه غرسية ملك نافارا وانتصر عليه وقتله وضم بلاده إلى مملكته ملقباً نفسه بالامبراطور.

(٣) غرسية García ابن الثانى لسانشو العظيم، وقد حكم نافارا منذ وفاة والده ١٠٣٥ إلى أن قتله أخوه فرناندو الأول واستولى على بلاده سنة ١٠٥٤ م.

(٤) راميرو الأول Ramiro I وهو ابن غير شرعى لسانشو العظيم، وقد حكم بعد وفاة والده مملكة أراجون إلى أن قتله المقتدر بن هود فى معركة عامة عند بلدة جرادوس Gradus سنة ١٠٦٣ م. وقد اثار مقتله الشعور المسيحى ضد مسلمى الثغر الأعلى وكان من نتائج ذلك تلك الحملة الصليبية التى استولت على بربشتر سنة ١٠٦٤ م.

(٥) شنتمرية الشرق أو سهلة بنى رزين السالفة الذكر وتعرف الآن باسم البراثين Albarracín حكم هذه المنطقة أول الأمر أيام ملوك الطوائف عز الدولة أبو حامد هذيل بن خلف بن رزين (٤٠١ — ٤٥٠) ثم خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين الذى يظل يحكم هذه الدولة إلى أن مات سنة ٤٩٦ هـ. وكان قبيل وفاته قد خضع للمرابطين ثم حاول ولده يحيى أن يستمر فى الحكم بعده ولكن المرابطين طردوه، ولا يوجد فى المراجع العربية أو الأوربية ما يفيد من أن فرناندو الأول قد استولى على شنتمرية ابن رزين كما هو وراد فى المتن، وكل ما هو معروف هو أنه أغار عليها وفرض الجزية على أهلها كما فعل مع غيرها من دول الطوائف. راجع:

(A. Vives: *Los Reyes de Taifas,* p. 63 & R. Dozy: *Recherches.* I, pp. 522-531).

(٦) المقصود هنا بابن الأفطس هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن الأفطس المعروف بالمظفر المتوفى سنة ٤٦٠ (١٠٦٧ م) وكان معاصراً للمعتضد بن عباد ملك اشبيلية ومعاديا له.

وبنو الأفطس من أصل بربرى وينسبون لقبيلة مكناسة وإن كانوا يدعون أنهم ينتمون لقبيلة تجيب العربية. وكانوا يحكمون غرب الأندلس أو الجزء الأكبر لما كان يسمى قديمـاً باسم لجدانيا وحديثاً بالبرتغـال. وتشير المصادر إلى أن فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة اغار على تلك المنطقة الغربية سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) وانتزع من الملك المظفر بازو Viseo ولميق Lamego على نهر =

فى غرب الأندلس من عمل بطليوس[١] حصوناً كثيرة أيضاً ، ثم توفى أخزاه الله وترك بنين[٢] ثلاثة : شانجه وغرسية والفنش ، فتنازعوا الملك فقتل شانجه وثقف غرسية ، وخلص الملك للفنش بن فردلند[٣] ، واستبد به ، واستفحل

= الدويرة Duero وبعد سبع سنوات عاود الهجوم على تلك المنطقة أيضاً واستولى على مدينة من أهم مدنها وهى قلمرية Coimbra ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب :

وفى مدته (أى المظفر بن الأفطس) أخذ العدو مدينة قلمرية من الفتوح العامرية بعد محاصرة طويلة ، وكان قائدها عليها مملوكا له (أى للمظفر) استأمن العدو فى السير وخرج إليه بأهله وولده ، وأصبح المسلمون بها وقد أخذوا أهبة القتال ، فقال لهم العدو : وكيف القتال وقائدكم عندنا منذ البارحة ، فصبروا إلى أن نفدت أقواتهم ودخلت عليهم عنوة ، فقتل الرجال وسبى الذرية والحريم فى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م . فكان الفجع بها أكبر ، وكانت مدة الاسلام بها بعض وسبعين سنة . وأقبل المملوك قائدها إلى ابن الأفطس ، وكان له محل من قبيله ، فأمر به فضربت عنقه .

راجع ابن الخطيب : (أعمال الأعلام ص ١٨٤) ويلاحظ من هذا النص أن المنصور ابن أبى عامر كان قد احتل هذه المدينة قلمرية سنة ٣٧٧ هـ بمعنى أن سقوطها فى يد المسيحيين كان بعد ٧٩ سنة هجرية أو ٧٦ ميلادية .

انظر فى ذلك (Antonio Prieto y Vives: *Los Reyes de Taifas*, pp. 66-67).

(١) بطليوس Badajoz مدينة وولاية فى جنوب غرب اسبانيا عند الحدود البرتغالية وتروى المصادر العربية أن عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى هو الذى بناها وعمرها وحصنها بإذن من أمير الأندلس وقتذاك محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م . ولقد اتخذها بنو الأفطس بعد ذلك عاصمة لمملكتهم . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٤٦) . انظر كذلك : (*Ency. of Islam*, art. Badajoz by Seybold).

(٢) قسم فرناندو الأول مملكته قبيل وفاته سنة ١٠٦٥ بين أولاده الثلاثة :

فخص ولده الكبير سانشو الثانى (شانجه) مملكة قشتالة ، وخص ولده الثانى الفونسو السادس (الفنش) مملكة ليون ، وخص أصغرهم غرسية جليقية . أما ابنتاه دونيا أوراكا Urraca ودونيا إلبيرة فقد منحهما حق الاشراف على الأديرة فى سائر مملكته كما منح الأولى حصن سمورة Zamora والثانية حصن تورو Toro .

(٣) الواقع إن تفتيت المملكة الاسبانية بعد اتحادها على هذا النحو المبين فى الحاشية السابقة قد أدى إلى قيام حرب أهلية بين هؤلاء الاخوة . ولقد استطاع الأخ الأكبر سانشو (شانجه) فى بادئ الأمر أن ينتصر على أخويه ويستولى على بلادهما ليون وجليقية سنة ١٠٧١ م . بينما فر الفونسو السادس (الفنش) إلى طليطلة حيث أكرمه ملكها المأمون بن ذى النون ، كذلك فر غرسية إلى اشبيلية . ولم يكتف سانشو بهذا النصر بل طمع فى ممتلكات أختيه أوراكا وإلبيرة . واستولى فعلا على حصن تورو من يد أخته إلبيرة ثم حاصر حصن سمورة الذى تملكه أوراكا . وفى ذات يوم دخل معسكره فارس وطلب مقابلته لمسألة هامة . وما كاد الفارس يرى سانشو حتى طعنه بحربته طعنة قاتلة ثم فر هارباً =

أمره ، واستحكم فى المسلمين طمعه . وصحَّ فى قياسه الفاسد أن يستخلص جزيرة الأندلس لنفسه ، فلم ينم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات . وصادف أيام ملكه نفاقاً كثيراً بين المسلمين واختلافاً عظيما ، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم ، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجال ، واللعين فى أثناء ذلك لِمَا بينهم من الفتنة مسرور ، وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصى وسماع العيدان ، وكل واحد منهم يتنافس فى شراء الذخائر الملوكية ، متى طرأت من المشرق ، كى يوجهها إلى الفنش هدية ، ليتقرب بها إليه ، ويحظى دون مطالبه لديه ، إلى أن ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرءوس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ، وأذعن من بقى منهم خارج الذمة إلى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد ، ولا يتجاوز له أحد .

= إلى المدينة سنة ١٠٧٢ م. وغير بعيد بالمرة أن تكون هذه الجريمة من تدبير أخته أوراكا Urraca (ومعناها البومة بالاسبانية) التى كانت تكرهه وتميل إلى أخيها الفونسو . واستدعى بعد ذلك الفونسو السادس من طليطلة ونصب ملكاً على قشتالة وليون وجليقية فى نفس السنة ١٠٧٢ م. وهكذا عادت المملكة الاسبانية إلى سابق وحدتها على عهد والده فرناندو الأول . أما الأخ الثالث غرسية فإنه عندما علم بمقتل أخيه سانشو عاد من اشبيلية مؤملا رجوعه إلى ملكه بجليقية ولكن أخاه الفونسو قبض عليه وزجه فى إحدى قلاعه حيث بقى فيها سجيناً إلى أن مات سنة ١٠٩٠ م.

ويقسم العالم الاسباني منندث بيدال Menéndez Pidal عهد هذا الملك الفونسو السادس Alfonso VI إلى ثلاثة فترات :

الفترة الأولى ١٠٦٥ — ١٠٧٢ م. وهى فترة صراع مضطربة .

الفترة الثانية ١٠٧٢ — ١٠٨٦ م. وهى فترة عظمته التى بلغت ذروتها باستيلائه على طليطلة من أيدى المسلمين .

الفترة الثالثة ١٠٨٦ — ١١٠٩ م. فترة هزائم متتالية على يد المرابطين ومقتل ابنه الوحيد وولى عهده سانشو ثم وفاته من بعده . راجع : *(Dicc. de Hist. de España)*.

راجع كذلك (عبد الله عنان : ملوك الطوائف ص ٣٧٥ — ٣٨٠) .

ووكلوا أمور المسلمين إلى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الأسود ، وجعلوهم حجاباً ووزراء وكتاباً .

وتَطَوَّفَ الروم فى كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون .

وفى هذه المدة مات اسماعيل(١) بن ذى النون صاحب طليطلة ، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة ، وكان صاحب قرطبة مدافعاً عنها لابن عباد(٢) ومانعاً لحوزته بمن عنده من الأجناد . وكان أشبه أولئك الثوار وأقلهم لهواً وإسرافاً ، وأجلّهم همة . وكانت أيامهم تسمى أيام الفرق(٣) . وحمل عند موته على أعناق الرجال إلى طليطلة وبها دفن رحمه الله ولم يخلف ابناً(٤) .

وفى هذه السنة توفى الفقيه المحدث الإمام أبو عمر بن عبد البر(٥) بشاطبة

---

(١) المقصود هنا يحيي بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون المتوفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م.

(٢) من المعروف أن المأمون بن ذى النون قد استولى على قرطبة من يد المعتمد بن عباد فى السنة الأخيرة من حياته (٤٦٧ هـ) ١٠٧٤ م. وتشير المصادر الاسبانية إلى أن الملك الفونسو السادس قد عاونه فى ذلك ببعض قواته من باب العرفان بالجميل لا يوائه له أيام محنته كما سبق أن بينا فى حاشية سابقة . وكيفما كان الأمر فإن المأمون لم يعش طويلا بعد احتلاله لقرطبة إذ مات فى نفس هذه السنة وخلفه حفيده يحيي القادر الذى كان ضعيفاً ، فانتهز المعتمد ابن عباد هذه الفرصة واسترد قرطبة ثانية .

(٣) الفرق بفتح الفاء بمعنى الخوف ، أو بكسرها بمعنى الطوائف ، وهى تسمية جميلة لهذه الفترة المضطربة التى عرفت فى كتب التاريخ بفترة ملوك الطوائف .

(٤) هذا يتفق مع ما ورد فى الكتب العربيــة من أن الذى خلف المأمون هو حفيده يحيي الملقب بالقادر ، أما الرواية الاسبانية فتقول بأن الذى خلفه هو ولده هشام القادر وهذا غير صحيح إذ يفهم من كلام ابن خلدون وابن الخطيب أن هشاما ولد المأمون توفى قبل وفاة أبيه (عبد الله عنان : ملوك الطوائف ص ١٠٥) .

(٥) هو الفقيه الأندلسى أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمرى ، نسبة إلى النمر بن قاسط بن أسد بن ربيعــة بن نزار ، وكانت دار بنى النمر بن قاسط بالأندلس هى حصن وضاح من عمل ريه (مالقة) راجع (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٨٥) . ولد أبو عمر بن عبد البر بقرطبة سنة ٣٨٦ هـ (٩٧٨ م.) ، ودرس على علماء عصره ثم تنقــل فى غرب الأندلس حيث عين قاضياً للشبونه وشنترين فى أيام الملك المظفر بن الأفطس . ثم تحول بعد ذلك إلى شرق الأندلس حيث سكن دانية وبلنسية ثم شاطبة Jatiba التى توفى بها فى آخر ربيع الأول سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م.) وهذا التاريخ هو الثابت فى معظم كتب التراجم العربية وهو لا يستقيم هنا مع المتن =

بلده رحمه الله ؛ فقام بالأمر بعد اسماعيل بن ذى النون حفيده يحيى وتلقب بالقادر ، وكان ضعيف المنة قليل المعرفة ، رُبِّىَ فى أحجار النساء والدايات ، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك أمره العبيد ، وحكم عليه كل خصى ومولود ، كل يدبر ملكه على إرادته ، وينفرد بوزارته ، فطمع فى بلاده الرؤساء واحتقره القرناء والغرباء . فأول من استهدف لمطالبته ابن عباد ، لما كان بينه وبين جده من العداوة والبغضاء ، فحصل له قرطبة وسائر أعمالها كطلبيرة[١] وغافق[٢]

= الذى يجعل وفاته فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م. ومؤلفات ابن عبد البر كثيرة وأغلبها فى الحديث وفى ذلك يقول ابن حزم : لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله ، فكيف أحسن منه ! ؟ ومن أهم مؤلفاته ما كتبه عن موطأ مالك بن أنس مثل كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، وقد رتبه على اسماء شيوخ مالك على حروف المعجم ، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار لما تضمنه موطأ مالك من معانى الرأى والآثار ، شرح فيه الموطأ ونسق أبوابه ، كذلك كتب كتابا جمع فيه اسماء الصحابة سماه كتاب الاستيعاب ، هذا إلى جانب كتابه « بهجة المجالس وأنس المجالس » فى ثلاثة أسفار جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة . وله أيضاً كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله . راجع ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٦١٦ – ٦١٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٦٤ — ٦٥ ، المقرى : نفح الطيب ج ٥ ص ١٧٢ — ١٧٤ ، القاضى عياض : ترتيب المدارك لوحة ٥٧٢ وما بعدها . راجع كذلك (سارنيلى : مجاهد العامرى ص ٣٤٣) .

(١) طلبيرة توجد عدة أماكن فى اسبانيا بهذا الاسم ، والمقصودة هنا هى طلبيرة لارينا Talavera la Reina وهى الآن من أعمال طليطلة وعلى بعد ١٥٠ ك. م. منها .

راجع : (*Ency. of Islam*, art. Talavera by Lévi-Provençal)

(٢) حصن غافق : قرية صغيرة فى منطقة البطروج أو فحص البلوط Pedroche وهى من أعمال قرطبة وتقع فى شمالها الغربى على مسافة ١٠٤ ك. م. وتسمى الآن أبو القصر Belalcázar وكانت تسمى قديماً بالاسبانية Gahete أو Gahet وكلاهما تحريف للاسم العربى غافق . راجع :

(Félix Hernández Jiménez: *Gáfiq, Gahet, Gahete=Belalcázar*, Al-Andalus, vol. IX, 1944, pp. 71-109).

والجدير بالذكر أنه قد اشتهر من أهل هذه البلدة فى العصر الوسيط ثلاثة أطباء من أسرة عربية واحدة عرفت بأسرة الغافقى على اسم هذه البلدة ، وهؤلاء الغافقيون الثلاثة هم أحمد وابنه محمد ثم ابن عمهما محمد بن قسوم ، والأول منهم ألف كتاباً مهماً عن الأدوية المفردة ، نشره على أجزاء ضمن مطبوعات كلية الطب بجامعة القاهرة الأستاذان الدكتوران جورجى صبحى وماكس مايرهوف . أما الطبيب الثالث محمد بن قسوم الغافقى فقد ألف كتاباً من أعظم ما كتب فى طب العيون فى العصر الوسيط وهو كتاب المرشد فى الكحل أى دليل الرمد . ولم ينشر هذا الكتاب إلى الآن ولكن ماكس

وما بينهما . وجعل صاحب سرقسطة ابن هود(١) يطالبه أشد مطالبة ، ويحاربه أنكى محاربة ، واستعان عليه بالطاغية ابن ردمير(٢) ، فأخذ له شنتبرية(٣) وملينة(٤) ، فضعف الحفيد عن الدفاع عن نفسه لما عنده من قلة التدبير ، واستنصر بالفنش ، وكانت بلنسية لجده(٥) ، وكان له فيها قائد يسمى أبا بكر ابن عبد العزيز(٦) ، فداخله ابن هود حتى قام على القادر واستبد بنفسه دون

= مايرهوف ترجمه إلى الفرنسية ونشرته له شركة أدوية فى برشلونة هى شركة كوزى . وهذه الترجمة معروفة ومتداولة بين أيدى الناس . وتوفى محمد بن قسوم الغافقى سنة ١١٦٥ م. وفى سنة ١٩٦٥م. أقامت بلدية مدينة قرطبة احتفالا كبيراً بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لوفاته كما أقامو له تمثالا نصفياً فى قاعة La Capilla de San Bartolomé . وقد حضر هذا الاحتفال كممثل للجمهورية العربية المتحدة الأستاذ الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد .

(١) هو أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله المتوفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م.

(٢) يقصد Sancho Ramírez ملك أراجون ونافارا السالف الذكر .

(٣) فى نسخة أخرى شنتمرية وصحتها كما فى المتن شنتبرية Santáver وكانت تقع شمال شرق طليطلة بالقرب من منابع نهر التاجو . ويروى الحميرى أنه كان من أهم حصونها قلعة اقليش Uclés التى تقع الآن فى مقاطعة كونكا Cuenca . راجع (الروض المعطار ص ٢٨ والترجمة الفرنسية ص ٣٥ حاشية ٣ وكذلك خريطة الكتاب) . راجع كذلك (عبد الله عنان : ملوك الطوائف ص ٩٤ — ١٠٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ١٨٦

(٤) ملينة Molina : توجد عدة أماكن فى اسبانيا بهذا الاسم ، ولكن المقصود هنا حصن فى مقاطعة كونكا Cuenca شمالى شرق طليطلة يعرف بملينة أراجون Molina de Aragón وكان اسمها القديم Ercávica أركبيقة . راجع : (Madoz: *Dicc. Geográfico,* t. XI, pp. 460-466). راجع كذلك:
(Bosch Vilá: *Historia de Albarracín y su Sierra,* II, pp. 39, 42 y notas).

(٥) المقصود هنا هو المأمون بن ذى النون جد القادر هذا ، وكان قد استولى على إمارة بلنسية من يد أميرها وزوج ابنته عبد الملك المظفر بن عبد العزيز العامرى حفيد المنصور بن أبى عامر بحجة أنه يسىء معاملة ابنته ، وبذلك ضمت بلنسية إلى مملكة طليطلة فى سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م. راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦) .

(٦) هو أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى ، كان أبوه أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المشهور بابن روبش وزيراً للأمير عبد العزيز العامرى صاحب بلنسية ثم وزيراً لابنه من بعده عبد الملك المظفر بن عبد العزيز . وبعد وفاة هذا الوزير سنة ٤٥٦ هـ خلفه فى الوزارة ابنه أبو بكر بن عبد العزيز المذكور هنا فى المتن ، فلم يمكث فى منصبه طويلا حتى سقطت بلنسية فى يد المأمون ابن ذى النون الذى أقره فى منصبه ثم عينه نائباً عنه فى حكم المدينة بعد أن عزل أميرها عبد الملك المظفر ونفاه إلى احدى قلاعه فى كونكة . ويفهم من النص هنا أن هذا الوزير أبا بكر بن عبد العزيز قد =

أمر ، فخطب إليه ابن هود إذ ذاك ابنته طمعاً منه أن يتملك بها بلنسية ، فملكه إياها ، وزفها إليه . وكانت كنكة[(١)] للقادر فنازلها ابن ردمير ووالى عليها الحصار حتى كادوا أن يهلكوا عطشاً ، فافتدوا منه بمال كثير . وجهز القادر بشيرا الفتى وأمره بمناجزة ابن هود وابن ردمير ، فانصرفا ورأى أن انصرافهم دون لقائهم غنم كبير . وقامت بطليطلة فى إحدى الليالى فتنة وضجة وصيحة للعامة منكرة مات فيها الفقيه أبو بكر بن الحريرى[(٢)] وجماعة من أمثاله ، وانتهبت ديار الأعيان ، فكتب القادر إلى الفنش يُعلمه بما جرى ، ويرغب أن

= استمر يحكم بلنسية باسم بنى ذى النون إلى أن مات المأمون سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م. فانتهز هذه الفرصة وخلع طاعة خليفته القادر بن ذى النون ونادى بنفسه أميراً مستقلا ، وفى نفس هذا الوقت تحالف معه المستعين بن هود صاحب سرقسطة وزوجه ابنته على سبيل المعاضدة والتأييد ضد عدوهما صاحب طليطلة أو طمعا فى أن يمتلك بلنسية بعد ذلك وإن كانت المصادر الأخرى لا تشير إلى تملكه لهذه المدينة كما هو مبين فى المتن . ولقد ظل هذا الوزير يحكم بلنسية إلى أن توفى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م .

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٦٦) . راجع كذلك :

(Ballesteros (Antonio): *Historia de España y su influencia en la Historia Universal*, t. II, p. 324. (Barcelona, 1934-1950).

(١) كذا فى الأصل وصحتها قونكة أو كونكة Cuenca وكانت من أمنع حصون منطقة الثغر الأدنى طليطلة ، وهى اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس هذا الاسم .

راجع (ابن الابار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٢٨ حاشية ١) .

(٢) كذا فى الأصل ولعل صحتها الحديدى كما ورد اسمه فى المراجع العربية الأخرى ، وكان هذا الفقيه كبير الجماعه بطليطلة منذ أيام ملكها اسماعيل الظافر بن ذى النون الذى كان لا يقطع أمراً دون استشارته . وبعد وفاة اسماعيل الظافر سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م. سار ولده المأمون على سياسته فى تقديم وزيره ابن الحديدى والاعتماد على رأيه ومشورته . وبعد وفاة المأمون سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥ م. خلفه حفيده يحي القادر الذى تصفه المصادر بالضعف وقلة التدبير ، فالتف حوله نصحاء السوء وأقنعوه بضرورة التخلص من ابن الحديدى كى يخلو له الجو فى جميع أعماله وتصرفاته . والذى يفهم من المتن أن هذا الوزير قد قتل فى خلال ثورة عارمة قام بها العامة ضد أعيان المدينة إلى درجة أن الملك القادر استنجد فى ذلك بالملك الاسبانى الفونسو السادس . أما المصار العربية الأخرى فانها تشير بوضوح إلى القادر هو الذى دبر مؤامرة لقتل ابن الحديدى بأن استدعى إلى مجلسه عدداً من أعدائه ، فلما حضر ابن الحديدى ورآهم استشعر بالخطر وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، ففادر القادر المكان وفتك الحضور بابن الحديدى ونهبت دوره وذلك فى اوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م.

راجع التفاصيل فى (ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١١٨ — ١٢١) ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٧٧ ، عبد الله عنان : دول الطوائف ص ١٠٥ — ١٠٦) .

يوجه إليه عسكراً ، فراجعه أنْ وَجِّه إليَّ مالا إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك ، وإلا سلمّتك لأعدائك . وكان أسرّ شيء عند الفنش فتنة تقع بين الولاة من المسلمين ، فيعين هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيستجلب بذلك أموالهم ، طمعاً منه أن يعجزوا ، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها . فلما لم يقم القادر بما رسم عليه من المال ، جمع الرعية وأهل الحضر وجميع العمال ، وقال لهم : « أقسم لئن لم تُحضرونى هذا المـال الذى طلب فى الحين ، لأجعلنَّ عنده رهناً جميعَ مَن عندكم من العيال والبنين » . فلم يجبه أحد بحرف غير القائد أبى شجاع ابن لبون(١) ، فإنه قال له لقد خلعتَ نفسك بما قلت ، وربما

(١) هو شجاع أرقم بن لبون (بضم اللام ثم البـاء مع تشديدها) . يذكر ابن الأبار أنه كان والياً على وبذة Huete فى مقاطعة كونكة إحدى حصون الثغر الأدنى طليطلة . راجع (الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٦٩) . هذا وقد حدد ابن الكردبوس سنة وفاته فى الصفحات القادمة فقـال بأنه مات شهيداً سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م. أما أسرة بنى لبون فهى أسرة من المولدين كما هو واضح من اسمهم لبون وهو صيغة التكبير أو التعظيم للاسم المعروف لب وهو اسبانى معرب من لوبو Lobo أو Lupe وهو الذئب الأندلسى الذى وصفه المقرى بقوله : « ولها سبع يعرف باللب أكبر بقليـل من الذئب فى نهاية القحة قد يفترس الانسان إذا كان جائعاً » . (نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥) ومن المعروف فى هذا الصدد أن الاسبان استعملوا فى لغتهم صيغة التكبير المنتهية بحرفى واو ونون ، وقد أخذ عنهم العرب هذه الصيغة وطبقوها على اسمائهم فأطلقوا على خالد خلدون ، وزيد زيدون ، وسعد سعدون ، وعلى علون ، وأزرق زرقون وهكذا . ولقد اتصل تاريخ بنى لبون بأسرة بنى ذى النون حكام الثغر الأدنى طليطلة أيام ملوك الطوائف وفى ذلك يقول ابن حيان : بلغنى أنه لما مات الظافر اسماعيل بن ذى النون ، كان حملة دولته ورؤوس جلته ، الحاج ابن محقور ، وابن لبون ، وابن سعيد بن الفرج ؛ وكان آكد ما عهده إلى ابنه يحيى المتلقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم والانتهاء إلى رأيهم . راجع (ابن بسام : الذخيرة ق ٤ جـ ١ ص ١١٣) . ولقد أمدنا ابن الأبار بأسماء عدة اخوة من بنى لبون أيام يحيى القادر حفيد المأمون وخليفته من بعده على ولاية طليطلة ثم بلنسية وهم : أبو وهب عامر بن لبون وكان ضابطا لقصر بلنسية ، وأبو شجاع أرقم بن لبون ، الوارد هنا فى المتن ، وكان حاكما على بلدة وبذة Huete ، وأبو عبد الله بن لبون وكان واليا على لورقة Lorca وتوفى بعد وقعة الزلاقة بيسير سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م. ، ثم أبو عيسى بن لبون وكان حاكما على بلدة مربيطر Murviedro من أعمال بلنسية ثم تخلى عنها لأبى مروان عبد الملك بن رزين صاحب شنتمرية الشرق Albarracín عندما تغلب السيد الكمبيادور على بلنسية سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م. وكان أبو عيسى بن لبون هذا شاعراً وقد رثى اخوته السالفى الذكر بأبيات من شعره مما يدل على انهم ماتوا قبله . راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٦٨ — ١٦٩) . هذا ويروى ابن الخطيب رواية أخرى تختلف عن رواية ابن الأبار يذكر فيها أن أبا عيسى المذكور كان واليا على قلعــة عبد السلام من الثغر الأدنى قرب وادى الحجارة (اعمال الأعلام ص ٢٠٩) وقلعة عبد السلام تعرف اليوم باسم الكالا دى هنارس Alcalá de Henares .

أزمعتَ عليه وعولت . ففسدت نفوس الجماعة ، ورأوا أنه لا تجب عليهم له طاعة . فانفذوا فى السر إلى ابن الأفطس[(١)] ، فلما شعر بذلك القادر ، فرَّ ليلا بعياله وجملة ماله . فقصد وَبْذَة[(٢)] ، فناوأه صاحبها ابن وهب[(٣)] ، ودخل ابن الأفطس طليطلة ولم يكن للقادر ناصر ولا ملجأ غير الفنش ، فكتب إليه واستنصر به ، فجاء بنفسه فى أسرع وقت ، فتلقاه القادر واتفقا على محاصرة طليطلة حتى يخرج عنها ابن الأفطس ويصرفها إليه ، على أن يجعل جميع أموالها فى يديه . فقال له الفنش : « اعطنى حصن سرية وحصن قورية رهناً »[(٤)] ، فأعطاهما له ، فأدخل فيهما اللعين ثقاته فى الحين ، وحصنهما أشد تحصين .

ثم حاصر طليطلة أشد حصار ، فلما رأى ابن الأفطس ضيق الحال عليه وهو لا يرجو انتصاراً من أحد ، خرج فاراً ، فدخلها القادر[(٥)] واستأصل جميع أموالها ، فلم يقبلها الفنش منه ، فأحضر جميع ما كان عنده من نفيس الذخائر الموروثة عن أبيه وجده ، فلم يَفِ بما قاطَعَه عليه ، فسأله أن ينظر فيه ويجعله بين يديه ، فقال اعطنى حصن قنالش[(٦)] رهناً ، فأعطاه إياه . فلما ظفرت به

---

(١) هو عمر المتوكل بن الأفطس الذى حكم غرب الأندلس سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م . وانتهت حياته بالقتل على يد المرابطين سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٤ م . بعد أن ثبتت لهم خيانته واتصاله سراً بالعدو .

(٢) وبذة Huete مدينة على بعد خمسين كيلومتراً غربى قونكا Cuenca ، وكانت من الحصون الشمالية الشرقية لمملكة طليطلة ، وإليها كان فرار القادر بأسرته سنة ٤٧٨ هـ .

راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٩٤ وكذلك ص ٢٣٦ فى الترجمة الفرنسية) .

(٣) لعله يقصد أبا وهب عامر بن لبون شقيق أبى شجاع بن لبون الذى ذكره ابن الأبار حاكما لهذه البلدة إذ كثيراً ما كان هؤلاء الأخوة يتبادلون حكم حصونهم ويرثون بعضهم بعضاً عند الممات .

(٤) فى نسخة م : « اعطنى حصن سرية وحصن قنورية رهناً » . ولا شك أنها حصون قريبة من الحدود القشتالية ولعلها المعروفة الآن باسم Soria أو Coria أو Conoria .

(٥) كان ذلك فى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . راجع (ابن بسام : الذخيرة ق ٤ ج ١ ص١٢٤ – ١٢٧) .

(٦) قنالش Canales ، تطلق على عدة أماكن فى مختلف أنحاء اسبانيا ، ومعناها واضح وهو جمع قناة أو قنال ، ولعل المقصود هنا هو قرية قنالش التى فى شمال شرق طليطلة فى منطقة وادى الحجارة =

يده جعل فيه ثقاته وحصل فيه أقواته ، وانصرف إلى قشتالة غانمـــاً مملوء الحقائب سالماً ، فتغيرت نفوس الناس على القادر ، ففروا سراً إلى نظر[1] ابن هود ، فجاد عليهم ، وأحسن إليهم .

وزحف كل ثائر إلى بلاد القادر طمعاً فى تملكها ، والحصول على قطب فلكها . فابن عباد يشن عليه الغارات من الغرب ، وابن هود يذيقه من الشرق ، غُصَصَ الكرب . فلما تحقق القادر أنه لا طاقة له على الدفاع ، ولا سبيل له عنهم إلى امتناع ، كتب إلى الفنش ، وتخلى له عن طليطلة وأنظارها ، ليعينه على أخذ بلنسية[2] وأقطارها . فطار إليها الفنش بجناح ، ووصل الغدو

= على الحدود القشتالية ، وهى الآن مركز قضائى تابع لمدينة موالينا Molina السالفة الذكر . ومن المعروف أن الأمير محمد الأموى (القرن الثالث الهجرى) قد بنى عدة حصون ومنها قنالش فى منطقة الثغر الأدنى لحماية دولة المسلمين من غارات جيرانهم المسيحيين . راجع :

(Pascual Madoz: *Diccionario Geográfico, Estadístico, Histórico de España y sus posesiones de Ultramar*, p. 389, Madrid, 1846).

(١) فى نسخة م ، عمل .

(٢) بلنسية Valencia مدينة ومديرية كبيرة فى شرق اسبانيا Levante . وتقع على بعد أربعة كيلومترات من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ولها ميناء عليه تسمى Grao .

ومنطقة بلنسية مشهورة بخصبها وحدائقها وجنانهـــا ويرويهـــا النهر الأبيض Guadalviar أحد فروع نهر توريا Turia المسمى بالنهر الأحمر . وقد اشتهرت بلنسية بزراعة الأرز بصفة خاصة وفى ذلك يقول العذرى : « ويزرع فيهـــا الأرز ، وهو ينجب فيها ، ومنها يحمل إلى جميع بلاد الأندلس » .

وهذه الصفة ما زالت معروفة عنها إلى اليوم لدرجة أنها اشتهرت بطعام لذيذ أساسه الأرز يعرف باسم باهيه Paella . وقد برز من هذه المنطقة عدد كبير من مشهورى شعراء الأندلس وأدبائهـــا كابن خفاجة وابن الأبار والرصافى وابن عميرة وغيرهم . كذلك تعرضت بلنسية لغزو القائد القشتالى المعروف بالسيد الكمبيادور أى المحـــارب El Cid Campeador الذى كتب حوله الاسبان القصص والملاحم El poema del Cid وتغنوا بقوته وشجاعته بل قرنوا اسمه بمدينة بلنسية فقالوا بلنسية السيد Valencia del Cid على اعتبار أنها كانت مقراً لحكمه حتى وفاته (٤٧٨ — ٤٩٢ هـ / ١٠٨٥ — ١٠٩٩ م) ولقد استمرت زوجته Jimena خيمينـــا تحكم بلنسية بعد وفاة السيد مدة ثلاث سنوات ثم استردهـــا المسلمون بقيادة القائد المرابطى مزدلى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) . واستمرت بلنسية فى يد المسلمين إلى أن سقطت نهائياً فى يد ملك أراجون خايمى الأول Jaime I الملقب بالفاتح El Conquistador سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) وقد أكثر أدباؤها بكاءها والتأسف عليها نظماً ونثراً . =

بالرواح ، فحين وافاه ، أخلى له البلد ، وحصل فيها بالأهل والولد ، بعد أن شرط عليه من فيها من المسلمين أن يؤمنهم فى أنفسهم وأموالهم وبنيهم(١) ، وأن من أحب منهم الخروج لم يمنع منه ، ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص ، وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه لا فى كثيره ولا فى قليله . فعاهدهم على ذلك ، وأعطاهم صفقة يمين ، وأقسم لهم أنه لا يغدر فى ذلك ولا يمين(٢) .

وكان تملكه لها سنة ثمان وسبعين(٣) وأربعمائة ، وكان استفتاح طارق لها سنة تسعين(٤) ، فأقامت دار الإسلام ثلاثمائة سنة وثمانية وثمانين من الأعوام . فخرج المسلمون من جميع الأقطار حين تملكها العدو ولم يكن لهم قرار ، ولا هدوّ ولا طمع فى التخلص من يد اللعين ، سوى أنباء طرأت عليهم من قبل المرابطين ، وأنهم قد ملكوا مغرب العدوة وطردوا عنه الزناتيين(٥) ، فكأنهم تأنسوا بأبنائهم ، ورجوا الفرج من تلقائهم .

= راجع (العذرى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ص ١٧ نشر الدكتور عبد العزيز الاهوانى) ؛ (الحميرى : الروض المعطار ص ٤٧ — ٥٥) ؛ راجع كذلك :

(*Ency. of Islam*, art. Valence, por Lévi-Provençal & Menéndez Pidal: *España del Cid* 2 tomos).

(١) فى ج ، بعهد انشرط عليه أن يؤمن من فيها من المسلمين فى الأنفس والأموال والأهلين والبنين .

(٢) هذا الجزء الخاص بسياسة الفونسو السادس نحو أهل طليطلة ، قد نقل بنصه فى بعض الحوليات الإسبانية راجع على سبيل المثال :

(*Crónica General*, fol. CCCXX; Rodericus Toletanus: *Hist. Rerum in Hisp. gesterum*, lib. IX, cap. XXV).

(٣) كان سقوط طليطلة نهائياً فى يد الاسبان فى ٢٧ المحرم سنة ٤٧٨ هـ / ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ م) .

(٤) من المعروف أن استيلاء المسلمين على طليطلة عاصمة الدولة القوطية كان فى سنة ٩٢ هـ / ٧١٤ م .

(٥) يقصد الدولة الزناتية التى حكمت بلاد المغرب الأقصى مثل بنى مدرار وبنى خزر المغراويين وبنى يفرن وبنى يخفش أو بنى توالى الزناتيين وقد انتهى حكمهم على يد المرابطين الصنهاجيين . راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب العربى نشر أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤) .

وفى سنة دخول الفنش طليطلة ، توفى المؤتمن يوسف بن هود[(١)] ، صاحب سرقسطة وقام بالأمر من بعده ابنه أحمد وتسمى بالمستعين .

وفيها توفى الوزير أبو بكر بن عبد العزيز[(٢)] القائم بأمر بلنسية الذى كان أزمع القادر أن ينازله ويخرب منازله ، وبقى أمرها بعده سُدًى ، فرحل عند ذلك القادر من طليطلة مع جيش وجهه معه الفنش وعليه البرهانس[(٣)] لعنه الله ، وذلك فى سنة ثمانين وأربعمائة ، فأنزله القادر بالرُّصافة[(٤)] ، ونزل هو دار الإمرة ؛

---

(١) من المعروف أن أبا جعفر أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله صاحب مملكة سرقسطة قد توفى سنة ٤٧٤ هـ (١٩٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه يوسف المؤتمن ، والمنذر ، وقد خص الأول مدينة سرقسطة وأعمالها ، وخص الثانى لاردة وطرطوشة ودانيه . وبهذا التقسيم عادت الحرب الأهلية من جديد فى مملكة سرقسطة بين الأخوين المؤتمن والمنذر . واستعان كل منهما بجيرانه المسيحيين فتحالف المؤتمن مع القائد القشتالى السيد الكمبيادور كما تحالف المنذر مع ملك أراجون سانشو راميرث . على أن حكم المؤتمن لم يدم أكثر من أربع سنوات توفى بعدها سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أى فى نفس السنة التى سقطت فيها طليطلة كما هو وارد فى المتن ، وخلفه على سرقسطة وأعمالها ابنه أحمد المستعين ويعرف بالمستعين الأصغر تمييزاً له عن المستعين الأكبر جد هذه الأسرة . راجع :
(Ballesteros: *Hist. de España*, II, p. 322).

(٢) هو أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى . راجع ترجمته فى حاشية سابقة .

(٣) ورد اسم هذا القائد فى كتاب نظم الجمان : البار هانش ، وهو القائد الإسبانى المعروف Alvar Hañez ابن اخى السيد الكمبيادور . وكان من كبار قواد الملك الفونسو السادس ملك قشتالة وليون . راجع (ابن القطان : نظم الجمان ص ٦ ، ٧ نشر الدكتور محمود مكى) .

(٤) رصافة بلنسية La Ruzafa . من المعروف أن الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل هو أول من أدخل اسم الرصافة فى الأندلس عندما أطلقه على قصره الريفى فى شمال شرق قرطبة بنحو ثلاثة كيلومترات . وكان بهذا العمل يحاكى رصافة الشام التى بناها جده هشام بن عبد الملك فى شمال شرق تدمر بالشام . أما رصافة بلنسية المذكورة هنا فى المتن ، فالذى بناها هو الابن الاصغر للامير عبد الرحمن الداخل وهو الأمير عبد الله المعروف بالبلنسى . وعلى الرغم من أن هذه القصور قد اندرست الآن إلا أننا نجد إلى اليوم اسم La Ruzafa ما زال يطلق فى قرطبة وبلنسية على نفس هذه الأماكن . ويفهم من كلام صاحب الروض المعطار ص ٧٨ أن رصافة بلنسية كانت منية للراحة والاستجمام وأنها كانت تقع بينها وبين البحر أى فى جنوب شرق بلنسية . وما زالت هذه المنية أو هذا الحى يسمى إلى اليوم باسم La Ruzafa . وينسب إلى هذه الرصافة الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى البلنسى مادح الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على وقد توفى بمالقة سنة ٥٧٢هـ (راجع ترجمته فى ابن خلكان ج ٤ ص ٥٩) ولقد ورد اسم الرصافة مراراً فى مراثى الكتاب والشعراء البلنسيين أمثال ابن الأبار وأبى المطرف بن عميرة بعد سقوط مدينتهم بلنسية فى يد ملك أراجون خايمى الأول سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨م) ومثال ذلك قول ابن الأبار : « أين بلنسية ومغانيها أين حلى رصافتها وجسرها » ، وقول ابن عميرة : « وذهب الجسر والرصافة ، ومزقت الحلة والسهلة...الخ.» راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٤٨ – ٥٢) .

فياله من صدْع صدّع أفلاذ الأكباد ، وفزّع قلوب العباد ، واستوى فى مصابه الحاضر والباد . ووافى بلنسية فأدخله أهلها فيها خوفاً من الحصار .

ولما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل فى كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالهـــا ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذى النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبراً سوى البُنَيّات[١] ، والقرى المعمورات[٢] ، وحاز من وادى الحجارة إلى طلبيرة[٣] وفحص اللج[٤] وأعمـــال شنتمرية كلها ، فلم يكن بالجزيرة مَن يلقى أقلَّ كلب من

(١) يرى دوزى أن المدن الكبرى كانت تسمى أمهات بينما تسمى الصغرى التابعة لها بنيات . راجع (Dozy: *Loci de Abbadidis*, vol. III, p. 190).

(٢) كانت مملكة طليطلة تحتل رقعة شاسعة فى قلب اسبانيا على طول وادى التاجو Tajo من الشرق إلى الغرب ومن أهم أعمالها مدينة سالم Medinaceli ووادى الحجارة Guadalajara ومجريط Madrid وقونكة Cuenca ولاردة وافليش وطلبيرة وغيرها وتتوسط هذه المساحة الشاسعة العاصمة طليطلة على ربوة مرتفعة . ونظراً لمتاخمة حدود هذه المملكة بالحدود الاسبانية فقد اعتبرها المسلمون ثغراً أدنى للدولة الاسلامية الأندلسية على اعتبار أن مملكة سرقسطة التى تقع فى شمالها على وادى الإبرو Ebro هى الثغر الأعلى . ولهذا كان سقوط مدينة طليطلة فى يد العدو كارثة كبرى للاسلام فى الأندلس إذ لم يلبث خط التاجو بما فيه من مدن وضياع أن انهار بانهيار قاعدته الرئيسية طليطلة ، واحتل العدو هذه الأراضى الشاسعة التى امتدت جنوباً حتى جبال قرطبة Sierra Morena وقد أطلق الاسبان على هذه المنطقة الجديدة المحتلة فيما بعد اسم قشتالة الجديدة Castilla la Nueva .
راجع (Henri Terrasse: *Histoire du Maroc*, I, p. 231).

وواضح أن احتلال الاسبان لمملكة طليطلة قلب الأندلس ، كان معناه شطر بلاد المسلمين إلى شطرين وتمزيق شملهم . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الشاعر الطليطلى أبو محمد عبد الله بن فرج ابن عزنون اليحصبى المعروف بابن العسال ، بقوله :

شدوا رواحلكم يا أهــل أندلس　　فما المقـــام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى　　ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٨) .

(٣) توجد عدة أماكن باسم طلبيرة فى اسبانيا فهناك Talavera la Real بالقرب من بطليوس عند الحدود البرتغالية غرباً ، وهناك Talavera la Reina التى تقع على نهر التاجو غربى طليطلة وهى المقصودة هنا فى المتن . راجع (*Ency. of Islam*, art. Talavera).

(٤) فحص اللج : الفحص Alfoz اسم يطلق على عدة مواضع بالأندلس . يقول ياقوت فى معجمه للبلدان (ج ٦ ص ٣٣٩) وسألت بعض أهل الأندلس ما تعنون به فقال كل موضع يسكن ، سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع نسميه فحصاً ثم صار علماً لعدة مواضع ولا سيما فى نواحى طليطلة =

كلابه ، فعند ذلك وجَّه كلُّ رئيس بالأندلس رسله إلى الفنش مهنئين ، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين ، وفى أن يشركهم فى بلادهم له عاملين ، ولأموالهم إليه جابين ، حتى إن صاحب شنتمرية ، حسام الدولة ابن رزين[(١)] ، نهض إليه بنفسه وتحمّل هدية عظيمة القدر سنية متقرباً إليه ، وراغباً أن يقرَّه فى بلده عاملا بين يديه ، فجازاه ، على هديته بقرد وهبه إياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ، ويعتقد أنه جُنَّته مما كان يحذر من الفنش من وقوع البأْساء[(٢)] .

وانتحى الفنش انتحاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخَلَه من الإعجاب ما احتقر به كل ماشٍ على التراب ، وتسمى بالإنبراطور[(٣)] ، وهو

= وطليرة واشبيلية . أما فى لغة العرب فالفحص شدة الطلب خلال كل شىء فالدجاجة مثلا تفحص برجلها لتتخذ الفوصة تبيض فيها .

أما فحص اللج الوارد هنا فى المتن فمن الصعب تحديد مكانه خصوصاً وأن المصادر العربية قد اختلفت فى تسميته وتحديد مكانه ، فابن الأبار يسميه بحصن اللج وبالبسيط Albacete على مقربة من جنجاله Chinchilla (الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٥٢ ، ص ٢٢٣ حاشية ١) والحميرى فى الروض المعطار (ص ١٠٨ — ١٣٧) تارة يسميه بحصن اللج وتارة أخرى بحصن الثلج ، ويجعله بجوار شلبطرة Salvatierra علماً بأن هذا الاسم الأخير شلبطرة قد أطلق على عدة أماكن فى اسبانيا شمالا وشرقاً وغرباً ! ! وابن حيان يسميه بحصن الثلج ويجعله فى شمال غرب قرطبة (المقتبس نشر الدكتور محمود مكى) أما ابن الكردبوس فيسميه هنا فى المتن بفحص اللج ويجعله فى منطقة الثغر الأدنى أى فى مملكة طليطلة .

راجع كذلك (Madoz: *Dicc. Geogr.*, vol. XIII, pp. 711-716).

(١) هو حسام الدولة يحي بن عبد الملك بن هذيل بن رزين آخر ملوك هذه الأسرة وقد حكم سهلة بنى رزين أو شنتمرية الشرق Albarracín بعد موت أبيه سنة ٤٩٦ هـ. ثم خلعه المرابطون بعد سنة واحدة من حكمه فى رجب سنة ٤٩٧ هـ. فانقرضت بذلك دولة بنى رزين .

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١١) .

(٢) البأساء اسم للحرب . راجع تفاصيل ذلك فى (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١).

(٣) من المعروف أن الفونسو السادس قد لقب نفسه بلقب لاتينى وهو Imprateur Totius Hispaniae أى الامبراطور على جميع اسبانيا ، كذلك لقب نفسه بلقب عربى وهو الامبراطور ذو الملتين (أى الإسلام والمسيحية) ويؤثر عن المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية أنه حينما تسلم من الملك الفونسو السادس رسالة تحمل هذا اللقب الأخير ، شطبه بقلمه ورد عليه قائلا : المسلمون أحق بهذا الاسم .

راجع (الحلل الموشية ص ٢٦) .

بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه من الإنبراطور ذى المِلَّتَين ، وأقسم لأرْسَال الرؤساء « أنه لا يترك فى الجزيرة من الثوار أحداً ، ولا يبقى لهم ملتحداً ، سوى من اكتنفته رعايتى ، وشملته عنايتى » .

وكان رسول ابن عباد إليه يهودياً يعرف بابن مشعل ، فقال له « كيف أترك قوماً مَجَّانين(١) ، تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون(٢) ، وكل واحد منهم لا يسلُّ فى الذَّبِّ عن نفسه سيفاً ، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعيدان ؟ ! وكيف يَحِلُّ لبشر أن يقرّ منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سُدىً ! ؟ » .

وانتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاثوا فى جميع الأمصار ، وصارت لهم أقصى بلاد المسلمين مرتعاً . ولقد بلغ الروم أن أغاروا فى ثمانين فارساً ممن لا خلاق لهم على نظر المرية(٣) ، فأخرج ابن صمادح قائداً من قواده ، ومعه من خيار جنده أربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ، انهزموا ، وما وقفوا ولا أقدموا .

ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب ألفنش فيهم ، وأنه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية ، رأوا أن الرجوع إلى الحق أحق ، فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير

---

(١) المجان : الكثير المجون ؛ ويجوز أن تقرأ مجانين بدون تشديد الجيم بمعنى أنهم فقدوا عقولهم .

(٢) صور هذه الفوضى السياسية الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيروانى فى هذين البيتين :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٤٤ ، عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤) .

(٣) المرية Almería ميناء هام على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى جنوب شرق اسبانيا بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م . وكانت فى العصر الوسيط احدى القواعد البحرية الهامة للاسطول الاسلامى . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤) .
راجع كذلك *(Ency. of Islam*, art. Almería by Seybold).

المسلمين يوسف بن تاشفين ، على أن ينخرطوا فى سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه . وفتحوا له باباً إلى الجهاد كانوا قد سدّوه ، فأجابهم إلى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، إذ كان راغباً فى جهاد المشركين والذبّ عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه[(١)] .

وأسرع فى عبور البحر بنفسه وإخوته المرابطين ، سنة ثمانين وأربعمائة[(٢)] ، وقد أخلص الله تعالى نيته ، وحقق فى ذاته طويته ، وملأ البحر أساطيلا ، وأجاز الأجناد رعيلا رعيلا ، واحتل بالجزيرة الخضراء[(٣)] ، فى كتيبته الخضراء المشتملة على اثنى عشر ألف راكب من صناديد الأجناد .

---

(١) فى نسخة م : وطلع بدر الهمة من خلال غمامه .

(٢) أغلب المصادر تشير إلى أن عبور يوسف بن تاشفين بقواته إلى الأندلس كان فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ / يونيو ١٠٨٦ م .

(٣) الجزيرة الخضراء Algeciras ميناء فى أقصى جنوب اسبانيا بجوار جبل طارق ، وتسمى أيضاً بجزيرة أم حكيم وهى جارية لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند غزوه لاسبانيا ثم تركها فيها فنسبت إليها ، ويقال إن طارق قد وقف هذه المدينة على جاريته المذكورة . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٧٣ والترجمة الفرنسية ص ٩١) .

ولقد بنى فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر داراً هائلة لصناعة الأساطيل الحربية ذات أسوار وحصون ، كذلك كان يوجد بها مسجد عظيم عرف بمسجد الرايات وذلك نسبة إلى رايات النورمانديين التي غرسوها فيها عندما أغاروا على هذه المدينة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م . فنسبت إليها . وقيل إن هذه التسمية أقدم من ذلك بكثير وتنسب إلى رايات المسلمين الأوائل الذين غزوا اسبانيا بقيادة موسى بن نصير وطارق ابن زياد ، وانهم اجتمعوا براياتهم فى هذا المكان للمشورة والرأى (الروض المعطار ص ٧٣ — ٧٥) ولقد استمرت الجزيرة الخضراء بعد ذلك المجاز المفضل للجيوش العسكرية القادمة من العدوة المغربية على أيام المرابطين والموحدين وبنى مرين ، لقوة مناعتها وشدة قربها من الساحل المغربى حتى إنه يروى أن القائد المرابطى يوسف بن تاشفين قبل جوازه إلى الأندلس طلب من المعتمد بن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء لأهمية موقعها الاستراتيجى . وكان غرضه من ذلك أن يسيطر على مضيق جبل طارق من جهة ، ويضمن الاتصال بوطنه في أى وقت يشاء من جهة أخرى . وقد رضخ المعتمد لطلبه وأمر ابنه الراضى باخلائها . (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨٢) ولقد استمرت الجزيرة الخضراء فى يد المسلمين إلى أن استولى عليها ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر بعد انتصاره فى وقعة طريف del Salado سنة ١٣٤٠ م . على أن ملك غرناطة السلطان محمد الخامس الغنى بالله استطاع فى سنة ١٣٦٩ م . =

ووافاه المعتمد محمد بن المعتضد بن عبّاد ، بجملة من عنده من الأجناد ، والمتوكل ابن الأفطس بجميع ما تحت لوائه من الأجناد ، ولحق أكثر الرؤساء بمن معهم وكل من رغب فى الجهاد .

وكان ألفنش محاصراً لسرقسطة وقد أقسم أنه لا يبرح عنها حتى يدخلها والقدر يأبى إلا خلاف ذلك ، فبذل له المستعين صاحبها أموالا جَمّة فى زواله وتنقله عنها ، فأبى كل الإباية ، وجعل لكل من دان له من الإسلام البرَّ والرعاية ، وأخذ نفسه بالعدل فيهم والأمان ، والرفق فى السرِّ والإعلان ، ووعدهم ألاّ يلزمهم غير ما توجبه السُّنَّة الاسلامية ، وأنه يحملهم فى سائر ذلك على الحرّية . وقد كان تحقق أنه فرق على ضعفاء أهل طليطلة مائة ألف دينار ، ليستعينوا بها على الزراعة والاعتمار ، فاستدل أهل سرقسطة على صدق مقاله وتحقق فعاله(١) .

فبينما هو كذلك إذ وصل إليه ظهور المرابطين فى مغرب العدوة ، وأنهم يرومون الجواز للأندلس فى كل روحة وغدوة ، فكتب إليه أن هؤلاء السائسين يهددوننى بجوازك ، وقد جعلت لمن يبشرنى بذلك عشرة آلاف مثقال ، فإما أن تجوز إلى ، وإما أن أجوز إليك ، فوجِّه إلىّ رسولك بما نعتمد عليه من هذين الوجهين(٢) . فراجعه أمير المسلمين بعد البسملة والصلاة على النبى (صلعم) :

فلا كُتْبَ إلا المشرفيةُ والقَنا ولا رُسْلَ إلاَّ بالخميسِ العرمرمِ(٣)

= أن يستردها ثانية من أيدى الاسبان إلا أنه آثر تدميرها تماما خوفا من أى خطر يأتيه من هذه الناحية سواء من جانب المسيحيين فى قشتالة وأراجون أو من جانب بنى مرين فى المغرب .

والجزيرة الخضراء الآن بلدة صغيرة يسكنها بعض العمال الاسبان الذين يعملون فى جبل طارق . راجع كذلك *(Ency of Islam*, art. Algeziras by Seybold).

(١) هذه العبارة مهمة من الناحية التاريخية إذ تدل على سياسة الدهاء والتفرقة التى اتبعها الملك الفونسو السادس مع المسلمين لاضعاف روح المقاومة فى نفوسهم .

(٢) راجع نص الرسالة التى بعث بها ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى (الحلل الموشية ص ٢٩ — ٣٠) .

(٣) هذا البيت للشاعر المشهور أبى الطيب أحمد المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ / ٩٥٥ م.

ولم يزد على هذا البيت حرفاً ، فما كان إلا أن وصل هذا الجواب وكتاب ثقته بطليطلة بجواز أمير المسلمين قد ورد عليه ، فوجَّه إلى المستعين أن يدفع له ما أمكنه من المـال ، ويأخذ فى أسباب الارتحال ، وجواز المرابطين ، قد نما[١] إلى المستعين ، فأبى أن يدفع إليه درهما خشية أن يتقوى به ويستعين ، فرحل عنه اللعين صاغراً ، وآب بالخيبة إلى طليطلة خاسراً ، وأنفذ كتبه إلى جميع النصارى معلماً بجواز المرابطين ، فوافاه أهل قشتالة فى عدد لا يحصى . وأقلع قائده[٢] البرهانس عن بلنسية فلحق به ، وأقبلت عليه العساكر من أقصى الرومية حتى ملأوا البطاح والأفضية ، فأُعجب بنفسه وقد وَثِق بكثرة من اجتمع إليه من أبناء جنسه ، وأقسم أنه لا يقوم له طالب ، ولا يغلبه مغالب ، ولو أن الله الذى لا يفوته هارب تعالى الله عن ذلك[٣] فخذله الله إذ تبرَّأ من قوته وحوْله . وانفصل عن طليطلة بجيوشه التى ضاقت بها البطـاح ، ولم يصحبها نصر ولا نجاح ، كأنها الليل الدامس ، والبحر الطامس ، قد لبسوا الدروع الضافية ، وتقلدوا السيوف الماضية ، تقلسوا بالحديد ، وتقدموا ببأس شديد ، طبولهم القرون[٤] ، وألويتهم كأنها السحاب الجُون[٥] .

وسار أمير المسلمين[٦] نحو بطليوس ، قاصداً طليطلة للقاء ألفنش فى جيوش

---

(١) فى ج : أنهى .
(٢) فى ج : قائد .
(٣) فى ج : هذه العبارة ساقطة فى ج .
(٤) فى ج : طلبو لهم ، والمتن أصح على أساس أن نفخ القرون عند المسيحيين كان بمثابة قرع الطبول عند المرابطين .
(٥) الجون بفتح الجيم ، والجمع جون بضمها ، لها معانى كثيرة منها الخليج الناتج عن امتداد مياه البحر فى الأرض ، والجون من الابل والخيل هو الأدهم الشديد السواد ، والجون من النباتات يضرب إلى السواد من خضرته ، والجون من القطا ضرب من القطا سود البطون والأجنحة ، والجونة (بفتح الجيم) هي الوهدة بين الجبلين وتستعار لنقرة العين ، والجونة أيضاً عين الشمس وإنما سميت جونة عند مغيبها لأنها تسود حين تغيب . ولعل المراد هنا فى المتن بالسحاب الجون هو الكثيف القاتم اللون كناية عن سواد الألوية أو كثرتها .
(٦) فى م : أمير المؤمنين والمتن أصح لأن ملوك المرابطين على الاطلاق لم يتلقبوا بالقاب الخلافة بل اكتفوا بلقب « أمير المسلمين » ودعوا للخليفة العباسى ببغداد .

تقرّ بها عيون الأولياء ، فالتقيا على مقربة من بطليوس بموضع يسمى بالزلاقة[١] وكان بين المحلّتين ثلاثة أميال فتراسلا ، متى يكون اللقاء ، الذى فيه تسال الدماء . فقال الملعون : هذا يوم الخميس والجمعة عيدكم والأحد عيدنا ، فيكون يوم السبت اللقاء بيننا . فقال أمير المؤمنين : كذلك إن شاء الله يكون . واللعين قد اعتمد[٢] فى ذلك المكر ، وقصد الغدر .

وكان أمير المسلمين[٣] قد نزل بمحلّة تجاه العدو ، ونزل ابن عباد ورؤساء الأندلس على بعد منه ، فرفع ابن عباد الاسطرلاب ، ونظر الطالع فى منزل أمير المسلمين ، فقال ذلك منزل نحيس . فلما كان ليلة الجمعة رحل أمير المسلمين ونزل بين جبلين فأخذ المعتمد طالع نزوله فيه ، فقال لم أر قطّ أسعد من ذلك المنزل الذى نزله .

فلما كان سحر ليلة الجمعة قدّم اللعين كتائبه ، وضم إليه جنائبه ، وقصد نحو محلة المعتمد ورؤساء الأندلس ، وهو يظنها محلة أمير المسلمين ، فلم يشعروا بهم إلا وسيوفهم فى رقابهم[٤] تشرع ، ورماحهم فى دمائهم تكرع[٥] ، ففرّ

---

(١) الزلاقة وفى المصادر المسيحية Sacralias ، ومكانها اليوم قرية صغيرة على نهر Guerrero أحد فروع نهر وادى يانة باسم Sagrajas على بعد ١٢ ك . م . شمالى شرق بطليوس فى غرب الأندلس . فى هذا المكان حدثت الموقعة الشهيرة باسم الزلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى ١٢ رجب ٤٧٩ هـ . (٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦ م .) . والمصادر التى تناولت وصف هذه المعركة كثيرة جداً ، ويمكن الرجوع إلى أهمها مثل (الحميرى : الروض المعطار ص ٨٣ — ٩٥ ، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة نشر ليفى بروفنسال ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١١ — ١٣٠ نشر محيي الدين عبد الحميد) . انظر كذلك :

(R. Dozy: *Loci Abbadidis*, II, pp. 238-253; R. Menéndez Pidal: *La España del Cid*, tomo I, p. 359).

(Huici Miranda: *La invasión de los Almorávides y la batalla de Zallaca* (Hespéris 1953).

(٢) فى ج : اعتقد .

(٣) فى ج : المؤمنين .

(٤) فى ج : فى ركابهم .

(٥) فى ج : تقرع .

الناس فرار الأوعال من تلك السهولة والأجبال ، ووقف لهم المعتمد ، كالأسد الوَرْد[1] ، وناطحهم مناطحة الأقران ، وثبت ثبوت راسخات الرِعَان[2] ، حتى أثخن بالجراح ، وتبع الروم فلَّ المسلمين ثمانية عشر ميلا فى تلك البطاح ، يقتلون ويأسرون وينتهبون .

فأُعلم أمير المسلمين بانهزام الرؤساء ، فقال اتركوهم قليلا للفنا ، فكلا الفريقين من الأعداء[3-4] . فلما تحقق أن أكثرهم قد أُسر وقتل ، رآى أنه قد آن أن يفترس العدو إذ قد تباعد عن محلَّته ، وتحمَّل وقصد بجيشه محلَّة العدو فتغلبها ، واستأصلها وانتهبها ، وقتل فيها نحو عشرة آلاف بين راجل وفارس ، وما منهم إلا بطل مدُاعس ، ومضى على وجهه فى أثر ألفنش وقد تفرّق له فى اتباع الإسلام أكثر الجيش ، فوضعوا السيوف فى ظهورهم ، والأسَل فى نحورهم ، فانهزموا وولوا مدبرين ، خاسئين فارين مدحورين .

ولجأ اللعين إلى جبل منيع فى نحو ثلاث مائة فارس من رجاله ، وكان قد وصل فى ستين ألفاً من أنجاد أبطاله . فلما جنَّ عليه الليل ، وأمن من أن تتبعه الخيل ، انسلَّ انسلال الأرنب ، أمام ذى المِخلب ، ولحق بطليطلة مهزوماً ، حزيناً مكلوماً .

---

(١) فى م : الورى وصحتها الورد كما فى المتن (بفتح الواو وسكون الراء) ومعناها الجرىء وتطلق على الأسد وعلى الكميت من الخيل .

(٢) الرعان : الجبال الطويلة .

(٣) فى ج : فكل من الأعداء .

(٤) هذا النص يتعارض مع ما ورد فى المصادر العربية التى تنص على أن يوسف بن تاشفين حينما علم بأن العدو قد باغت جيش المعتمد بن عباد ، أمر بعض قواده أن يمضى بكتيبة إلى محلة (معسكر) النصارى فيضرمها ناراً أثناء انشغال الفونسو السادس بمحاربة ابن عباد وفى الوقت نفسه أرسل يقول لابن عباد إني سأقرب منك إن شاء الله تعالى . على أن هذه المصادر تشير فى الوقت نفسه إلى خلاف من نوع آخر وقع بين يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد حول خطة القتال بعد احراز النصر فى الزلاقة . فالمعتمد كان يرى الاستمرار فى مطاردة العدو أثناء انسحابه مفلولا ، أما يوسف بن تاشفين فكان يرى الكف عن مطاردته حتى تعود فلول المسلمين الذين انهزموا فى بداية المعركة . راجع على سبيل المثال (الحميرى : الروض المعطار ص ٩١ — ٩٣) .

مُوَكَّلاً[١] بِيَفَاعِ[٢] الأَرْضِ يَفْرَعُهُ[٣] مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ[٤]

وابتدر المسلمون بقطع رؤوس المشركين ، وبنوها كالصوامع ، فى صحون[٥] الجوامع ، وقام المؤذنون فى أعلاها بالآذان ثلاثة أيام ، وتراجع إلى المحلة كلُّ من سَلِمَ من المسلمين ، وكانت الهزيمة يوم الجمعة عاشر رجب الفرد سنة إحدى وثمانين وأربع مائه[٦] ، وتنفَّس بها مخنق الجزيرة ، وثبتت بسببها[٧] بلاد كثيرة .

فبينما أمير المسلمين ، يدبِّر فى الدخول إلى بلاد المشركين ، إذ وافاه كتاب بوفاة ابنه الكبير ، فطرء عليه من ذلك رزء كبير ، ولم يكن له بدّ من العودة إلى العدوة[٨] بسبب هذا المصاب الخطير ، فترك عند المعتمد ثلاثة آلاف فارس

---

(١) هذا بيت من قصيدة أبى تمام المعروفة التى يمدح بها الخليفة العباسى المعتصم بالله بمناسبة فتح مدينة عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

راجع (ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق محمد عبده عزام ، المجلد الأول ص ٧٤ ، مجموعة ذخائر العرب) .

(٢) اليفاع : المرتفع .

(٣) فى الديوان : يشرفه (بفتح الياء وضم الراء) أو يشرفه (بضم الياء وكسر الراء) والأولى بمعنى يعلوه وهى تتفق فى المعنى مع يفرعه التى هى فى المتن ، والثانية بمعنى يشرف عليه .

(٤) هذا الشطر الثانى من البيت ساقط فى دوزى . راجع (*Loci de Abbadidis*, II, p. 23).

(٥) فى نسخة ج : حصون الجوامع وصحتها كما فى المتن .

(٦) هذا التاريخ غير صحيح لأن التاريخ المعروف لوقعة الزلاقة هو ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦ م) كما ذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح إلى عدوة المغرب ، وكما ورد فى كتابى الحلل الموشية ص ٤٠ وروض القرطاس ص ٩٦ — ٩٨ هذا إلى جانب الرواية المسيحية الاسبانية التى تحدده بنفس التاريخ بالسنة الميلادية . راجع كذلك (عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣١٢) .

(٧) فى ج : بسببها .

(٨) فى نسخة م : الصدر إلى العدوة ؛ هذا ويلاحظ أنه بعد انتصار الزلاقة قرر يوسف بن تاشفين العودة فوراً إلى المغرب . ولقد أثارت هذه العودة السريعة اضطرابا فى أقوال المؤرخين ، فالبعض يرجع ذلك إلى وفاة ابنه الكبير وولى عهده الأمير عبد الله سير . راجع (المتن وكذلك روض القرطاس ص ٩٨) والبعض الآخر يرجعه إلى استياء يوسف بن تاشفين وتبرمه مما شهده من سوء الأحوال فى الأندلس وفساد أمرائها وحكامها وسوء نياتهم نحوه . راجع (مذكرات الأمير عبد =

وقدّم عليهم القائد أبا عبد الله[١] محمد بن الحاج وأخذ فى الانصراف ، وترك أهل الأندلس مع رؤسائهم فى غاية من الاختلاف ، وقد مالت نفوسهم إلى أمير المسلمين ، لِمَا رأوا عنده من العدل والشهامة والإنصاف .

فلمـا تحقق عند النصارى أنه قد جاز ، وقطع البحر وفاز ، اتفقوا على تدويخ شرق الأندلس ، فشنوا الغارات على سرقسطة وجهاتها ، وتمادوا إلى بلنسية ودانية[٢] وشاطبة[٣] ومرسية[٤] وذواتهـا ، فانتسفوها نسفاً ، وتركوها

= الله المعروفة بكتاب التبيان ص ١٠٧) ، وأغلب الظن أن السبب الرئيسى فى عودته المفاجئة هو وفاة عمه أبى بكر عمر اللمتونى (٤٨٠ هـ) الحاكم الشرعى للدولة المرابطية والذى كان يوسف بن تاشفين ما زال نائباً عنه فى حكم شمال المغرب ، فاضطر يوسف إلى العودة إلى وطنه لتدعيم سلطانه وأخذ البيعة لنفسه .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت ، ابن عم يوسف بن تاشفين ، وأحد كبار قواده ، وأسرة بنى الحاج التى ينتمى إليها هذا القائد أسرة بربرية صنهاجية مشهورة أنجبت عدداً من أعظم قواد المرابطين . ولقد أطلقت عليها المراجع المغربية أحياناً اسم مجوز أو مقوز أو مكوز التى ما هى إلا صيغ مختلفة للكلمة البربرية وجوز ومعناها حاج بالعربية . ولا شك أن هذه الصفة أطلقت على والد هذه الأسرة بعد أن أدى فريضة الحج ثم صارت اسماً علماً له . ولقد قام محمد بن الحاج المذكور هنا فى المتن بدور كبير فى المعارك التى دارت بين المرابطين والمسيحيين فى الأندلس . راجع (ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٠ نشر الدكتور محمود مكى) راجع كذلك :
(Huici Miranda: *'Alí ibn Yusuf*, apéndice II, p. 106).

(٢) دانيه Denia تقع على ساحل البحر المتوسط جنوبى بلنسية فى شرق اسبانيا وهى الآن مركز إدارى فى مديرية لقنت Alicante ، واسمها العربى والاسبانى مشتق من اسمها الرومانى القديم دانيوم Danium . ولقد لعبت دانيه فى العصر الإسلامى دوراً هاماً خصوصاً بعد أن استقل بها القائد الصقلبى أبو الجيش مجاهد العامرى الذى تسميه المصادر الأوربية Mugeto . فلقد استطاع هذا القائد أن يحتل جزر البليار وجزيرة سردانية ويسيطر على غربى حوض البحر المتوسط . وبعد وفاته سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ م خلفه ابنه على اقبال الدولة مدة من الزمن ثم خلعه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة سنة ١٠٧٦ ، وظلت دانيه تابعة لبنى هود حتى سنة ١٠٩٢ م حينما استولى عليها المرابطون ثم الموحدون من بعدهم . وفى سنة ١٢٤٤ م سقطت دانيه نهائياً فى يد المسيحيين حينما استولى عليها خايمى الأول ملك أراجون . وينسب لدانيه علماء كثيرون نذكر منهم المقرىء أبا عمرو الدانى المعروف بابن الصيرفى وله مؤلفات فى القراءات وتوفى بدانية سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م . راجع (الروض المعطار ص ٧٦) . راجع كذلك (*Ency. of Islam*, art. Denia by Seybold).

(٣) شاطبه Játiva من الاسم الرومانى Saetabis ، مدينة مرتفعة فى شرق اسبانيا من أعمال بلنسية على بعد ٥٦ ك. م. فى جنوبها الغربى . وقد اشتهرت فى العصر الإسلامى بصناعة الورق =

قاعاً صفصفاً ، وأخذوا حصن مره[1] رابط وغيرها ، فساء حال الشرق وحسُن الغرب بمن كان فيه من المرابطين .

= الذى اشتهر باسمها (الشاطبى) . وبحكم تبعيتها لبلنسية خضعت شاطبة أيام ملوك الطوائف لحاكم هذه الناحية الشرقية عبد العزيز بن أبى عامر ثم لبنى هود حكام سرقسطة ثم المرابطون والموحدون إلى أن سقطت نهائياً فى يد ملك أراجون خايمى الأول سنة ١٢٤٠ م وينسب إلى شاطبة علماء كثيرون نذكر منهم أبا القاسم الرعينى الشاطبى الذى هاجر إلى مصر على عهد صلاح الدين الأيوبى وعين أستاذاً فى المدرسة الفاضلية التى أسسها الوزير القاضى الفاضل ، وألف مؤلفات كثيرة فى تفسير القرءان وقراءاته السبع كما نظم شعراً ورجزاً كثيراً مثل أرجوزته المعروفة باسمه الشاطبية . وتوفى بالقاهرة ودفن بقرافتها سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م.

أما الشاطبى دفين الاسكندرية فى الحى الجامى المعروف باسمه حتى الآن فهو ولى الله تعالى أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبي الذى عاش فى القرن السابع الهجرى على عهد السلطان الظاهر بيبرس .

(٤) مرسية Murcia مدينة فى جنوبى شرق اسبانيا ، تبعد عن البحر المتوسط بنحو ٦٤ ك . م . وميناؤها عليه تسمى قرطاجنة Cartagena . واسم مرسية القديم هو تدمير نسبة إلى تيودومير حاكم هذه المنطقة أيام الفتح العربى لاسبانيا ، وهو الذى عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى بن نصير احتفظ فيها بشى من الاستقلال بهذه الناحية الشرقية . وفى عهد عبد الرحمن الداخل تحولت هذه المنطقة إلى كورة عادية قاعدتها أوريولة Orihuela . وفى سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م اختطت مدينــة مرسية أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسية بعد ذلك أن صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميت الكورة كلها باسمها . وبعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة استقل بحكم مرسية وكورتها الموليان العامريان الصقلبيان خيران وزهير ثم ضمت الكورة إلى بلنسية ثم انفصلت عنها بعد ذلك على المرابطين . وفى أواخر أيام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل وأصبحت تسمى فى النصوص الإسبانية باسم مملكة مرسية . وأخيراً سقطت فى يد ملك أراجون خايمى الأول سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م ولقد اشتهرت مرسية بخصبها وحدائقها ومتنزهاتها مثل متنزه الرشاقة وكانت تروى بميــاه نهر شقورة Segura أو الوادى الأبيض . وينسب إلى مرسية علماء وشعراء كثيرون نخص بالذكر منهم القطب الصالح أبا العباس المرسى دفين الأسكندرية . راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦٣ ، ج ٢ ص ٣١٦ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٨١ — ١٨٣ ؛ العذرى : المسالك والممالك ص ١ — ١٠ نشر الأهوانى) . راجع كذلك :

(*Ency of Islam,* art. Murcie by Lévi-Provençal & Gaspar Remiro: *Historia de Murcia Musulmana,* (Zaragoza, 1905).

(١) كذا فى الأصل وقد فسرها دوزى على أنهــا بلدة Miravet شمالى طرطوشه (*Loci de Abbadidis,* III, p. 191) وأغلب الظن أنها مربيطر وهى بلدة من أعمال بلنسية وتقع فى شمالها بنحو ٢١ ك . م. وقد ظلت حتى القرن الماضى ١٨٧٧ تسمى بالاسبانية Murviedro ثم سميت بعد ذلك إلى اليوم باسم بلدة قديمــة ملاصقة لها وهى ساجونتو Sagunto (من الاسم الرومانى Saguntum) . وتمتاز هذه المدينة بملعبها الرومانى القديم الذى أشار إليه ياقوت (معجم البلدان ج ٨ ص ١٤) وصاحب الروض المعطار (ص ١٨٠) . وما زالت إلى اليوم تقام فى ملعبها المسرحيات العالمية الكلاسيكية . انظر كذلك : (Madoz: *Dicc, Geográfico,* tomo XI, pp. 773-784 (Madrid, 1848).

وخرج الحاجب منذر بن أحمد بن هود من لارِدَة[١] ، ونزل على بَلَنْسِيَة وحصرها طامعاً فى أخذها من يد القادر ، فلما سمع به ابن أخيه المستعين[٢] استنصر بالقنبيطور لعنه الله ، وخرج معه فى أربعمائة فارس والقنبيطور فى ثلاثة آلاف فارس ، وغزا معه بنفسه حرصاً منه على تملك بلنسية على أن للقنبيطور أموالها وللمستعين جَفْنها[٣] .

فلما سمع بمجيئه عمه الحاجب رحل عنها ، ولم يحل بطائل منها ، فلم يزل محاصراً لها حتى حصلها .

وفى هذه السنة وهى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، استشهد القائد أبو شجاع بن لبون[٤] ، وفيها مات الخليفة أبو المظفر[٥] علىّ ، وفيها كان السيل

---

(١) لاردة Lérida : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادى شقر Segre شرقى سرقسطة وفى منتصف الطريق بينها وبين برشلونة . ولاردة الآن مدينة ومديرية قائمة بذاتها ، أما فى العصر الإسلامى فكانت القاعدة الثانية بعد سرقسطة فى منطقة الثغر الأعلى . وحينما استقل بنو هود بهذه المنطقة فى أيام ملوك الطوائف ، كانت سرقسطة ولاردة من أهم المناطق التى تنازع عليها ملوك هذه الأسرة .

واقد سقطت لاردة فى يد المسيحيين نهائياً سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م على يد رامون برنجر الرابع Ramón Berenguer IV قومس برشلونة . راجع (الروض المعطار ص ١٦٨) . راجع كذلك :
(*Ency. of Islam*, art. Lérida by Lévi-Provençal).

(٢) فى م : ابن أخته .

(٣) فى م : حقبها وصحتها جفنها كما فى المتن . وكلمة جفن وجمعها أجفان وجفون معانيها كثيرة مثل : جذر الكرم أو قضبانه ، وجفن العين ، وأجفان المراكب ، والبئر الصغيرة والقصعة . . . الخ . ويرى دوزى أن الأندلسيين أطلقوا كلمة جفن أيضاً على المدينة بصفة عامة باستثناء حصونها أو قصبتها التى عادة ما تكون على جبل أو مكان مرتفع وفى ذلك يقول ابن الخطيب : فنازل المسلمون مدينة أشونه Osuna ودخلوا جفنها عنوة ، واعتصم اهلها بقصبتها ؛ وفى موضع آخر يقول : فدخل جفنها واعتصم من تأخر أجله بقصبتها ، فالمراد إذن بأجفان البلاد هو سهولها او أجزائها الداخلية وليس جبالها أو حصونها المرتفعة . ولعل المراد هنا فى المتن أن السيد المحارب أو القمبيطور يخصه من بلنسية ثرواتها المحيطة بينما يخص المستعين المدينة ذاتها . راجع :
(Dozy: *Loci de Abbadidis*, vol. II, p. 6, note 22, p. 24, note 43).
(Dozy: *Supplement aux Dicctionnaires Arabes*, tome I, pp. 200-201).

(٤) راجع ، ما كتبناه عن هذا القائد وعن أسرته فى حاشية سابقة .

(٥) فى ج : الخليفة أبو المظفر عنبر وفى (ا) ساقطة وكذلك فى دوزى . ولا ندرى من هو المقصود بهذا الاسم فالخليفة العباسى فى ذلك الوقت كان اسمه أبا القاسم المقتدى بأمر الله ، أما الخليفة الفاطمى فكان المستنصر بالله وكلاهما توفى فى سنة ٤٨٧ هـ ! !

الأعظم فى صدمة اكتوبر الذى خرب بلنسية وغيرها وهدم برج القنطرة[١] .

واستعجل[٢] فى تلك المدة ابن ردمير ، لمـــا جرى على الفنش التدمير ، وانضمت إليه جميع النصرانية ، فنزل بهم على تُطِيلَة[٣] فى نحو أربعمائة ألف نسمة ، فردَّهم الله عنها خائبين ، واستولى على حصون من عمل ابن هود . ثم ان الفنش خفَّ روعه وانتعشت نفسه فحشد وجمع واستعد وخرج قاصداً لمنازلة بلنسية ومحاصرتها بعد أن كتب إلى جنوة وبيشه[٤] أن يأتوه فى البحر فوصلوا إليه فى نحو أربعمائة قلاع ، فاستحكم طمعه فيهـــا وفى جميع سواحل الجزيرة ، فارتاع له كل من فى السواحل ، ثم إن الله تعالى خالف بين كلمتهم وأذن بتفرُّقهم ، فأصبح وهو راحل ، ولم يحصل على طائل .

ولما نزل ألفنش على بلنسية غضب القنبيطور[٥] واحتد ، وجمع وحشد لأنه

---

(١) حدد العذرى موقع هذه القنطرة عند وصفه لمدينة بلنسية بقوله : وبلنسية مدينة مسورة قد اتقن سورها المنصور بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولا يعلم ببلاد الأندلس أتقن بنـاء من سورها ولا أجمل منه ، ولها خمسة أبواب : الباب الشرقى يسمى بباب القنطرة ، ويخرج منه على قنطرة قد صنعها المنصور بن عبد العزيز بن أبى عامر ، ليس فى الأندلس أتقن منها ، وعلى هذه القنطرة تخرج الرفاق إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة وما هنالك . . .
راجع (العذرى : نفس المرجع ص ١٧ – ١٨) .

(٢) فى ج : واستفحل .

(٣) تطيله Tudela مدينة من المدن الشمالية الإسبانية تقع على وادى الابرو على بعد ٧٨ كـ . م. شمال غرب سرقسطة وهى الآن مركز إدارى فى مديرية نافارا . وكانت تطيلة فى العهد الإسلامى من مدن الثغر الأعلى وقد بناها الأمير الأموى الحكم الربضى ، ثم اتخذها الخليفة عبد الرحمن الناصر قاعدة لاحدى حملاته فى شمال اسبانيا سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م ولقد تكرر استيلاء المسيحيين على هذه المدينة ، ولكن المسلمين كانوا يتمكنون من استردادها ثانية ولهذا لا نعرف بالضبط تاريخ سقوطها نهائياً فى يد الاسبان . وينسب لهذه المدينة عدد من العلماء المسلمين ونخص بالذكر منهم الشاعر أبا العباس أحمد بن عبد الله القيسى المعروف بالأعمى التطيلى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م . راجع ترجمته فى (الضبى : بغيـــة الملتمس ترجمة رقم ٤٢٦ ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٣١٥ – ٣٢٢ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ٦٤) راجع كذلك (*Ency. of Islam*, art. Tudela by Lévi-Proveuçal).

(٤) فى ا : فيشه وفى ب فيشنه والمقصود بها بيشه Pisa وهي مدينة وولاية إيطالية اشتهرت ببرجها المائل .

(٥) هو الفارس القشتالى المشهور رودريجو دياث بيبـار Rodrigo Díaz Vivar الملقب بالسيد الكمبيادور أو القنبيطور El Cid Campeador ومعناه السيد المبارز .

كان يعدّها له طـاعة ، والقادر بها عامله ، إذ لا قدرة له عل الدفاع ولا استطاعه ، فخـالفه إلى قشتالة لخرق وهدم ، فكان ذلك أقوى الأسباب فى افتراق ذلك الجمع عن بلنسية .

وانصرف الفنش إلى قشتالة مسرعاً ، والقنبيطور قد ولىَّ راجعاً . ونزل أسطول جنوة وغيرها على طُرطوشة(١) وجاءهم ابن ردمير(٢) وصاحب برشلونة(٣) فثبتها الله ودفع عنها ، وانصرف جميعهم خائباً منها .

وكرَّ القنبيطور إلى بلنسية ، واتفق معهم على مائة ألف مثقال جزية فى كل عام . وفى هذا العام استحكم طمع أصناف النصارى على الجزيرة ، فضيَّق غرسية(٤)

---

(١) طرطوشة : Tortosa من الاسم القديم Dertosa ، تقع فى شمال شرق اسبانيا بالقرب من ساحل البحر المتوسط عند مصب نهر الابرو وعلى بعد ٨٤ ك . م. جنوبى مدينة طركونه Tarragona التى تعتبر طرطوشة من أعمالها . وفى العصر الاسلامى اشتهرت طرطوشة بدار صناعتها الضخمة التى بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م وكذلك بمسجدها الكبير الذى أمر ببنائه هذا الخليفة أيضاً سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م وفى عصر ملوك الطوائف استقل بطرطوشة بعض الفتيان الصقالبة أمثال لبيب ومقاتل ونبيل لفترة قصيرة من الزمان ثم ضمت لمملكة بنى هود حكام الثغر الأعلى (سرقسطة) ، وظلت كذلك إلى أن اضمحلت هذه المملكة العربية سرقسطة ، فسقطت طرطوشة فى يد قومس برشلونه رامون برنجر الرابع Ramón Berenguer IV وحلفائه فرسان الداوية Templiers سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وينسب إلى هذه المدينة بعض العلماء الأندلسيين المشهورين ونخص بالذكر منهم الامام الزاهد أبا بكر محمد ابن الوليد الفهرى الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وقبره معروف هناك ويتبرك به بنواحى الباب الأخضر . ولهذا العالم المتصوف عدة كتب نذكر منها كتاب الحوادث والبدع تحقيق محمد الطالبى (تونس ١٩٥٩) وكتاب سراج الملوك (القاهرة ١٣١٩) وقد ترجم إلى الاسبانية المستشرق الاسبانى ألاركون Alarcón بعنوان Lámpara de los Príncipes فى جزئين (مدريد ١٩٣٠) .

(٢) المقصود بابن ردمير هو ملك أراجون ونافارا سانشو راميرث Sancho Ramírez (١٠٤٣ – ١٠٩٤ م) ، وكان قد هاجم مدينة طرطوشة هو وولى عهده بدرو الأول Pedro I فى ذلك الوقت . راجع *(Diccionario de Historia de España.* t. II, p. 1118*)*.

(٣) صاحب برشلونة فى ذلك الوقت هو رامون برنجر الثالث Ramón Berenguer III وحكم من ١٠٨٢ إلى سنة ١١٣١ م .

(٤) لعل المقصود بغرسية هنا القائد القشتالى غرسية خيمينس García Giménez (أحد قواد الملك الفونسو السادس) الذى احتل قلعة لييط Aledo بالقرب من لورقة ، ثم أخذ من هناك يشن الحملات على المرية ونواحيها سنة ١٠٨٦ م . راجع (Ballesteros: *Historia de España*, II, p. 308).

على المرية ، والفانت[١] على لورقة[٢] ، وحاصر البرهانس مرسية ، والقنبيطور شاطبة .

وجهّز المعتمد ابنه الراضى فى ثلاثة آلاف فارس للقاء العدو لعنه الله وهو فى ثلاثمـــائة فارس فانهزم ابنه أمامه ، وفر قدامه ، فاستأصل محلته وقتل وأسر جلّته .

وبنى أسقف افرنجى فى ضفة البحر حصن ششنة[٣] ، فحميت عند ذلك نفوس من باشبيلية من المرابطين ، وتقدم عليهم القائد محمد[٤] بن عائشة ،

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى نسخة أخرى : الفانة ، وقد يفهم من النص أن المراد بها شخص يسمى أو يلقب بهذا الأسم . ومن المحتمل أن تكون كلمة الفانت تعريباً للكلمة الاسبانية Infante انفانت ومعناها ابن الملك أو أحد قرابته الحاصلين على هذا اللقب . وقد أشارت المصادر المسيحية إلى الغارات العديدة التى قام بها القشتاليون على منطقة لورقة ومرسية فى ذلك الوقت أى بعد وقعة الزلاقة ، ولكنها لم تذكر اسم قائدها . راجع (Ballesteros, II, pp. 308-309) على أنه هناك تفسير آخر لهذه الكلمة الفانت أو الفانه وهو أنها تكون تحريفاً لكلمة فنيانة Fiñana وهى بلدة من أعمال المرية وتقع فى شمالها وفى جنوب لورقة . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٤٣) .

(٢) لورقة Lorca : مركز إدارى فى ولاية مرسية فى جنوب شرق اسبانيا . وقد اشتهرت بخصبها ومنتجاتها الزراعية ولا سيما الفواكه . ويصفها صاحب الروض المعطار بقوله : إن تفسير لورقة باللاتينية معناه الزرع الخصيب . (الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٢) ، فى حين يفسرها العذرى عن اللاتينية أيضاً بالدرع الحصين (جغرافية العذرى ص ١ ، ١٢٩) وتفسير العذرى أدق لأن اللفظ اللاتينى Lorica الذى صار فى الاسبانية معناه الدرع Loriga معناه الدرع . انظر كذلك :

(*Ency. of Islam,* art. Lorca).

(٣) كذا فى الأصل ، وفى نسخة م شسه ، ويفهم من النص أنها بجوار مرسية وعلى ساحل البحر المتوسط . ولعلها تكون شجنه وهى مرسى من أعمال مرسية بالقرب من مينائها قرطجنة وقد ورد ذكر هذا الموضع فى مقصورة حازم القرطاجنى . راجع البحث القيم الذى كتبه استاذنا المستشرق غرسية غومس حول الأماكن الجغرافية التى وردت فى مقصورة حازم القرطاجنى وكلها تتعلق بكورة تدمير أو مقاطعة مرسية الحالية :

(García Gómez: *Observaciones sobre la Qasida Maqsura de Abu-l-Hasan Hazim al-Qartaŷanni* - Al-Andalus, vol. I, facs. 1-2, 1933).

(٤) هو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ويعرف بابن عائشة وكان من كبار قواد المرابطين . عينه أبوه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائداً على شرق الأندلس بعد أن عاث السيد القنبيطور فيه فساداً ، فولى عمل مرسية واضطلع باقرار الأحوال فى تلك المنطقة الشرقية . وفى عهد أخيه أمير المسلمين على قام ابن عائشة بعمليات حربيـــة واسعة النطاق ، فشارك فى وقعة اقليش Uclés ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م كما أسرع من مرسية لنجدة محمد بن الحاج عامـــل سرقسطة حينما حاصره =

وقصد بهم مرسية ، والتقى بهم مع جملة من النصارى فهزموهم وقتلوا منهم جملة وأسروا جماعة . وخلع [أى ابن عائشة] صاحب مرسية[١] وتمادى إلى دانية ففر صاحبها ابن مجاهد[٢] فى البحر ، وآوى إلى الدولة الحمّادية الصنهاجية ، والملك إذ ذاك الناصر بن علناس[٣] فأحسن إليه وأكرمه .

= الفونسو المحارب ملك أراجون سنة ٥٠٤ ﻫ وقد انتهت هذه العملية بفك هذا الحصار وعودة ملك أراجون إلى بلاده . كذلك اشترك ابن عائشة مع ابن الحاج فى غزو برشلونة سنة ٥٠٨ ﻫ وهى الحملة التى انتهت بهزيمة البورت وقد نجا منها ابن عائشة إلا أن بصره اعتل بعدها ثم لم يلبث أن عمى ، فاستدعاه أخوه أمير المسلمين على ، وعين بدلا منه على مرسية أخاه ابراهيم بن يوسف .

راجع (أويثى ميراندا : على بن يوسف ص ٨٧ ، ٩٤ ، ١١٤ ، مجلة تطوان سنة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية ١ نشر الدكتور محمود على مكى) .

(١) لعله يقصد القائد عبد الرحمن بن رشيق الذى حكم مرسية باسم المعتمد بن عباد أول الأمر ثم استقل بحكمها بعد ذلك إلى أن كان عبور المرابطين إلى الأندلس وانتصارهم فى الزلاقة . وعلى الرغم من اختلاف روايات المؤرخين حول تاريخ سقوط مرسية فى أيدى المرابطين إلا أنه يبدو أن أحداث المتن هنا تتفق مع الرواية القائلة بأن القائد ابن عائشة استولى على مرسية من يد ابن رشيق سنة ٤٨٤ ﻫ / ١٠٩١ م وجعلها قاعدة عسكرية للجيوش المرابطية المكلفة بمقاومة عدوان السيد القنبيطور فى شرق الأندلس . راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٦٠ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ ، القاهرة ١٩٥٥ ، عبد الله عنان : دول ملوك الطوائف ص ١٨١ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٧) .

(٢) اختلفت روايات المؤرخين حول مصير آخر ملوك مملكة دانية المجاهدية وهو اقبال الدولة على ابن مجاهد . فبعضهم يرى أن هذه الدولة لما سقطت فى يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة سنة ٤٦٧ ﻫ / ١٠٧٦ م وقع صاحبها على بن مجاهد أسيراً فى يد ابن هود الذى حمله معه إلى سرقسطة وأنزله فى كنفه إلى أن مات سنة ٤٧٤ ﻫ / ١٠٨١ م وهى نفس السنة التى مات فيها ابن هود أيضاً . (مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٨ ، الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٨ ، أعمال الأعلام ص ٢٢٢ ، البيان المغرب ج ٣ ص ٣٢٢) .

أما البعض الآخر من المؤرخين فيرى أن على بن مجاهد قد استطاع الفرار ، والالتجاء إلى مدينة بجاية Bougie على الساحل الجزائرى حيث عاش فى كنف ملكها إلى أن مات هنالك . راجع (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٦ — ١٨٧) . ورواية ابن الكردبوس هنا تتفق مع رواية ابن خلدون مع فارق واحد وهو أن ابن خلدون يرى أن القائد المرابطى الذى استولى على دانية وشرق الأندلس هو محمد بن الحاج فى حين يرى ابن الكردبوس أنه كان ابن عائشة وهذا هو الصحيح . راجع كذلك :

(Campaner y Fuertes: *Dominación Islamita en las Baleares*, p. 80).

(٣) إذا افترضنا صحة الرواية القائلة بأن القائد بن عائشة قد استولى على مرسية ودانية فى سنة ٤٨٤ — ٤٨٥ ﻫ فانه فى هذا الوقت يكون ملك بجاية والقلعة هو المنصور بن الناصر ابن علناس =

ودخل ابن عائشة دانية ، فوافاه بها ابن جحّاف قاضى بلنسية وسأله النهوض إليها معه ، فلم يمكنه أن يفارق موضعه ، فأنفذ معه عسكراً وقدم عليه قائده أبا ناصر فوصلا إليها وقصدا القادر وقتلاه وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة[١] . فلما انتهى ذلك إلى القنبيطور وهو محاصر لسرقسطة غاظه وحميت نفسه ، وزال عنه أنسه ، لأنها كانت بزعمه طاعته ، لأن القادر كان يعطيه منها مائة ألف دينار فى العام جزية . فرحل عن سرقسطة فنزل على بلنسية وحاصرها مدة من عشرين شهراً إلى أن دخلها قهراً بعد أن لقى أهلها فى تلك المدة ما لم يلقه بشر من الجوع والشدة إلى أن وصل عندهم فأر دينارا . وكان دخوله إياها سنة سبع وثمانين وأربعمائة[٢] .

وفى هذه المدة انقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفسادهم[٣] وممن يعمل بأعمالهم خلْق كثير وتسموا بالدوائر . وكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ، ويسلبون النساء والأطفال . وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبى (صلعم) إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت[٤] . ومن لم

= الذى حكم من سنة ٤٨١ إلى ٤٩٨ هـ (١٠٨٨ — ١١٠٥ م) . أما والده الناصر بن علناس المذكور فى المتن فقد حكم من سنة ٤٥٤ إلى ٤٨١ هـ (١٠٦٢ — ١٠٨٨ م) .

راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب) .

(١) هو أبو جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافرى قاضى بلنسية وقائد حركة المقاومة فى المدينة ضد الاستعمار القشتالى وأذنابه أمثال السيد القنبيطور وحليفه القادر بن ذى النون الذى تخلى عن مملكة طليطلة للملك قشتالة الفونسو السادس مستعيضاً عنها بولاية بلنسية .

ولقد انتهز ابن جحاف فرصة غياب السيد كمبيادور عن بلنسية وقام بثورته فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ / اكتوبر ١٠٩٢ م . وقتل القادر بن ذى النون واستولى على أمواله ، وأعلن أن السلطة فى يد أبناء هذا البلد . ولم يلبث أن اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة فى المدينة فتولى زمام أمورها .

(٢) أى ١٠٩٤ م .

(٣) فى نسخة ج : وفساقهم .

(٤) يطلق لفظ الحوت فى المغرب على الأسماك بوجه عام .

يَفْدِ نفسه قُطع لسانه وفُقئت أجفانه[(١)] ، وسلطت عليه الكلاب الضارية ، فأخذته أخذة رابية .

وتعلقت طائفة منهم بالبرهانس لعنه الله ولعنهم ، فكانت تقطع ذكور الرجال ، وفروج النساء ، ورجعوا له من جملة الخَدَمَةِ والعمال ، وفتنوا فتنة عظيمة فى أديانهم وسلبوا جملة إيمانهم .

فلما رأى الأمير سِير بن أبى بكر ما حلّ من كلَف العدو بالعباد ، وما نزل من الفساد فى البلاد ، تجهز وخرج قاصداً البرهانس فهزمه وجنوده ، وفلّ الله به حدّه ، فارتاع لذلك الروم ، ورأوا أن قراع المرابطين غير مروم ، فحسدهم ابن عباد وغيره من الرؤساء بقلّة إنصافهم ، وكثرة بغيهم واختلافهم ، فاعتقدوا بهم المكر ، وأضمروا لهم النكث والغدر ، وخاطبوا[(٢)] الفنش سراً أن يسعوا على المرابطين سراً وجهراً ، ويصيروهم له طعمة[(٣)] على أن يتركهم على ما بأيديهم عمالا ، ويجبون له من الرعية أموالا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، وشرعوا فى تدبير الأمر من هنالك ، وحادوا[(٤)] بأمير المسلمين عند انصرافه من العدوة ، وهى الدخلة[(٥)] الثانية عن الجهاد ، وأغروه بغرناطة ومالقة والمرية ، وشغلوه بها عن مكافحة الأعادى كى يتم تدبيرهم على مهل ، ويتأهب العدو لما أمل .

وقصد الأمير غرناطة ونزل قريباً منها ، فقالت لعبد الله بن باديس[(٦)]

---

(١) فى نسخة م : وفقئت عينه .
(٢) فى دوزى : وخطبوا .
(٣) فى دوزى : طمعه .
(٤) فى دوزى : عن .
(٥) فى دوزى : الرحلة .
(٦) كان سقوط مملكة غرناطة فى يد المرابطين فى رجب سنة ٤٨٣ هـ/ سبتمبر ١٠٩٠ م. راجع أحداث سقوطها فى مذكرات آخر ملوكها عبد الله بن بلقين بن باديس . وقد كتبها فى منفاه بمدينة أغمات جنوب المغرب تحت عنوان : « كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة » وقد نشرها ليفى بروفنسال بعنوان مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك غرناطة (القاهرة ١٩٥٥) .
راجع كذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥ — ٢٣٦) .

ابن حبُّوس ، أميرها ، أمه : أُخْرُجْ وسَلِّمْ على عمِّك يوسف ! فخرج وسلم عليه فلما أراد الانصراف أُدخل فى خباء ، وجعل كبل ثقيل فى رجله ، فدخل الأمير البلد ، بهذا الغدر فاستطلع به واستبد ، وسِرُّ القوم فى الغدر به عنده واضح ، ومكرهم فى الإيقاع به لائح ، لكنه جرى على مدادهم ، كأنه لا يعلم حقيقة اعتقادهم وإنما كان غرضه أن يتبين للمسلمين مذهبهم ، وسعيهم الذميم وطلبهم ، كى تقوم له الحجة عليهم ، عند امتداد يده فى عقابه إليهم ، ولم يأمنهم بعد على نفسه ولا رجاله ، ولا أطمأن إلى أحد منهم فى حالة من أحواله .

ثم إنه وجه جيشاً إلى المرية ، ففر ابن صمادح[(١)] منها فى قطعة بحرية ، وآوى إلى دولة بنى[(٢)] حَمَّـاد وملكها إذ ذاك المنصور بن الناصر[(٣)] ، فقرَّ به وأحسن إليه ، وأدناه حتى كان أحظى من ولديه[(٤)] .

---

(١) تختلف الروايات هنا أيضاً حول أحداث سقوط المرية فى يد المرابطين ، فابن الكردبوس هنا فى المتن ويؤيده الأمير عبد الله فى مذكراته (المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٦٨) وابن الأبار فى حلته السيراء (ج ٢ ص ٩٠) . يروون أن المعتصم بن صمادح صاحب المرية حينما حضرته الوفاة أوصى ابنه معز الدولة أحمد بن المعتصم بن صمادح المذكور هنـا فى المتن ، بالهرب إلى بنى حماد أصحاب بجاية والقلعة بالمغرب الأوسط واشترط عليه ألا يقوم بهذا العمل إلا بعد أن يعلم بسقوط اشبيلية وخلع أميرها المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف فى ذلك الوقت . وقد نفذ الابن وصية أبيه ، فبعد سقوط اشبيلية فى رجب سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، بادر إلى مغادرة المرية بحراً فى رمضان من نفس السنة قبـل أن يحاصرها المرابطون ، ونزل بأهله وأمواله فى مدينة بجاية فى كنف ملكها المنصور بن الناصر بن علناس الذى أكرم وفادته وأقطعه بلدة تدلس Dellys التى لم تلبث بعد ذلك أن عمرت وازدهرت وصار فيها كما يقول الإدريسى الديار والقصور والمتنزهات ، وبها من رخص الفواكه والمطاعم والمشارب مالا يوجد بغيرها مثله . راجع كذلك (الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ١ ص ٣٢٠) .

على أن هنـاك رواية أخرى تشير إلى أن ملك المرية وقت أن هاجمها المرابطون كان المعتصم بن صمادح نفسه وليس ولده معز الدولة ، وأن المعتصم فى ذلك الوقت كان مريضاً يعانى سكرة الموت حتى قيل إنه حينما سمع جلبة المهاجمين قال عبارته المشهورة : « نغص علينا كل شىء حتى الموت » . ثم توفى فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م. راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٩٣ ، ابن بسام : الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ٢٤٠) .

(٢) فى نسخة دوزى : ابن حماد .

(٣) فى نسخة دوزى : ابن المنصور الناصر .

(٤) فى نسخة دوزى : من لديه .

وأنفذ الأمير سير بن أبى بكر(١) إلى إشبيلية لخلع المعتمد بن عباد ، وأمره بقتل من حاربه معه من الرعية والأجناد . وقيل إن أمير المسلمين(٢) لم يأمر بخلع المعتمد — إذ كان أقسم له أن لا يغدره ولا يخلعه — إلا بعد أن اجتمع معه فقهاء اشبيلية وقضاتها ، وأعيانها وسراتها ، وقالوا له هؤلاء الرؤساء لا تحلُّ طاعتهم ، ولا تجوز إمارتهم ، لأنهم فسَّاق(٣) فجرة ، فاخلعهم عنَّا(٤) .

(١) هو الأمير سير بن أبى بكر أحد كبار قواد يوسف بن تاشفين وقريبه بالمصاهرة . إذ يروى أن سير كان متزوجا حواء بنت تاشفين التى كان والدها تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين وابن عمه فى نفس الوقت . وذلك لأنه بعد وفاة تاشفين والد يوسف حل محله أخوه على وتزوج امرأته وانجب منها تاشفين والد حواء هذه التى تزوجها سير بن أبى بكر .

هذا ويروى صاحب روض القرطاس أن سير هذا كان فى بادىء الأمر حاكما على منطقة مكناس وفازاز سنة ٤٦٧ هـ / ١٩٧٤ م . ثم اشترك فى معركة الزلاقة وأظهر فيها شجاعة فائقة . وعندما قرر يوسف بن تاشفين عزل ملوك الطوائف ، أسند لقائده سير بن أبى بكر مهمة خلع ملوك منطقة غرب الأندلس وعينه حاكما عليها . وقام سير بتنفيذ هذه المهمة فاستولى على اشبيلية وأسر أميرها المعتمد بن عباد فى رجب سنة ٤٨٤ هـ / أغسطس ١٠٩١ م . ثم استولى على بطليوس وقتل صاحبها المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وهم الذين قال فيهم وزيرهم الشاعر أبو محمد عبد المجيد بن وهبون مرثيته المشهورة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين والأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

هذا وقد استطاع سير بن أبى بكر أن يحمى هذه الثغور الغربية من اعتداءات المسيحيين وأن ينتصر على الملك الفونسو السادس انتصاراً ساحقاً فى مكان يسمى مقاطع عندما حاول الهجوم على اشبيلية سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وفى سنة ٥٠٤ هـ / ١١١١ م ، استولى سير على شنترين ويابرة ولشبونة وأوبورتو إلى جانب بطليوس التى كانت فى يده من قبل . واستمر هذا القائد حاكما على هذه المنطقة الغربية إلى أن توفى فجأة سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م . عند خروجه فى موكب كبير من اشبيلية مع زوجه حواء وابنته فاطمة التى كان يريد تقديمها لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فى مراكش . وقد خلف سير ولده يحيي فى حكم هذه المنطقة . راجع :

Huici Miranda: *ʿAlí Ben Yusuf y sus empresas en Al-Andalus,* Tamuda, año VII, Tetuán, 1959, p. 89).

Huici Miranda: *Un fragmento de Ibn ʿIdari, sobre los Almorávides,* Hespéris, vol. II, fasc. I, 1961.

راجع كذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، نشر بروفنسال ص ١٨٦) .

(٢) فى نسخة دوزى : أمير المؤمنين .

(٣) فى نسخة دوزى : ظلمة ساقطة .

(٤) فى نسخة دوزى : وأرضا ساقطة .

فقال لهم وكيف يجوز لى ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم ! ؟ فقالوا له إن كانوا عاهدوك فهاهم قد ناقضوك ، وأرسلوا إلى الفنش أن يكونوا معه عليك ، حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود أمرهم إليه ، فبادرْهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدى الله المحاسبون ، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم ، أعادوا بقية بلاد المسلمين[1] إلى الروم ، وكنت أنت المحاسب بين يدى الله تعالى .

فعند ذلك أزمع على خلعهم أجمعين ، فنازل الأمير سير اشبيلية وحاصرها ، وخلع ابن عباد منها ، ثم خلع ابن الأفطس من بطليوس ، واستولى على ملك غرب الأندلس . وقد كان تملَّك المرية ومرسية ودانية وشاطبة على يدى قائده محمد بن عائشة ، وانصرف أمير المسلمين إلى العدوة .

وفى سنة تسعين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثالث ، ووصل إلى قرطبة فبلغه أن الفنش تحرك إليه ، فقال لست ألقاه أبداً ، فإن الهزائم مخلوقة ، وقد كان منا خطأ فى لقائه سنة الزلاقة ، ولكنى أخرج إليه قوادى بأنجاد أجنادى ، فإن قدّر الله بانهزامهم عند التقائهم ، كنت ردءاً لهم من ورائهم[2] .

فجرد عسكراً جراراً من مرابطين وعرب[3] وأندلس الشرق والغرب ،

(١) فى نسخة دوزى : الإسلام .

(٢) لم يرد مثل هذا التصريح فى المصادر العربية الأخرى ، وهو — إن صح — يدل على مدى مهارة يوسف بن تاشفين وحرصه كقائد عسكرى محنك .

(٣) يبدوا أن طائفة من عرب إفريقية جازوا إلى الأندلس فى أيام المرابطين برسم الجهاد كما نبه على ذلك الدكتور حسين مؤنس (الثغر الأعلى الأندلسى في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة المجلد الحادى عشر ديسمبر ١٩٤٩ ص ١٢٩ حاشية ٢) وذلك فى معرض التعليق على ما ورد فى رسالة ابن شرف حول فتح أقليش Uclés سنة ١١٠٨ (٥٠١ هـ) عن بلاء بعض الفرسان العرب فى تلك الموقعة ، وكذلك الدكتور محمود على مكى عند نشره لأحداث وقعة أقليش كما وردت فى كتاب نظم الجمان لابن القطان (ص ٩ ، ١٠ حاشية ١) . على أن ما ورد هنا فى النص يدل على أن اشتراك العرب فى جيوش المرابطين كان أقدم من وقعة أقليش بأكثر من عشر سنوات وذلك فى وقعة كنسويجرا Consuegra سنة ١٠٩٧

وقدّم عليهم قائده محمد بن الحاج ، فالتقوا بكنشرة[١] ، فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين ، وولوا مدبرين ، فالتحقتهم السيوف واختطفتهم الحتوف ، وآب المسلمون إلى قرطبة سالمين ظافرين غانمين ، فسرَّ بهذا الفتح أمير المسلمين ، وأخذ فى الصَّدَرِ إلى العدوة . وقد كان أنفذ جملة من جيشه إلى كنكه[٢] ، وقدم عليه محمد بن عائشة . فالتقوا مع البرهانس لعنه الله ، فانهزم أمامهم ، واستأصلوا محلته ، وانصرفوا فرحين ، بالظفر مستبشرين .

ثم نهض [أى محمد بن عائشة] إلى ناحية جزيرة شقر[٣] ، وذكر أنه يؤمها ويقصدها ويقدمها . فالتقى بجملة من جند القنبيطور ، فأوقع بهم وقتلهم

(١) فى النسخ الأخرى بلنشره وكبثوة ولعل المقصود بها بلدة كنسويجرا Consuegra من أعمال طليطلة وفى جنوبها الشرق وكانت تسمى فى القديم Consaburum . راجع : (Madoz: *Op. cit*, vol. VI, p. 569) وقد أشار صاحب الروض المعطـــار إلى قرية تسمى قنيشرة بالقرب من طليطلة . وعلى الرغم من أن ليفى بروفنسال ناشر هذا الكتاب لم يحقق هذا المكان ، إلا أنه لا يبعد أن يكون المراد به هذه البلدة . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٣٤ وفى الترجمة الفرنسية ص ١٦١) وعلى كل حال فإنه يبدو أن ابن الكردبوس هو أول من أورد هذا الإسم العربى لمدينة Consuegra . أما المصادر المسيحية فإنها أشارت بوضوح إلى هذا الانتصار الساحق الذى أحرزه المرابطون بقيادة محمد بن الحاج على ألفونسو السادس عند هذه المدينة ، وحددت تاريخه بيوم السبت ١٥ أغسطس ١٠٩٧م (٤٩٠هـ) وتضيف هذه المصادر إلى أن أحد أبناء السيد القنبيطور ويدعى Diego قد قتل فى هذه الموقعة . راجع :
(*Anales Toledanos primeros*, p. 343 & Huici: *'Alí B. Yusuf y sus empresas en Al-Andalus*, Tamuda, año VII, p. 93, Tetuán, 1959 & Ballesteros: *Hist. de España*, II, p. 310 & Aguado Bleye: *Hist. de España*, tomo I, p. 603).

(٢) كنكه وتسمى أيضاً قونكة Cuenca مدينة وولاية شرق مدريد عند أعالى نهر شقر Júcar وتشير المصادر المسيحية إلى أن هذا النصر الذى أحرزه ابن عائشة عند قونكة كان فى شبتمبر أو اكتوبر سنة ١٠٩٧م وأن الجيوش القشتالية التى حاربت فى هذه الموقعة بقيادة البرهانس Alvar Hañez كانت تؤازرها قوات أراجونية أرسلها بدرو الأول ملك أراجون للمساهمة فى هذه المعركة ولكنهم منوا جميعاً بالهزيمة أمام المرابطين . راجع : (Ballesteros, II, p. 310).

(٣) جزيرة شقر Alcira : إسم شقر أو Júcar يطلق من الناحية الجغرافية على نهر بهذا الاسم يعرف بوادى شقر Júcar وهو ينبع من المنطقة الجبلية التى فى شمال شرق مدينة كونكة ويصب فى البحر المتوسط جنوبى بلنسية . وعند مصب هذا النهر كانت توجد بين ضفتيه جزيرة سماها المسلمون جزيرة =

أشر قتلة . ولم يفلت إلا اليسير من تلك الجملة ، فلما وصل الفل إليه ، مات همًّا وغماً لا رحمه الله[١] .

وفى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة [نوفمبر ١٠٩٩ م] ، جاز الأمير يحيى بن أبى بكر[٢] بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس مجاهداً ، وصحبه الأمير سير ابن أبى بكر بجملته ، ومحمد بن الحاج ، وساروا جميعاً[٣] حتى نزلوا على طليطلة ، وحاصروها وشنوا الغارات على نواحيها . وتغلبوا على جملة من حصونها ، وسبوا سبياً كثيراً وغنموا غنما غزيراً ، وصدروا ظافرين .

وفى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، [نوفمبر ١١٠٠] جاز الأمير مزدلى[٤] فى جيش عرمرم ، وقصد بلنسية منازلا ومحاصراً لها ، فأقام عليها سبعة أشهر ،

= شقر (بضم الشين وسكون القاف أو فتحها وأحياناً الجزيرة فقط ومنها جاءت التسمية الإسبانية الحالية Alcira أى الجزيرة وهى اليوم مدينة عامرة من أعمال بلنسية . استولى عليها ملك أراجون خايمى الأول سنة ١٢٤٢م ولكن مع ذلك ظل بها عدد كبير من المسلمين إلى أن طردوا منها سنة ١٦٠٩ م وهذا سبب للمدينة خسارة كبيرة فى نشاطها الصناعى والاقتصادى . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٢٦ حاشية ٢) راجع كذلك *(Ency. of Islam*, art. Alcira by Seybold). وأيضاً (محمد ابن شريفة : أبو المطرف ابن عميرة ص ٤٣) .

(١) توفى السيد القنبيطور فى سنة ١٠٩٩م (٤٩٢ هـ) وظل جثمانه ببلنسية إلى أن انسحب عنها أتباعه قبيل سقوط المدينة فى يد المرابطين سنة ١١٠٢م (٤٩٥ هـ) ، حاملين معهم رفات سيدهم ودفنوه فى قشتالة فى دير سان بيدرو دى كاردينا على مقربة من مدينة برغش Burgos ، ثم نقل بعد ذلك إلى مدينة برغش نفسها . وتروى الأساطير الإسبانية فى هذا الصدد أن تابوت السيد القنبيطور لما فتح فى أيام الامبراطور شارل الخامس Carlos V (أو شارلكان) سنة ١٥٤١م ، انتشرت منه رائحة ذكية ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ومعها سيف ورمح ، وكانت البلاد تعانى جدباً شديداً من قلة المياه ، فما أن فتح التابوت حتى هطلت أمطار غزيرة روت جميع أرجاء قشتالة ! !
راجع : (M. Pidal: *El Poema del Cid*, p. 7).

(٢) ذكر اسم هذا الأمير فى حولية الفونسو العالم على شكل El rey Bucar . راجع :
(*Crónica General*, p. 339; Gayangos: *Op. cit.*, vol. II, app. C, p. XIII).

(٣) فى نسخة : بجملتهم .

(٤) هو الأمير أبو محمد مزدلى بن سلنكان أو نيلكان ترجوت ابن عم يوسف بن تاشفين وأحد كبار قواده . وقد جرت العادة أن يلقب أفراد الأسرة الحاكمة أيام المرابطين بالأمراء بينما سموا فى أيام الموحدين بالسادة والأسياد (جمع سيد) . وقد ظهر اسم الأمير مزدلى أول الأمر بالمغرب عندما =

فلما رأى الفنش لعنه الله ما حلّ برجاله من ألم الحصار وأهواله ، وصل بجملته الذميمة إليها ، وأخرج جميع من كان فيها من الروم لديها ، وأضرمها ناراً ، وتركها آية واعتباراً . وتملك المرابطون بتملكها جميع جزيرة الأندلس سوى سرقسطة بلد المستعين بن هود ، فإنها بقيت مدة بيده ، لانتزاحه وبعده ، واعتضاده بجيرانه الروم بما يدفع لهم من الجزية .

ثم غزا الأمير مزدلى والى بلنسية برجلونة[(١)] ، وبلغ منها إلى موضع لم يبلغ أحد إليه معها . فهدم بيعها وزلزل صوامعها[(٢)] ، وأحرق بلادها ، ومزق أجنادها ، وقتل وأسر ، وتغلب حصونها قسراً . فرجع وأيدى المسلمين قد امتلأت من غنائم المشركين ، وجلب نواقس وصلباناً وأوانى قد كللت فضة

= استولى على إقليم ملوية فى صفر سنة ٤٦٥ هـ (اكتوبر سنة ١٠٧٣ م) ثم تلمسان فى المحرم سنة ٤٦٨ هـ (أغسطس سنة ١٠٧٥ م) أما فى الأندلس فهو الذى استرجع للاسلام مدينة بلنسية فى ١٥ رجب سنة ٤٩٥ هـ (٥ مايو سنة ١١٠٢ م) من أيدى جنود السيد القنبيطور بعد وفاته . وقد تقلب مزدلى بعد ذلك فى مختلف مناصب القيادة والولاية فى الأندلس مثل ولايات غرناطة وقرطبة والمرية سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ — ١١١٢م) ، كذلك قاد حملات عديدة ضد المسيحيين الاسبان مثل حملته على برشلونه سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) وحملته على طليطلة سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) التى استولى فيها على بعض حصونها وضرب نواحيها . غير أن الأمير مزدلى لم يلبث أن استشهد فى السنة التالية فى معركة أخرى مع القشتاليين بالقرب من حصن مستنا Mastana بنواحى طليطـلة سنة ٥٠٨ هـ (فبراير سنة ١١١٥ م) وقد خلفه ولداه عبد الله ومحمد على حكم غرناطـــة وقرطبة . إلا أن محمد بن مزدلى لم يلبث أن استشهد هو الآخر بعد ثـــلاثة أشهر من وفاة أبيه وذلك عندما هاجمه القشتاليون بنواحى قرطبة فى صفر سنة ٥٠٩ هـ (يونيو سنة ١١١٥ م) .

راجع (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٥ ، ابن القطان : نظم الجمـــان ص ١٩ نشر الدكتور محمود على مكى) .

راجع كذلك : (Huici Miranda: *'Alí B. Yusuf...* p. 91-92).

(١) أى برشلونة Barcelona ، وهذا النص يعتبر من النصوص التاريخية القيمة التى لم ترد فى المصادر العربية الأخرى إذا استثنينا إشارة ابن خلدون المختصرة التى قال فيهـــا : وغزا الأمير مزدلى صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثخن بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ، ورجع ، وانتظمت بلاد الأندلس فى ملكة يوسف بن تاشفين . راجع (كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٨) .

(٢) فى نسخة ا ، ب : صمعها أو جمعها .

وعقياناً ، فأمر أن تركب(١) على تلك النواقس ثريات ، وتوقد فى جامع بلنسية(٢) ، فكانت فيه معلقة كأنها السيوف فى آذان الخرائد(٣) مشرقة(٤) .

ثم خرج على بن الحاج من قرطبة وفى صحبته ابن يحون(٥) فى عسكر ضخم غازين نحو جهة قشتالة فلقيهما الرنك(٦) لعنه الله بجموعه الغزيرة ، فأوقعوا به وقعة مبيرة ، وقرقروا الظليم بكل مكان(٧) .

ثم خرج القائد يغاله من المرابطين غازياً إلى ناحية قلعة أيوب(٨) ، فالتقى بطائفة من الروم فهزمهم هزيمة شنيعة ، واستباح محلتهم المنيعة ، وسبى وغنم ، وصدر وقد سلم .

---

(١) فى نسخة ا ، ب : أن تركب تلك النواقس .

(٢) فى نسخة المغرب جامع اشبيلية .

(٣) الخرائد جمع خريدة أو خريد وهى العذراء أو البكر التى لم تمس ، وتطلق أيضاً على اللؤلؤة التى لم تثقب .

(٤) هذه العبارة ساقطة فى نسختى جاينجوس .

(٥) كذا فى الأصل وهى ساقطة فى نسخة ا ولعلها ابن تجوت أحد قواد المرابطين فى ذلك الوقت . راجع : (Bosch Vilá: *Los Almorávides*, p. 275, nota 43).

(٦) المقصود بالرنك هنـــا هو الأمير Enrique de Borgoña الذى تزوج بنت الملك الفونسو السادس الأميرة تيريسا Doña Teresa سنة ١٠٩٥ م . وقد أهداها والدها بهذه المناسبة إمارة البرتغال التى حكمت هى وزوجها بعد ذلك ثم أنجبت منه الأمير الفونسو إنريكث Alfonso Enríquez الذى صار فيما بعد أول ملك على البرتغال وحكم من سنة ١١٢٨ إلى ١١٥٨ م . راجع :

(Jacinto Bosch Vilá: *Los Almorávides*, p. 180 (Tetuán, 1956). & Aguado Bleye: *Hist. de España*. I, pp. 604-605 & A. Ballesteros: *Hist. de España*, tomo II, p. 384).

(٧) هذه العبارة ساقطة فى ج والقرقرة نوع من الضحك العالى أو دعاء الإبل . . . الخ . والظليم : المظـلوم أو الذكر من النعام . ولعل المراد هنا هو أن المرابطين بانتصارهم هذا ، قد أضحكوا المظلوم فى كل مكان . راجع (لسان العرب لابن منظور ج ٦ ص ٣٩٩) .

(٨) قلعة أيوب Calatayud مدينة فى ولاية سرقسطة ، كان اسمها القديم لبلة Bilbiles ثم أعاد بناءها والى الأندلس التابعى العربى أيوب بن حبيب اللخمى (٩٧ هـ) فسميت باسمه . وقد اشتهرت هذه المدينة بصناعة الغضار (الفخار) المذهب الذى كان يصدر إلى جميع الجهات . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٦٣) .

وفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة[١] ، كرَّ إلى الأندلس أمير المسلمين وهى الكرة الرابعة وهى آخر مرة جاز إليها ، وانتهى إلى مرسية . وولى على بلنسية القائد أبا محمد[٢] بن فاطمة ، وعزل عنهـا الأمير مزدلى وعوضه بتلمسان ، وعزل عنها تاشفين بن يتنغمر لمعاونته الدولة الحمادية ، ومعاملته إياها معاملة دنية[٣] .

(١) سنة ٤٩٧ هـ وتقابلها سنة ١١٠٣ — ١١٠٤ م .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة وأحياناً يسمى أبو عبد الله محمد بن فاطمة ، وهو أحد مشاهير القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على . اشترك مع القائد مزدلى بن سلنكان فى استنقاذ بلنسية من أيدى المسيحيين سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، ثم اشترك بعد ذلك مع أبى الحسن على بن الحـاج قائد جيوش المرابطين فى منطقة شرق الأندلس فى مهاجمة جيوش ملك قشتالة الفونسو السادس حينما حاول هذا الأخير حصار مدينة سالم Medinaceli ، فقام القائدان معاً بغزو طليطلة وطلبيرة سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) ولقد استشهد فى هذه الغزوة القائد أبو الحسن على بن الحـاج ، فعهد يوسف بن تاشفين إلى ابن فاطمة بأن يخلف ابن الحاج فى منصبه العسكرى ، ثم لم يلبث أن ولاه فى نفس السنة على بلنسية بدلا من الأمير مزدلى الذى نقل إلى تلمسان . وعندما تولى أمير المسلمين على بن يوسف الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ ، أقر ابن فاطمة على منصبه . ومن حسن الحظ توجد فى هذا الصدد الرسالة الرسمية التى وجهها هذا السلطـان إلى أهل بلنسية معلماً إياهم باقرار ابن فاطمة على حكم هذه الجهة . راجع (محمود مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ص ١٨٢ ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٥٩ — ١٩٦٠) . وفى رمضان سنة ٥٠١ هـ (مايو سنة ١١٠٨م) اشترك ابن فاطمة بصفته عاملا على بلنسية مع القائد ابن عائشة عامل مرسية فى الغزوة التى قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة ، وهى المعروفة بوقعة أقليش Uclés التى هزم فيهـا المسيحيون وقتل قوادهم السبعة بما فيهم الأمير شانجه Sancho الابن الوحيد للملك قشتالة الفونسو السادس .

واستمر ابن فاطمة والياً على بلنسية إلى سنة ٥٠٣هـ (١١١٠م) التى عين فيها عاملا على غرناطة ، إلا أنه لم يبق فى هذه الولاية أكثر من سنة ، عين بعدها عاملا على مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٠٤ (١١١١ م) وبعد عدة سنوات عاد ابن فاطمة إلى الأندلس كعامل على اشبيلية بعد عزل واليها يحى ابن سير بن أبى بكر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥م) . ويظل على حكم هذه المدينة إلى أن مات فى رمضان سنة ٥١١ هـ (يناير ١١١٨م) راجع (هويثى ميراندا : البيان المرابطى لابن عذارى ، هيسبريس تمودا ، الجزء الثانى ، ١٩٦١ ؛ على بن يوسف وأعماله ، مجلة تطوان ١٩٥٩ ؛ وقعة أقليش ومصير الأمير دون شانجه ، مجلة تطوان سنة ١٩٥٧ م) راجع كذلك (محمود مكى : وثائق تاريخية جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ص ١٥٢ — ١٥٥) ، ابن القطـان : نظم الجمان ص ٨ حاشية ٢ لمحمود مكى أيضاً) .

(٣) هذا التفسير لأسباب عزل والى تلمسان تاشفين بن يتنغمر ، له أهمية تاريخية ، إذ أنه لا يرد فى المصادر الأخرى ، كما أنه يتعارض مع ما أورده هويثى ميراندا الذى يرى أن عزل هذا =

وفيها وافى كتاب المستعين بن هود صاحب سرقسطة على أمير المسلمين راغباً أن يوجه إليه جيشاً يحتمى به من الفنش ، إذ قد أخذ بمخنقه ، وأشفى على آخر رمقه ، فأنفذ إليه ألف فارس تخيرهم ، وقدَّم عليهم القائد أبا عبد الله بن فاطمة ، فحصل بتلك الجملة عنده ، فأورى الله بهـا زنده ، فخرج القائد بن فاطمة بجملته وأغار على بلاد الروم فغنم ، وانصرف وهو سالم .

وفيهـا لقى القائد محمد بن عائشة ، الروم بفحص اللجج[(١)] من بلاط العروس ، فظفر بهم ، واحتوى على سلبهم ، وامتلأت أيدى رجاله من نهبهم . وفيها رحل أمير المسلمين إلى غرناطة ومعه ابنه الأمير على ، فأخذ له بيعة أهل الأندلس قاطبة ، ثم رجع إلى العدوة ، وملكه قد أضحى للاندلس ، سوى سرقسطة ، جامعاً .

وفى سنة خمسمائة [١١٠٦ م] ، توفى يوسف بن تاشفين ، وقام بالأمر من بعده ابنه الأمير على ، فجهز إلى الأندلس جيشاً ، وقدَّم عليه القائدين الأخوين أبا سليمان وأبا عمران ابْنَىْ تارشتا[(٢)] ، فقصدا جهة شنتمرية والرياحين ، فشنا الغارة على جميع تلك الجنبات ، فامتلأت بالغنائم أيدى الغزاة ، وانصرفا على أحسن الحالات .

= الوالى كان نتيجة للنزاع الذى قام بينه وبين جاره الملك المنصور بن الناصر بن علناس صاحب بجاية وقلعة بنى حمـــاد ، مما اضطر يوسف بن تاشفين إلى عزل واليه على تلمسان وتعيين الأمير مزدلى بن سلنكان مكانه سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) راجع :

(Huici Miranda: *'Alí B. Yusuf*... - Tamuda, año VII, pp. 91, 113, Tetuán, 1959).

(١) راجع ما قلناه سابقاً عن فحص اللج أو اللجج .

(٢) لعلهما من أبناء الزعيم اللمتونى محمد المعروف بتارشتا أو تارشتى الذى تزعم قبائل صنهاجة اللثام فى الصحراء الكبرى ، وجاهد المشركين من أهل السودان فى الجنوب إلى أن استشهد هنالك وذلك قبيل مجىء عبد الله بن ياسين وقيام دولة المرابطين بقليل . وقد وصفه البكرى بقوله : وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشتى من أهل الفضل والدين والحج والجهاد وهلك بموضع يقال له قنقاره من بلاد السودان . راجع (البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٦٤) .

وفى سنة إحدى وخمسمائة جمع الفنش واحتفل ، وحشد أهل بلاده وقصد شرق الأندلس . وأقبـل فتصدى له الأمير تميم[١] ، فتقاتلا ، وتضاربا ، وتجاولا ، وتحاربا ، فنصر الله جيش المسلمين ، وانهزم العدو اللعين[٢] بعد أن جرح وقتل ابنه[٣] لعنه الله ، واستبيح عسكره ، وقتل وسبى أكثره ، ورجع ظافراً وقد أبلى بلاء ظاهراً .

---

(١) هو الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين ، أخو الأمير على بن يوسف ، ولى حكم غرناطة بين سنتى ٥٠٠ و ٥٠٣ هـ ثم نقل إلى حكم تلمسان بالمغرب الأوسط وعاد بعد ذلك إلى الأندلس فتولى حكم غرناطـة مرة أخرى فيما بين سنتى ٥١٥ ، ٥١٦ هـ وبعدها نقل إلى اشبيلية فحكمها سنة وبضعة شهور ، ثم أصبح عاملا على قرطبة وغرناطـة فى سنه ٥١٩ هـ ويبدو أن أخاه علياً قد عزله عن غرناطة بعد ذلك بقليل . وفى تاريخ وفاته خلاف ، والأرجح أنه توفى سنة ٥٢٠ هـ . انظر (مقال أويثى : على بن يوسف . . . ص ١٠٠ — ١١٢ ؛ ابن القطـان : نظم الجمان ص ٩ حاشية ١ نشر محمود على مكى) .

(٢) هذه الوقعة المشهورة دارت عند حصن أقليش أو أقليج Uclés بالقرب من قونكة سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ولهذا سميت باسمـه . وقد انتهت هذه الوقعة كما هو معروف ومبين فى المتن بانتصار المرابطين على جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة ومصرع ابنه الوحيد وولى عهده دون سانشو (شانجه) . راجع تفاصيل هذه الوقعة فى : (أويثى ميراندا : وقعة أقليش ومصرع الأمير شانجه ، مجـلة تطوان سنة ١٩٥٧ العدد الثانى ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ديسمبر ١٩٤٩) . انظر كذلك :
(Bosch Vilá: *Los Almorávides*, p. 180).

(٣) هو الأمير سانشو Sancho أو شانجه كما تذكره المصادر العربية ، وهو ابن الملك الفونسو السادس من زوجته زايده المسلمة التى كانت قد فرت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها المأمون بن المعتمد بن عباد على يد المرابطين عند دخولهم قرطبة ، فبنى عليها الفونسو السادس وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو هذا ، وكان سنه فى هذه الموقعة حوالى خمس عشرة سنة . ويروى صاحب روض القرطـاس أن الفونسو حينما علم أن تميم بن يوسف بن تاشفين هو قائد الجيش الإسلامى ، أشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مواجهاً لتميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين ، وشانجه ابن ملك الروم فسمع منها . (ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧١) والواقع أن هذه الرواية يبدو فيها طابع الخيـال لأن ملك قشتالة فى ذلك الوقت كان مريضاً وعاجزاً عن قيادة الجيوش بنفسه لكبر سنه كما تصرح بذلك المصادر المسيحية ، هذا فضلا عن أن ملك المرابطين فى ذلك الوقت كان الأمير على بن يوسف بن تاشفين أى أخا الأمير تميم وليس أباه .

وآب اللعين مفلولا[١] خاسراً ، فأسف على قتل ولده . وقال أنَّى عيش يطيب لى من بعده . فأقام ثلاثة شهور ، فى غير عافية ولا سرور ، ومات لعنه الله ، فحمل على أعناق الرجال إلى قشتالة ، فدفن مع آبائه ، وأراح الله المسلمين من دائه .

ولم يترك ابناً ذكراً إلا ابنته[٢] ، فأقامت بالأمر من بعده مدة ، وأحكمته عقداً وشدة ، ثم خشيت أن يطالبها أحد ملوك الروم أو الإسلام فيبهر حبها[٣] فدست إلى ابن رذمير[٤] أن يتزوجها ، فتم بينهما النكاح ، فلا فلاح ولا نجاح ، فما لبثا إلا القليل حتى وقع بينهما شر طويل ، ففافترقا على أشر حال .

---

(١) يفهم من هذا النص أن الملك الفونسو السادس قد اشترك فى وقعة أقليش مع ابنه سانشو الذى قتل فيها . والواقع أن هذا الملك كما بينا فى الحاشية السابقة لم يشترك فى هذه الوقعة لشيخوخته ومرضه ، وأرسل نيابة عنه ولده شانجه محاطاً بسبعة من كبار قواده نذكر منهم : الكونت البرهانس Alvar Hañez والكونت غرسية أوردونيث García Ordóñez والكونت رامون دى بورجونيا Ramón de Borgoña زوج دونيا أوراكا Doña Urraca بنت الفونسو السادس ، ولهذا عرفت هذه الوقعة باسم أقليش أو الأقماط السبعة Los Siete Condes . وقد حدثت كما قلنا فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . راجع المصادر السالفة الذكر فى حاشية ٢ من الصفحة السابقة .

(٢) لم يعش الفونسو طويلا بعد مقتل وحيده دون سانشو فى وقعة أقليش سنة ١١٠٨ م إذ لم يلبث هو الآخر أن مات فى السنة التالية سنة ١١٠٩ م تاركاً بنات كثيرات . وابنته المقصودة هنا فى المتن هى ابنته الشرعية الكبرى دونيا أوراكا Doña Urraca التى خلفته فى حكم قشتالة وليون وغاليسيا واستمرت فى الحكم إلى أن توفيت سنة ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) وخلفها فى الحكم ابنها الفونسو السابع الذى كان صغير السن فسمته المراجع العربية بالسليطين أو السليطن (تصغير سلطان) وقد ظل يحكم حتى وفاته سنة ١١٣٧ م (٥٣١ هـ) .

(٣) هذه الكلمة غير واضحة وقد تقرأ أيضاً فيحرجها .

(٤) المقصود هنا Alfonso Sánchez المعروف باسم الفونسو الأول المحارب Alfonso I, el Batallador ملك أراجون ونافارا . وقد حكم من سنة ١١٠٤ إلى سنة ١١٣٤م (٤٩٩ - ٥٢٩ هـ) وتسميته هنا بابن ردمير ترجع إلى اسم والده Sancho Ramírez سانشو راميرث . ولقد تزوج الفونسو المحارب دونيا أوراكا ملكة قشتالة وليون وغاليسيا فى سبتمبر سنة ١١٠٩ م . ومن المعروف أن أوراكا هذه كانت قد تزوجت قبل ذلك بمدة طويلة بالأمير رايموندو دى بورجونيا El Conde Raimundo de Borgoña وأنجبت منه الأمير الفونسو رايموند الذى سوف يخلفها فى الحكم باسم الفونسو السابع المعروف بالسليطين أو السليطن غير أن وفاة زوجها السالف الذكر سنة ١١٠٧ م قد أتاح لها فرصة الزواج ثانية من ملك أراجون الفونسو المحارب . وكان الغرض من هذا الزواج الجديد هو =

وأخذ ابن ردمير فى الترحال وحشد أهل بلاده ، وحشدت ، وأقبل نحوها ونهضت إليه وما ترددت ، فتواقعا[١] مدة ، والحرب بينهما مشتدة ، إلى أن مكّنها[٢] الله منه فهزمته هزيمة لم يكن له فيها كَرَّة ، افتقد فيها من صناديد رجاله نيفاً من ثلاثة آلاف ، وتزوجت بعده قِمْطاً[٣] من الأقامطة فرزقت منه السُلَيْطين[٤] فَمَلَّكه الروم ، إنما ورثه عن أمه لا عن أبيه ، لأن أباه لم يكن من نسل الملوك فينافس فيه .

وفى سنة ثلاث وخمسمائة عبر البحر[٥] الأمير على بن يوسف إلى الأندلس قاصداً الغزو ، فنزل الجزيرة بجيوش غزيرة ، فقصد[٦] نحو طليطلة ونزل على

== توحيد الممالك المسيحية الإسبانية الشمالية فى مملكة واحدة وقد تلقب كل من الفونسو المحـارب وأوراكا عقب هذا الزواج بلقب الامبراطور والامبراطورة على جميع اسبانيا . غير أن هذا الزواج لم يعمر طويلا ، إذ سرعان ما دب الشقاق بين الزوجين وقامت بينهما حروب أهلية مستمرة وانتهى الأمر بانفصالهما حوالى سنه ١١١٤ م . وقد أتاح هذا الانفصال الفرصة لولدها الفونسو السابع (السليطين) كى يرث بعدها عرش قشتالة وليون سنة ١١٢٦ م ملقباً نفسه هو الآخر بالامبراطور . راجع :

(Antonio Ballesteros: *Hist. de España*, II, pp. 338, 447 & Aguado Bleye: *Hist. de España*, I, pp. 618, 622).

(١) فى نسخة ا فتوافقا ب فتواقفا .

(٢) فى ا ، ب : أمكنها .

(٣) هذا ما يؤيد ما ترويه المصادر المسيحية من أن هذه الملكة أوراكا Urraca بعد انفصالها من زوجها ملك أراجون ، اتخـذت عشيقاً أو زوجاً وهو القمط أو الكونت بدرو جونثالث دى لارا el Conde Pedro González de Lara . غير أن هذه المصادر المسيحية تختلف عن المتن هنا حول ابنها السليطين أو الفونسو السابع فهى تنص على أنها لم تنجبه من هذا الأمير السابق وإنما أنجبته من زوجها الأول الكونت ريمـوندو دى بورجونيا el Conde Raimundo de Borgoña الذى مات وعمر ابنه السليطين هذا ثلاث سنوات . هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن الملكة أوراكا قد أنجبت أيضاً من عشيقها السالف الذكر بدرو جونثالث دى لارا أبناء آخرين مثل فرناندو والبيرة . راجع :

(*Diccionario de Historia de España*, tomo II, p. 806, 1341).

(٤) فى نسخة أخرى السليطن .

(٥) فى نسخة ا جاز الأمير .

(٦) فى نسخة أخرى فعمد .

بابها . وحاز المُنْيَةَ[1] المشهورة التي بهـا ، وتغلب على جملة من حصونها . وانتشرت جيوشه على تلك الأقطار ، فلاذ المشركون بالفرار إلى المعاقل الرفيعة ، والحصون المنيعة ، وداخل أهل قشتالة الخوف والجزع وخامر قلوبهم الفزع ، ولم يشكُّوا أنه يغشاهم ويخرب مثواهم ، فكرَّ من هنالك إلى العدوة راجعاً ، وإلى مقر ملكه مسارعاً .

وفيها قصد الرنك[2] ، وابن ردمير[3] لعنهما الله ، المستعين بن هود[4] في جيوش لا تحصى كـثرة[5] ، فبرز إليهما والعدو[6] قد غرَّه ، فقُتل رحمه الله شهيداً بقامره[7] . وحاصر ابن ردمـير البلد (يقصد سرقسطة)

---

(١) المنية (بضم الميم وسكون النون وفتح الياء) وجمعها منى (بضم الميم وتنوين النون بالفتح) ومعناها الحدائق الواسعة (Dozy: *Supplement*, II, p. 620). ولقد كانت منية طليطلة مشهورة فعلا كما هو مذكور في المتن . وقد وصفها ابن بسام في ذخيرته بقوله : « ونزل الطاغية أذفونش المنية المسورة التي كان المأمون بن ذي النون يحشد إليها كل حسن ، ويباهي بها جنة عدن ، ويقلب الجور ؟ في جيد بنيانها ، والاشادة بشأنها ، ظهراً لبطن ، فاتخذ عروشها مرابطاً لأفراسه ، وايواتها ملاعب لأراذلته وأرجاسه » . راجع : (ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٢٨) .

(٢) يقصد أمير البرتغال في ذلك الوقت انريكي دي بورجونيا Enrique de Borgoña .

(٣) هو الفونسو الأول المعروف بالمحارب ابن سانشو راميرث .

(٤) حدد ابن عذاري تاريخ هذه الوقعة بقوله : وولي ملك سرقسطة المستعين (الثاني) ابن هود ، المقتول في ملحمة يوم الاثنين مستهـل رجب من السنة ثلاث وخمسمائة (٥٠٣ هـ) . وهذا التاريخ يتفق مع ما أورده أيضاً ابن الأبار في حلته ومع ما ورد هنا في المتن ، كما يتفق مع ما ورد في المصادر المسيحية التي جعلته في ٢٤ يناير سنة ١١١٠ م .

راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٨) راجع كذلك :

(Huici Miranda: *Un fragmento inédito de Ibn 'Idari, sobre los Almorávides*, Hespéris-Tamuda, vol. II, fasc. I. 1961, p. 72 & Ballesteros: *Hist. de España*, II, p. 451).

(٥) في نسخة لا يحصى لها عدد .

(٦) في نسخة والغدر .

(٧) قامرة ساقطة في ا ، ب ، ويلاحظ أن المصادر المسيحية قد حددت مكان هذه المعركة عند بلدة بلتيرة Valtierra وهي الآن مركز قضائي لمدينة تطيلة Tudela وتقع على ضفاف نهر الابرو شمالي تطيلة وشمال غرب سرقسطة (Madoz: *Diccionario Geográfico de España*, tomo XVI, p. 624) وقد يؤيد هذا التحديد ما أورده ابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ١٧٤) وابن عذاري (المرجع =

شهوراً[١] وأذاق أهله وَيْلاً وثبوراً ، إلى أن صالحه أهلها على أن يسلِّموا البلد إليه ، ويجعلوه فى يديه ، فمن أَحَبَّ منهم الإقامة على أداء الجزية خاصة أقام ، ومن أحب أن يرحل بما عنده إلى حيث شاء من البلاد فله الأمان التام ، إلى أن يصل إلى بلاد الإسلام ، وعلى أن يسكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمالكه إليه ، ولا اعتراض له عليه . فوقع على ذلك الاتفاق ، وانعقدت فيه بينهم عقود بالعهد الوكيد والميثاق ، وأسلموا إليه البلد[٢] ، فياله من مصاب قطع الأكباد وأذهب الجَلَد .

= السابق ص ٧١) وابن الأبار (الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٨) من أن المستعين بن هود هاجم مدينة تطيلة وأرباضها ثم فاجأه العدو هناك ودارت بين الفريقين معركة دامية انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد المستعين بن هود سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) . أما اسم قامرة الذى ورد هنا فى المتن كمكان لهذه الوقعة فإنه للاسف لم يرد فى المصادر العربية أو المسيحية على السواء . وكلمة قامرة أو جمعها قوامير ، وبالاسبانية Camara أطلقت فى الأصل على مخازن المحصولات الزراعية وعلى التربة الخصبة المنتجة (Simonet: *Glosario de Voces Ibéricas*, pp. 79-80). ومثال ذلك قول ابن الخطيب فى وصف مالقة « وهى قامرة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال . (مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى المغرب والأندلس ص ٦٠) ولقد أطلق هذا الاسم على عدة أماكن فى مختلف أنحاء اسبانيا ولا يزال بعضها موجوداً حتى اليوم تحت اسم Camara فى شمال مالقة وقرطبة وألقنت Alicante ولاردة . . . الخ . راجع (Madoz: *Op. cit.*, II, p. 325). وغير بعيد بالمرة أن يكون هذا الاسم قد أطلق كذلك على بعض نواحى بلتيرة Valtierra التى دارت عندها المعركة .

(١) فى ا ، ب : شهراً .

(٢) سقطت سرقسطة صلحاً فى يد ملك أراجون الفونسو الأول المحارب (ابن ردمير فى المصادر العربية) فى ٤ رمضان سنة ٥١٢ هـ (١٩ ديسمبر سنة ١١١٨ م) وذلك بعد حصار طويل دام تسعة أشهر ومنذ ذلك الوقت صارت قاعدة لدولة أراجون وتقع سرقسطة فى شمال شرق اسبانيا على وادى نهر الابرو على ارتفاع ١٨٤ متراً . وكانت على أيام المسلمين قاعدة للثغر الأعلى وعرفت بعروس الابرو كما سميت كذلك بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها أو لأن أسوارها القديمة كانت من حجر الرخام الأبيض . والاسم الايبيرى القديم لسرقسطة هو سلدوبا Salduba وعندما احتل الرومان اسبانيا أسس الامبراطور الرومانى أغسطس مستعمرة حربية فى هذا المكان سماها باسمه Caesarea Augusta ثم تحور الاسم على أيام القوط إلى Cesaragusta ثم صار على أيام العرب سرقسطة ومن هذا الاسم الأخير صارت التسمية الاسبانية الحديثة Zaragoza الذى يطلق على المدينة والولاية . ومن أشهر الآثار =

فلما استقرت به — لعنه الله — الدار ، أخذ أكثر المسلمين فى الرحيل والفرار ، فبلغ عددهم نحواً من خمسين ألف نسمة ما بين صغير وكبير ونساء وذكور . فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، ركب بنفسه مع من استصحبه واحتمله ، فوقف عليهم وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم من القليل والكثير ، فرأى أموالا لا تحصى كثرة ، ولا كان راجياً أن يرى جزءاً منها دهره . فقال لهم : « لو لم أقف على ما عندكم من هذه الأموال ، لقُلتم لو رأى بعضها لم يسمح لنا بالترحال ، فسيروا الآن حيث شئتم فى أمان » . ووجه معهم من رجاله ، مَن يشيعهم إلى آخر أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى غير مثقال ، على الرجال والنساء والأطفال . فتملكها — لعنه الله — من ذلك التاريخ إلى هَلُم (١) .

وعندما دخلها — لعنه الله — فرَّ عماد الدولة بن المستعين بن هود (٢) إلى روطة (٣) ، وهو معقل على مقربة من سرقسطة ، مساو لأعنان السماء ، وفى غاية من المنعة والارتقاء ، كان المستعين بن هود قد أعده وبناه ، وبالأقوات

= الاسلامية الموجودة حتى اليوم فى هذه المدينة قصر الجعفرية la Jaferilla الذى كان مقراً لبنى هود ملوك سرقسطة .

راجع وصف هذه المدينة فى (الحميرى : الروض المعطار ص ٩٦ وما بعدها ، والترجمة الفرنسية ص ١١٨) . راجع كذلك : *(Ency. of Islam,* art. Saragosse, por Lévi-Provençal).

(١) هذا النص — إن صحت روايته — يعطينا معلومات جديدة عن أحداث سقوط هذه القاعدة الاسلامية الهامة فى يد ملك أراجون الفونسو المحارب .

(٢) هو عماد الدولة أبو مروان عبد الملك بن أحمد المستعين بن المؤتمن بن أحمد المقتدر بن سليمان المستعين بالله ابن هود الجذامى ، حكم سنة ٥٠٣ ﻫ وتوفى بروطه سنة ٥٢٤ ﻫ .
راجع (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩) .

(٣) روطة Rueda (بضم الراء وفتح الطاء) حصن حصين من أعمال سرقسطة ، وأحد معاقلها المنيعة فى منطقة الثغر الأعلى ، ويعرف بروطة نهر الخالون أو شلون Rueda de Jalón أحد فروع نهر الإبرو . ويسميها ابن الأبار روطة اليهود (الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٦) وقد سقطت فى يد الفونسو المحارب سنة ٥١٢ ﻫ (١١١٨ م) وهى اليوم تابعة لمديرية وشقة Huesca . انظر تعليق د. حسين مؤنس ، الحلة السيراء ، ج ٢/٢٤٦

والسلاح قد شحنه ، وحفر فيه إلى الوادى سرباً أتقنه ، أدراجه تنيف على الأربعمائة دَرَج ، فما يُقطع له شُرب ولا منهج . فأقام فيه أعواماً ممتنعاً على المشركين إلى أن توفى رحمه الله .

وقام بالأمر من بعده ابنه أحمد وتسمى بالمستنصر[١] ، فراسله طاغية الأنبوطر[٢] الملقب بالسليطن[٣] وقال له : « ارحل[٤] عن روطة . وأعوضك عنها بقشتالة[٥] ما هو أحسن وأفيد ، وتقرب من غرب بلاد الأندلس ، وأخرج معك بنفسى وأجنادى وأبطالى ، وأطوف[٦] معك على تلك البلاد ، وتدعوهم إلى طاعتك ، فمن أجابك ودخل فى جماعتك ، تركت عنده ثقاتك ، واستعملت عليه ولاتك ، وأمنتُه أنا من غارات الروم ، وكنت لهم كالأب المشفق الرحيم . فأرجوا أن لا يتوقف عن إجابتك أحد ، إذ قد أذاقهم المرابطون العذاب الأشد ، فكرههم الجميع ، وبودهم أن يضحى مَلِكهم وهو صريع . ولو ظفرت بك أيديهم ، ما أبقوا منهم بشراً فى ناديهم ، إذ لم يبق لهم من أبناء الأملاك[٧] ، أحد سواك » . فرسخ هذا الكلام فى رأسه ،

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك سيف الدولة المستنصر بالله ويلقب أيضاً بالمستعين بالله وهو آخر ملوك بنى هود . (ابن الأبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٩) .

(٢) فى نسخة أخرى الابراطور وهو يعنى لقب الامبراطور Emperador ومعناه سلطان السلاطين على حد قول ابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ٣٣٠) .

(٣) من المعروف أن الفونسو السابع المعروف بالسليطن قد اتخذ لقب الامبراطور Emperador فى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) وهو اللقب الذى اتخذه جده الفونسو السادس وكل ملوك مملكة ليون من قبل . راجع : (M. Pidal: *España del Cid,* I, p. 68). على أنه يلاحظ هنا فى المتن أن ابن الكردبوس يعتبر المؤرخ العربى الوحيد الذى أشار بوضوح إلى أن الملك الفونسو السابع قد اتخذ هذا اللقب .

(٤) فى نسختى ا ، ب : تخل لى عن .

(٥) فى نسخة ب : قشتيلة ، وتعنى أيضاً قشتاله وهما تحريف للكلمة الإسبانية كاستيليا Castilla وهى فى الأصل منطقة القلاع التى كانت تحيط بمملكة ليون لحمايتها من غارات جيرانها ولا سيما المسلمين .

(٦) فى ا ، ب : وأتطوف .

(٧) فى ا ، ب : الملوك .

وتمكن من نفسه ، وتخلى له عن معقل ، ما أبصر مثله من يعقل ، وأمر له بقشتالة من قرى ومزارع ، وأرضين ذات مراجع ، ثم خرج معه إلى غرب بلاد الإسلام(١) ، فى جيوش لا ترام ، فما قصد موضعاً ، إلا ألفاه متقلعاً ممتنعاً ، ولا أطاعه بشر ، ولا انبسط له من قرية من القرى أحد ولا انتشر ، لأنهم تخوفوا إن أطاعوه(٢) ، أن يغلبه العدو ويتملكهم(٣) أو يقتلهم ويهلكهم ، وكانوا جميعاً حريصين عليه ، ما يليق بنفوسهم إليه(٤) . فرجع أخسر صفقة من أبى غُبشان(٥) ، حين قاد إلى بيت الله الحرام(٦) الحبشان وكان كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »(٧) .

وفى سنة سبع وخمسمائة [١١١٣ م] غزا الأميران سير بن أبى بكر ، ومزدلى ، طليطلة ، وشنَّا على جميع تلك الجهات السرايا والغارات ، فهدموا ودمدموا ، وحرقوا ، ومزقوا ، كلَّ من لقوا(٨) . فتعرض لهم البرهانس لعنه الله فى عشرة آلاف دارع ، فهزماه وأثخناه ، وقتلا من جماعته سبعمائة فارس(٩) .

---

(١) فى ا ، ب : الأندلس .

(٢) فى ا ، ب : طاعوا له .

(٣) فى ا ، ب : ويملكهم .

(٤) فى ا ، ب : بنفوسهم لولا ذلك .

(٥) فى ا ، ب : هذه العبارة ساقطة ، وأبو غبشان (بفتح الغين أو ضمها وسكون الباء وفتح الشين) هو المحترش بن حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى ، ويضرب به المثل فى الحمق والندامة وخسارة الصفقة . راجع خبره فى (الميدانى مجمع الأمثال جـ ١ ص ٢١٦ ؛ الزبيدى : تاج العروس جـ ٤ ص ٣٢٩) .

(٦) لعل سياق السجع قد أوقع الكاتب فى هذا الخطأ التاريخى ، إذ أنه من المعروف أن الدليل الذى رافق أصحاب الفيل بقيادة أبرهه الحبشى إلى مكة لتخريب الكعبه ، رجل من ثقيف يدعى بأبى رغال ، وقد هلك فى الطريق بموضع يقال له المغمس بالقرب من مكة . وقد جرت عادة الحجاج بعد ذلك إلى اليوم أن يرجموا قبره عند المرور به . راجع (المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٧) .

(٧) سورة البقرة آية ١٦ ، وهى ساقطة فى ا ، ب .

(٨) ساقطة فى ا ، ب : ومزقوا كل من لقوا .

(٩) كان البرهانس Alvar Hañez فى ذلك الوقت حاكما على مدينة طليطلة من قبل الملكة أوراكا Urraca صاحبة قشتالة وليون . راجع : *(Dicc. de Hist. de España,* tomo I, p. 171).

وفيها وقعت بين أهل قشتالة وبين ابن ردمير ، حروب كثيرة دمرت الفريقين أى تدمير ، وانجلت عن البرهانس — لعنه الله — قتيلا عقيراً ، أصلى الله روحه سعيراً[١] .

وفى سنة ثمان وخمسمائة [١١١٤ م] ، اجتمع أهل بيشة[٢] وجنوة ، وعمّروا ثلاثمائة مركب ، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة ، فغلبوها وسبوها وانتهبوها[٣] ، ثم انتقلوا إلى جزيرة ميورقة ، وكان واليها قبل حلول العدو بنواحيها ، المرتضى[٤] من أهل الأندلس ، ثار فيها عند انقطاع دولة بنى أمية بالأندلس حين ثار سواه ، ثم توفى وقام بالأمر من بعده خصى من خصيانه اسمه مبشر[٥] فتلقب بناصر الدولة ، وكان أصله من قلعة الحِمير[٦] من نظر

---

(١) المقصود هنا الحرب الأهلية التى دارت بين الفونسو المحارب ملك أراجون ، والملكة أوراكا ملكة قشتالة وليون . وقد قتل خلالها القائد البرهانس Alvar Hañez حاكم طليطلة على يد أهل مدينة شقوبية Segovia الذين أخذوا جانب ملك أراغون . وسنة الوفاة هنـــا تتفق مع ما ورد فى المصادر المسيحية وهى سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٤ م .

(٢) بيشه أو بيزا Pisa إحدى المدن الايطـالية وبهـا البرج المائل الذى يعتبر من عجائب الدنيا .

(٣) كان ذلك فى أغسطس سنة ١١١٥ م (٥٠٨ هـ) .

(٤) هو الأمير عبد الله المرتضى ، وكان فى بادىء الأمر واليـاً على جزر البليار من قبل الأمير إقبال الدولة على بن مجاهد الصقلبى العامرى أمير دانيه . وعندما استولى أمير سرقسطة المقتدر بن هود على دانية وسجن أميرها وزوج ابنته على بن مجاهد ، أعلن المرتضى استقلاله بحكم جزر البليار . راجع :
(Álvaro Campaner y Fuertes: *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las Islas Baleares*, p. 91).

(٥) عن مبشر بن سليمان ناصر الدولة راجع :
(Prieto Vives: *Los Reyes de Taifas*, p. 41. & Álvaro Campaner: *Op. cit.*, p. 91).
راجع كذلك (ابن سعيد : المغرب جـ ٢ ص ٤٦٦ ؛ ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٦٥ ، محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمـــدريد ١٩٥٩ — ١٩٦٠) .

(٦) كذا ، وفى ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ١٦٥) : قلعة حمير من أعمال لاردة . وقد قرأها البعض حمير Himyar (بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء) انظر :
(Álvaro Campaner: *Op. cit.*, p. 91 & Gayangos: *Op. cit.*, vol. II, app. C, p. XlVIII).
وأغلب الظن أنها بفتح الحاء وكسر الميم ، ومكانها الآن البلدة المسماة Castelldasens ومعناها باللغة القطلانية قلعة الحمير . وهي مركز قضائى فى مقاطعة لاردة وتقع فى سهل مرتفع محـــاط ببعض التلال الصغيرة . وكانت هذه المنطقة تحتوى فى القديم على قلعة عربية حصينة لم يبق منها الآن إلا أطلال =

لارده ، فسباه العدو صغيراً وخصاه ، فوجه المرتضى رسولا إلى الروم[١] فى بعض مآربه ، فاستحسن الرسول عقل الفتى مبشر ونبل ذاته ففداه ، وقَدِم به على المرتضى فسر به وقربه وأدناه ، فوجد عنده من حسن خدمة الملوك ما تمناه . وكان سامى الهمم ، حميد الشيم ، كثير الفضائل والكرم . فلما نازله العدو ، ذبَّ عن حماه ، ولم يُحمد رأيه فى مقارعته إياه ، إلى أن مات رحمه الله . فقام بالأمر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون[٢] ، فحمى جهده حتى غلب عليه وتملك العدو البلد[٣] .

وفى خلال ذلك الحصار ، كان ناصر الدولة (أى مبشر الخصى) كتب إلى أمير المسلمين يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله ابن ميمون ، وكان إذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه . فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب[٤] معمراً ليلا من دار الصناعة عليه ، فانطلق فى الحين يقفو أثره ، وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره ، فلما قطع يأسه فى الظفر به ، رجع خاسئاً على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين ، فأمر فى الحين ، بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلقى بعد شهر دفعة . فامتثل أمره فى ذلك ، واندفعت بجملتها من هنالك ، وإذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المسلمين .

= قليلة مبعثرة . وكانت هذه القلعة فى ذلك الوقت تخضع لنفوذ بنى هود ملوك لاردة وسرقسطة وغيرها من مدن الثغر الأعلى . وظلت هذه القلعة فى أيديهم إلى أن استولى عليها حاكم برشلونة الكونت برنجر الثالث Ramón Berenguer III سنة ١١٢٠ م . راجع :
(Madoz: *Dicc. Geogr.*, tomo VI, pp. 102-103).

(١) لعله يقصد بالروم هنا أمير برشلونه .

(٢) ابن لبون ساقطة فى ا ، ب . وتسميه المصادر المسيحية Burabé وهو تحريف للفظ أبو الربيع . راجع (Álvaro Campaner y Fuertes: *Op. cit.*, p. 110).

(٣) سقطت ميورقة فى ٧ ذى القعدة سنة ٥٠٨ هـ (٣ أبريل سنة ١١١٥ م) وقد أحدث العدو فيها خراباً يجل عن الوصف .

(٤) غراب والجمع أغربة ، سفينة شراعية صغيرة من طبقة واحدة وذات صار أو صاريين وتستخدم عادة فى الأغراض العاجلة لسرعتها . وقد انتقلت إلى الأوربية باسم Corvette أو Corvetta راجع :
(Dozy: *Supplement aux Dicc. Arabes*, tome II, p. 205) & (Ali M. Fahmy: *Muslim Sea-Power in the castern Mediterranean* p. 132-133).

فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة[١] ، وعينهُ بما احتمل من السبى والأموال قريرة . فلما وصل الأسطول ، وجد المدينة خاوية على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة . فعمرها قائد الأسطول ابن تاقرطاس[٢] ، بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب إليها من كان فر عنها إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها . وانصرف الأسطول إلى مكانه ، وعاد إلى موضع مقره واستيطانه .

وفى انصراف العدو إلى أوطانه ، هبت عليه ريح ببحار طامية ، فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دانية . فعمر إليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت أمامه ، وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث[٣] .

ولما كثر بالغرب فساد الملثمين[٤] ، وانحيازهم عن الدين ، وانطمست[٥] آثاره ، واندرست[٦] أخباره ، وعفا رسمه ، واستخفى المعروف بشخصه ، وسما[٧] المنكر بنفسه ، وأناخ الجور بكلكله ، وضرب الباطل بجرانه ، ولم يراقبوا الله فى عباده كثيراً ولا قليلا ، وصاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، إلى أن جاء الله تعالى بالإمام المعصوم المهدى رحمه الله ، فأوضح من الدين معالمه ، وجدَّد منه مراسمه ، وأظهر آياته ، وأشهر بيناته ، حتى عاد كما كان جديداً دون عدد ولا عُدد ، ولا كثرة ولا مدد ، بل قام فيه محتسباً وحيداً خلوا من المال والرجال فريداً . فما زال يركض فى نحى الحق واليقين ، ويجرى على

(١) كان ذلك فى سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ — ١١١٦ م) . راجع (ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٥ ، ج ٦ ص ٢٤٢) .
(٢) فى م : تافرطاس .
(٣) عكسها هنا يعنى صيرها مراكب إسلامية .
(٤) فى م : المفسدين .
(٥) فى م : وطمست .
(٦) فى م ودرست .
(٧) فى م : وهما .

سنن الصحابة والتابعين ، ويأمر بالمعروف الناس أجمعين ، وينهى عن المنكر فى كل حين ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يخشى صولة قاعد ولا قائم ، حتى أعاد الله كلمته على رغم المجسمين .

فقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن على[١] ، فأعز الله بقيامه الدين ، وأذل به الكافرين وكانت بينه وبين الملثمين وقائع مشهورة ، وفى الإسلام إلى غاية الدهر مذكورة ، طحنهم فيها أى طحين ، وأباد خضراءهم أجمعين ، واستأصل شأفتهم ، واستباح بيضتهم ، واجتاح ملكهم ، وعجل الله تعالى هلكهم ، وفتح الله له البلاد ، وأدان له العباد ، فملك بلاد الأندلس والمغرب كله ، الأقصى منه والأدنى ، وإفريقية كلها إلى طرابلس . وعمل بالحق فى إصداره وإيراده ، وعدل بين عباد الله فى بلاده .

ثم قام بعده ابنه أبو يعقوب[٢] ، فجرى على سننه القويم ، وسلك سبيله المستقيم ، فأوضح من الدين منهاجه ، وأقام منه اعوجاجه ، وأصبح به الشمل ملتئماً ، والأمر منتظماً ، والصلاح متسقاً ، والباطـل محدوداً ، ورواق الأمر ممدوداً . فحقنت به الدماء ، وسكنت معه الدهماء ، وانقمعت له الأعداء ، واتفقت ببركته الآراء ، وصلحت عليه الأمور ، واتصلت به الجمهور .

ثم قام من بعده ابنه أبو يوسف[٣] ، فقام بالحق أكمل قيام ، وأحكمه أحسن إحكام ، وأتقنه وأبرمه أى إبرام . ولم يزل الله تعالى يمنحه فى عدو مباين ، ومضاد مشاحن ، ومناوىء مكابر ، وحسود مجاهر من جميل الصنع ، وكفاية المهم والدفع وإظهار الحجة وإعلاء الكلمة ما يزيد به نعمة الله عليه تماماً ، وأياديه لديه انتظاماً والتئاماً . وله الفتوحات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، دوخ بلاد الشرك وخرب قصورها ، واستباح معاقلها ، وأظلم ديجورها ، وبدل صوت

---

(١) هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على الكومى . (٥٢٤ — ٥٥٨هـ = ١١٣٠ — ١١٦٣م).

(٢) هو الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ = ١١٦٣ — ١١٨٤ م).

(٣) هو الخليفة أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ — ١١٩٩م).

النواقيس فيها بالآذان ، وأزال القول بالتثليث عنها وما سواه من عبادة الأوثان بإخلاص الكلمة لله الواحد الرحمن ، فأصبح الدين متصلا ، وعموده معتدلا ، وبراهينهم وفتوحاتهم أعظم من أن تحصى أو تحصر فى كتاب ، بل يضيق عنها كل خطاب ، ولا يبلغ التعبير عن كنهها بإطالة ولا إسهاب . بل هو أمر الله تعالى الذى لا دفع فيه للدافع ، ولا حيلة فيه لزايغ أو ممانع ، لا يضره من خذله مع تطاول الأعوام ، وتقادم الأعصار وتناوب الأيام ، وتعاقب الأدوار . بشرى من الرسول عليه السلام صادقة ، وأحاديث جاءت منه موثقة رائقة . روى مسلم بإسناده إلى نافع بن عتبة قال : « كنا مع رسول الله (صلعم) فى غزوة ، فأتى النبى (صلعم) قوم من قبل المغرب[1] ، عليهم ثياب الصوف ، فواقفوه عند أكمة وذكر الحديث ، وقال فيه ، قال فحفظت عنه أربع كلمات أعدهن فى يدى ، قال تغزون جزيرة العرب ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الدَّجال ففتحه الله[2] (كذا) .

كملت دولة بنى أمية وما أضيف إليها من أخبار الأندلس والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم

(بقية البحث فى المجلد القادم)

---

(١) هذه العبارة تدل على أسبقية المغاربة فى دخول الإسلام ، وتوجد فى هذا الصدد قصة شائعة على ألسنة الناس فحواها أن سبعة من صلحاء قبيلة رجراجة (بنواحى الصويرة وحاحه فى جنوب غرب المغرب الأقصى) ، وفدوا على رسول الله (صلعم) ، وأسلموا على يديه ، وخاطبوه بلغتهم البربرية ، فأجابهم بها . وهذه القصة قد يبدو فيها الطابع القصصى ، ولكن الغريب فيها هو ظهورها فى أرض رجراجة حيث كان الكفاح مستمراً مع أهل برغواطة المارقين الذين كانو يقيمون بجوارهم فى تامسنا ، والذين كانوا يعتقدون أن نبيهم صالح بن طريف مبعوث إليهم بلسانهم ، وأن محمداً (صلعم) عربى اللسان مبعوث إلى قومه العرب ! . فهل كان هؤلاء الرجراجيون المجاهدون ، يريدون من وراء هذه القصة ، الرد على برغواطة بأن الرسول مبعوث إلى كافة المسلمين على اختلاف أجناسهم بدليل أنه خاطبهم بلسانهم ! ؟

(٢) هذه العبارة وردت مضطربة فى الأصل ، وتقرأ فى بعض النسخ : ثم تغزون الرجال فيفتحها الله .

اكتشاف السِّفر الخامس
مِنَ المقتبس لابن حيّان

كنت وما زلت أعتقد أن كثيراً من نفائس المخطوطات الأندلسية التى نفتقدها والتى يظن أنها دثرت وبادت ، ما يزال دفيناً بالمغرب ، هنا وهناك ، فى بعض المجموعات الخاصة ، أو الزوايا القديمة أو غيرها ، وقد أيدت بحوث الأعوام الأخيرة هذا الظن ، فتم العثور على بعض الآثار الأندلسية الهامة ، التى لم يكن يتوقع البحث وجودها ، والتى زودتنا بمواد ووثائق جديدة عن تاريخ الأندلس وأحوالها .

وقد أتيح لى منذ عامين ، أثناء وجودى بالمغرب ، أن أطلع على تحفة أندلسية جديدة ، من أنفس ما عثر عليه البحث حتى اليوم ، وهى عبارة عن قطعة كبيرة ، بل مجلد ضخم ، من كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » لمؤرخ الأندلس العبقرى الناقد أبى مروان بن حيان ، وقد اكتشفت هذه الذخيرة النادرة ، من تراث الأندلس ، بين « مهملات » الخزانة الملكية ، بقصر الرباط الملكى العامر ، وسهل لى مشكوراً ، سبيـل الاطلاع عليها ، ودراستها خلال بضعة أيام متوالية ، العلامة الجليـل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور « مؤرخ الدولة المغربية » .

ولقد كنا نغتبط أشد الاغتباط كلما عثر البحث بقطعة صغيرة ، بل بأوراق متناثرة من تاريخ ابن حيان ، ولكنى فى هذه المرة وقفت ذاهلا ، أمام مجلد ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة ، تضم ٣٧٠ صفحة ، فى كل صفحة منها ٢٣ سطراً ، وفى كل سطر نحو ١٤ كلمة .

ولا يحمل المخطوط عنوانا ، لأنه ناقص من أوله ، ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى ، وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من « المقتبس » . على أننا عثرنا إلى جانب ذلك ، فيما قرأناه فيه من حوادث سنة ٣٢٧ هـ. عن موقعة الخندق بنص يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، وهو قوله ، خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدِّنا حيان ، الأمثل طريقة ، أبا سعد مروان بن محمد ابن حيان رحمه الله » .

والمخطوط قديم ، وبه خروم كثيرة ، وأطرافه متآكله ، تكاد تتساقط حوافيها[1] ، وهو مكتوب بخط أندلسى واضح ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته ، وربما ترجع كتابته إلى القرن التاسع أو العاشر الهجرى ، وقد كتب على جلدته اليمنى « سنة ١٠٦٩ » ، ولكننا لا نعتقد أن ذلك هو تاريخ كتابه ، لأنه يبدو أقدم من ذلك .

ويضم هذا المجلد الضخم « السفر الخامس » من كتاب « المقتبس » وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر ، ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ.) بل تنقص هذا « السفر الخامس » من المقتبس فى البداية ، نحو ستين صفحة ، ومن ثم فان المخطوط ، بعد أن يحدثنا عن أبناء الناصر وكيفية تربيتهم ، وعن أثر الناصر فى حماية السنة ، والقضاء على فتنة ابن مسرّة ، ويورد لنا كتاب الناصر عن هذه الفتنة ، وأخبار بعض غزوات الناصر ضد الثوار . بعد ذلك يبدأ المخطوط بحوادث « سنة سبع وثلاثمائة » أى بعد جلوس الناصر

---

(١) حينما عدت إلى دراسة المخطوط فى سنة ١٩٦٧ ، وجدت أنه قد أصلح ورمم وأصبحت لوحاته فى حالة جيدة .

بسبعة أعوام ، وان كان يتناول بعد ذلك حوادث وقعت فى أعوام سابقة ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ ﻫ. أعنى قبل وفاة الناصر بعشرين عاما ، وإن كان مع ذلك يورد فى بعض المواضع ، حوادث وقعت بعد ذلك حتى سنة أربعين وثلاثمائة ، ومعنى ذلك أن هذا السفر الضخم من كتاب المقتبس ، لا يغطى من عهد الناصر سوى النصف .

وفيما يلى محتويات المخطوط ، نثبتها بايجاز ، مرتبة وفق ورودها ، وذلك لكى نستطيع أن نكون فكرة واضحة ، عن أهمية هذه الذخيرة الجديدة من ذخائر التاريخ الأندلسى :

ذكر الأولاد (اللوحة الثالثة) — ذكر أثر الخليفة الناصر لدين الله فى حماية السنة وإنكار البدعة (ويلحق بذلك بيان الناصر عن فتنة ابن مسرة) — أول الغزوات — غزاة المنتلون — خبر فتح اشبيلية (سنة إحدى وثلثمائة) — خبر محمد بن ابراهيم بن حجاج — قرمونة — الوزراء والعمال — مولد ولى العهد الحكم — خبر إيطان مدينة يابُرة — (سنة ثلاث وثلاث مايه) — خبر سلم المارق عمر بن حفصون — خبر استيمان سليمان بن عمر بن حفصون — فتح قرمونة — خبر مهلك عمر بن حفصون — خبر استنزال سليمان بن عمر بن حفصون — مقتل المارق جعفر بن عمر بن حفصون — سنة عشر وثلث مايه — غزوة الناصر إلى كورة إلبيرة — غزوة مدينة ُببَشتر — مقتل المارق سليمان بن عمر بن حفصون — فتح مدينة ببشتر ، وكتاب الناصر عن ذلك — فتح مدينة ماردة وما يليها — الشدة — مشاهير العمال — امتداد همة الخليفة الناصر لدين الله — ذكر الأشراف الحسنيين المتآمرين بالعدوة — خبر سمو الخليفة الناصر لدين الله لملك طليطلة — الاستبدال بعمال البلاد — خبر فتح مدينة سبتة — قعود أمراء الحسنيين عن عبور الأندلس إلى عدوتهم — (كلام طويل عن حوادث المغرب) — ذكر توهم الناصر لدين الله أهل ولايته

من أمراء البربر بالعدوة — خبر ابن أبي العافية — خبر الأسطول — فتح طليطلة — ذكر تملك الطاغية رذمير ابن ارذون على الجلالقة — خبر العدوة — الأسطول — نكبة موسى بن أبي العافية — الوزراء والعمال — الحريق العظيم بسوق قرطبة — العدوة — الجهاد — الوزراء — أصحاب الخطط — الموالى — (ومن أهل سرقسطة) — الوزراء والعمال — وفادة محمد بن هاشم — الجهاد — العدوة — الوزراء والعمال — غزوة الخندق — خبر وشقة — الشروع فى سلم الطاغية رذمير — خبر العدوة — الوزراء والعمال — وآخر المخطوط فى حوادث سنة ثلاثين وثلاثمائة : القحط والاستسقاء — الوزراء والعمال .

ويختتم بما يأتى : « وفيها (أى فى سنة ٣٣٠ هـ.) سأل محمد بن هاشم التجيبى من الناصر لدين الله التنويه بابنه يحيى ، خليفة له على عمله ، وتسجيل له على مدينة سرقسطة وأعمالها ، فأجابه إلى ذلك ، وعقد ليحيى التسجيل على عمله بسرقسطة وأعمالها ، على أن أباه محمد بن هشام القائد عليها ، وذلك فى صفر من هذه السنة » .

هذا مجمل ما يحتويه « السفر الخامس » من « المقتبس » وقد كتبت الموضوعات المتقدمة بإفاضه لا مزيد عليها ، وبأسلوب نقدى بارع ، هو الذى يتميز به ابن حيان فى كل ما يكتب ، وتخللها عشرات الوثائق والنصوص .

* * *

وكان من أهم ما نقلته من المخطوط بعض هذه الوثائق والنصوص الهامة التى لا أذكر أننى وقفت عليها فى مصادر أخرى ، وفى مقدمتها البيان الذى صدر باسم الناصر ، عن حركة الفقيه الفيلسوف المتصوف ابن مسرة وآرائه الدينية ، والحملة عليها والتبرؤ منها ، وانذار معتنقيها بشر النكال .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه ، وعلى ابن وضاح ، والخشنى

وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة ، فى التأويل والقدر ، وانفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وذلك فى أواخر أيام الأمير عبد الله ، نحو سنة ٢٩٨ هـ. وأنفق فى المشرق بضعة أعوام ، وتفقه على يد المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . وذكر صاحبه ومرافقه فى الحج محمد بن حزم بن بكر التنوخى ، أنه كان أيام إقامته بالمدينة يتتبع آثار النبى ، وأنه ابتنى لنفسه هنالك خلوة يتعبد فيها على موقع دار مارية القبطية سرّية النبى ، وقد كان بالجبل خارج المدينة . ثم عاد ابن مسرة إلى الأندلس ، وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك ، وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقة الخلاب ، حتى التفت حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أصبحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . وكان يتخذ لنفسه بجبل قريب غاراً يتعبد به حتى سمى بالجبلى ، وهنالك كان يختلف إليه خاصة أصحابه . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة المعول عليها . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ. (٩٣١ م.) [١] ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية اتهمت بالمروق والالحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

---

(١) أورد لنا ابن الفرضى ترجمة حسنة لابن مسرة (طبعة القاهرة) ، ج ٢ رقم ١٢٠٤ ، وكذلك الحميدى فى جذوة المقتبس (القاهرة) ص ٥٧ – ٥٩ وراجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦٥ و ٩٩١

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة فى بث تعاليمه واستهواء اتباعه قال : «كان مذهب الظنين ، المرتب ، المرائى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرّة ، الرابض للفتنة . دب فى الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع .

وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقة ، وعلق فى شرك حجاجه ، غره رفقاً بباطله من الطاير فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه فى اعتقاده ، ويحصله فى اتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم فى مذهبه وايمة دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم ، وصموا باتباعه فأذرعوا بذلك خزية ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثق فى الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتتم بذلك شأنه إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد ، أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، وأخذ عليهم من بثه . . . يغويهم ، وصغت إليه أفئدة جماعة من الناس خاصة وعامة ، أذاعوه سره ، وأفشوا مذهبه ، وغبطوا من فاء إليه واعتقده ، فانتشرت فى قرطبه ، وطرأ إلى بلاد سواها . . . به جماعة ، فكثر القول فى شأنه ، وسيم أهل الخلاف من تلقايه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بهمة إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا . . . »

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأنه وشأن تعاليمه ،

الا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاما على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه ، لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

وفى يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلث مائة ، قرىء على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة ، المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه فى الديانة ، فافتتن العوام بما أظهر من التقشف والشظف فى المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة ... وفرقة فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عنه ، وعلم صحته ، فتعاظمه واستوحش من اجتراء تلك الطائفة الخبيثة عليه ... فأوعز إلى وزيره متولى احكامه ومدينته ، بتتبع هذه الطائفة . . . وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين .

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق ملكه بشأن هؤلاء المبتدعة ، كتابا طويلا قرىء عليهم بأمصارهم من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى ، نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فان الله تعالى جده وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى حكم تنزيله : ومن يتبع غير الإسلام دينـاً فلن يقبل منه ... الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ،

ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلايق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سمـاه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرّفنـا فضل ما هدانا إليه من الدين وكرمنا به على ساير الامم : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، الآية . فله جـل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصايص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة حيث يقول عز وجهه لنبيه صلى الله وسلم ... به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير ... واعلاما لهم ... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه ، وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليه ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه الآية . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد . ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على ساير البلدان ، واستقر فيها الدين كهيئته ، يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آرايهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتبا لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدال فى آيات الله ، وحرفوا التأويل فى حديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : ألم تر أن الذين يجاولون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الجحيم ثم فى النار يسجرون ، فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسدوا على أنفسهم أبواب الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التـأويل بتقدير عقولهم : فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار ، إلى القدح فى الحديث ، وترك نجح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها وتتابعوا فيا ... وورطهم ، ورأوا لتخضع وحشة بحثها لازم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجاعة ، من غير نظر نافذ فى دين ولا رسوخ فى علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا . . . وكشفوا بتكررهم الدين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفية ، واعتقاداً لبغضتها واستحلالا لدمايا ها ، وزرعا إلى انتهاك حرمها ، وسبى ذراريها ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط ، ولما صار غيهم فاشياً ، وجهلهم شايعاً ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن

الجادة ، فاشغل نفسه ، وأقض مضجعه ، وأسهر ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم ، وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيعاً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ، نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليقرع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر الحاير ، وينقض عزم العاند المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ، التى يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سرائرهم فيكون عليهم شهيداً ويأتيهم عذاب غير مردود ، ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ويرسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده اليك ، والى ساير قواده ، وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى ، من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما تكشف عن هذه الطغمة الخبيثة من التبديل للسنة ، والاعتداء فى القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك فى قبلك ، ونشره سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وأبثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تخلى منهم بما انتسب إليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ، لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفى حنين صدره ، وإياك أن تهون فى أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت فى أحد الأمرين ، أو كليهما ، فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، فأعلمه ، وأعتد به ، إنشاء الله تعالى (لوحات ١٦ إلى ١٩ من المخطوط)(١) .

---

(١) اضطررنا أن نغفل من هذه الوثيقة بعض كلمات قليلة محتها أو شوهتها الخروم تشويهاً تتعذر معه أية قراءة مجدية .

قال ابن حيان : وتمادى الطلب لهذه الفرقة السرية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله .

* * *

وهنا ، ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة — حركة ابن مسرة وتلاميذه — وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله ، إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً كما يصورها لنا ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ، أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ، ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين ، من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق .

القاهرة فى يونيه سنة ١٩٦٥　　　　محمد عبد الله عنان

حركة الإصلاح الديني في غرب إفريقية

قبل أن نتكلم عن حركات الإصلاح الدينى التى ازدهرت فى أخريات القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر بغرب افريقيا ، نشير إشارة عابرة إلى المرحلة الأولى لانطلاق الإسلام فى تلك المنطقة ، حينما وصل رجال القائد العربى عقبة ابن نافع عام ٦٦٦ م إلى ودّان ، وإلى جهة أخرى فى اتجاه واحة كُوّار فى الصحراء شمال بحيرة تشاد ، وتسرب الإسلام فى أثر ذلك إلى الشعب الحاكم فى دولة كوكو القديمة التى قامت على جانبى النيجر الأوسط فى أوائل القرن العاشر .

وفى منتصف القرن الحادى عشر قضى المرابطون بفضل دعوة عبد الله بن يس الناجحة على سيادة دولة غانة القديمة ، وكانت حينذاك أقوى دول غرب افريقيا ، ثم اعتنق حكامها الإسلام عقب انتشاره فى موريتانيا . وفى ذلك الحين كان الدين الحنيف يتغلغل فى كانم وبوركو وباجرمى . ثم نهضت برنو كدولة إسلامية كبرى فى أعقاب دولتى مالى وسنغاى الإسلاميتين . وقد ازدهرت الحضارة العربية فى تلك الدول فيما بين القرن الثانى عشر والقرن السابع عشر ، ونهضت مراكز الإشعاع الإسلامى فى تمبكتو ، وجِنى ، وجاغ ، وكانو ؛ واشتهر فيها كثير من علماء الدين والتاريخ والأدب .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون الذين يعيشون فى المناطق البعيدة عن المدن الإسلامية يجهلون حقائق دينهم ، فكانوا فى أشد الحاجة إلى من يرشدهم ويهديهم .. كانوا يخلطون كثيراً من الأباطيل والعقائد الفاسدة التى انطوت

عليها أديانهم الأولى ، وكادت الوثنية تعود إلى شأنها القديم ، وكان يبدو أن المجتمع الإسلامى قد أصابته نكسة . ففى منتصف القرن الخامس عشر ، تأثر المسلمون فى وسط القارة وغربيها بدوافع داخلية وخارجية . كان من أهمها نهوض الخلافة الإسلامية فى القسطنطينية ، والقضاء على الدولة المسيحية الكبرى بيزنطة . وصادف ذلك نشاط موفور نهض به دعاة بعض الطرق الدينيـة الوافدين من المغرب ، وقد أثر هؤلاء تأثيراً ملحوظاً فى إمارات الهوسا شمال نيجيريا ، وكان من أبرز الدعاة الفقيه التقى عبد الكريم المغيلى[1] (ت ١٥٠٤) ، الذى كتب رسالة دينية تلبية لرغبة سلطان كانو ، عرض فيها ألوان الفساد التى سادت مجتمع الهوسا ، وانتشار المفاسد الدينية والدنيوية ، وكان لكتابيه « الدرر المنير فى علوم التفسير » و « التعريف فيما يجب على الملوك » أقوى الأثر فى تنوير الأذهان . وكذلك رسالة الإمام جـلال الدين السيوطى (١٤٤٥ — ١٥٠٥) إلى بعض أمراء الهوسا ، وقد أشار فيها إلى مثل ما كتبه المغيلى . ومع ذلك فلم تستطع إمارات الهوسا التى كانت منقسمة على نفسها أن تغلب الوثنية نهائياً .

والجدير بالذكر ، أنه كانت هناك عدة عناصر ساعدت على اليقظة الإسلامية ، فبمرور الزمن على الفتح العربى (شمال افريقيا) ، استعربت غالبية من البربر القاطنين فى غرب المغرب ، على عكس البربر أو الطوارق الذين كانوا يقطنون فى الصحراء الكبرى ، فقد حافظوا على استقلالهم ولغتهم وعاداتهم ، وكان لابد من مرور سنوات طويلة حتى يتعمق الإسلام فى صدورهم . ونلاحظ أن هؤلاء الطوارق واصلوا ضغطاً مستمراً على المنطقة الممتدة من نهر النيجر الأوسط

---

(١) أحد علماء تلمسان الكبار وشهر فى السودان الغربى أثناء القرن ١٥ ، وكان له أثر ملحوظ فى تفكير زعماء الإصلاح الدينى . انتقل إلى كانو وكانت له حظوة عند الحاج أسكيا محمد سلطان سنغاى لما كان يسديه إليه من الآراء الحكيمة فى السياسة والإدارة . ألف له رسالة أو إثنين وقد نشر إحداها بعنوان — التزامات الأمير — المستشرق بلدوين فى بيروت عام ١٩٣٢

إلى بحيرة تشاد التى تعرف بالسهل الأوسط دون أن يكون لهم أى أثر إسلامى ملحوظ .

ونهضت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر حركة للدعوة ، انبثقت من منطقة الساقية الحمراء (الصحراء الاسبانية) وغيرت تمـاماً من موقف البربر إلى الاسلام . وكانت تهدف هذه الحركة إلى تأليف مجموعات من القبائل ، تعتمد على التنظيم الدينى ، مما جعلها تعتبر نفسها طبقة ارستقراطية تعويضاً عن فقدانها الحرية السياسية . وأكثر من ذلك ، نادت هذه القبائـل بتجنب استخدام الأسلحة ، واعترف بهم كفروع من القبائل العربية . على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة ، كان لها أثر عظيم فى منطقة جنوب الصحراء ومنطقة النيجر الوسطى على إسلام الزنوج . وتلك هى قبيلة كونتا التى هاجرت فى القرن الخامس عشر من موطنها فى توات (Twat) إلى أطراف تمبكتو ، ومع مرور الزمن انصهرت هذه القبيلة العربية الأصل وأصبحت قبيلة مغربية تدين إليها الطريقة القادرية بانتشارها فى غرب افريقيا . ضمت كثيراً من الصالحين الذين أحرزوا شهرة واسعة ، وأصبح لزعمائها مهمة الوساطة بين القوى المتصارعة : الطوارق والفولة والزنوج فى منطقة تمبكتو الإسلامية .

هذا هو العنصر الأول ، عنصر القبائل المغربية فى نهضة الروح الإسلامية فى غرب افريقيـا . أضف إليه العنصر الثانى وهو الدور الذى اضطلعت به الطرق الدينية وفى طليعتها القادرية والتيجانية . فقد كان انتشار هاتين الطريقتين ولا سيما التيجانية عظيما جداً فى مستهل القرن ١٩ . ومع أن القادرية كانت قد دخلت إلى غرب أفريقيا فى القرن ١٥ ، فقد تدفق نشاطها فى القرن ١٩ ، ولم يمض عليها زمن طويل حتى برز فقهاؤها وتلاميذهم ينتشرون فى أنحاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر يؤدون واجباتهم على خير وجه ويكسبون المريدين الكثيرين . ثم قامت الطريقة التيجانية منذ القرن ١٨ تناهض الطرق الأخرى ولا سيما القادرية وتميزت بايجابيتها واستخدام القوة فى

دعم الدعوة ولم تكتف بوسائل القادرية الهادئة . وعلى العموم فقد أصبح الانتساب إلى إحدى الطريقتين ضرورة عند كل مسلم ولا غنى عن إحداها .

وما دمنا فى صدد الكلام عن أثر الطرق الدينية فى النهضة الإسلامية فى القرن ١٩ ، فلا نستطيع أن ننسى فضل أحمد بن إدريس (توفى ١٨٣٧) الذى نشطت حركته المباركة فى السودان الشرقى واتجهت غرباً إلى وادى وباجرمى وبورنو ، ولما مات واصل تلميذه محمد بن على السنوسى (١٧٨٧—١٨٥٩) دعوته التى أثرت تأثيراً مباشراً فى منطقة الصحراء الوسطى ومنطقة النيجر الوسطى حتى دمر الفرنسيون زوايا أتباعه .

ولقد استمدت القادرية نشاطاً غير عادى بفضل الشيخ سيد الكبير (١٧٨٠—١٨٦٨) ، وحفيده الشيخ سيد الصغير (١٨٦٢—١٩٢٤) ، وأحمد بامبا (توفى ١٩٢٧) الذى أنشأ طريقة المريدية المتفرعة من القادرية وهى تعتبر طريقة إفريقية بحتة ، ضمت إليها فى سنوات قلائل أكثر من نصف مليون من المسلمين ، غالبيتهم من قبائل الوولوف الوثنية .

أما العنصر الثالث فى نجاح الحركات الاصلاحية ، فهو ظهور عدد من الزعماء المسلمين حملوا رايات الجهاد ، الواحد بعد الآخر .

يقابلنا فى طليعة هؤلاء زعيمان دينيان من الطراز الأول ، أخذا بيد قبائل الفولة فى منطقة فوتاجالون ، وهما إبراهيم موسى المعروف باسم كاراموكو أليفا أو اليفابا (Karamoko Alifa)[(١)] . وثانيهما إبراهيم سورى (Sori) وقد انضم اليهما زعماء قبائل الفولة المهاجرون من منطقة ماسينا وجعلوا فوجومبا (Fugumba) مركز نشاط مدارسهم الدينية ، وتعاهدوا فيما بينهم على الجهاد الدينى بين أهالى المناطق المحيطة بهم ، فنجحوا عدة سنين حتى دب الشقاق بين الفولة وزعماء سليما (Solima) واستمر الصراع حتى عام ١٨٠٥

---

(١) يعرف أيضاً باسم ابراهيم سامبيجو . نهض بدعوته حوالى ١٧٣٠

ولما توفى كاراموكو أليفا فى عام ١٧٥١ ، اتفقت كلمة القبائل على أن يتولى زعامة الجهاد — ابراهيم سورى ، وفى أعقاب مناوشات متواصلة ضد منافسيه ، استطاع الانتصار عليهم فى ١٧٧٦ ، وفاز بلقب الامام . وكان أول واجباته حماية المجتمع الإسلامي والعمل على توسيع حدود المسلمين . ولذلك نراه يوزع السلطة بينه وامامين آخرين : عبد القادر فى فوتاتورو وأحمد (Amadu) جابى فى فوتا بوندو وتولى هو الإمامة فى فوتاجالون . وتم ذلك فى ١٧٧٦

وبعد انتصارات ابراهيم سورى وشدة ولاء مجاهديه اليه أصبح صاحب الكلمة العليا بين زميليه . فقام الزعيم مودى مادا (Modi Mada) وجمع حوله أتباع كاراموكا أليفا ، ثم نادى بالامامة لعبد الله باديمبا ابن كاراموكو . ولكن تمكن ابراهيم من التغلب على مناهضيه واستطاع أن يعتمد على رجال جيشه متجاهلا رجال الدين ، ومن ثم جعل قاعدته فى تيمبو عام ١٧٨٠ بدلا عن فوجومبا ، وتخلص من أعضاء مجلس الشورى وعين آخرين بديلا عنهم . ثم واصل الحكم بحزم حتى توالى حوالى عام ١٧٨٤ ، وعادت الفوضى إلى أجزاء دولته الإسلامية ، وتغلبت زعامة الامام عبد الله باديمبا ابن كاراموكو أليفا ، وسمى أتباعه ألفايا وهم المختصون بالشئون الإسلامية ، إلى جانب الحزب العسكرى (سوريبا) نسبة إلى سورى .

ولكن لم يرض سيد ابن الامام ابراهيم سورى بهذا الوضع ، فبدأ النضال شديداً بين أتباع الإمامين فى فوتا جالون فيما بين ١٧٨٤ و ١٧٩١ وفى نهاية الأمر اتفقا عام ١٨٣٧ على أن يوحدا كلمتهما من أجل الجهاد النبيل ، ويتناوبا الامامة كل عام .

كان المسجد هو القاعدة الرئيسية للحكم ، تحيط به مساكن أسرات الزعماء ، ويتزعمهم الامام ، ويعاونه مجلس مؤلف من رؤوس الأسرات . وتلى ذلك المديرية ويحكمها حاكم سياسى يعينه الامام ، وكان لكل حاكم مجلس للشورى . ويأتى بعدها القسم ورئيسه يشرف على جمع الضرائب . وعلى رأس تلك الدولة

الإسلامية ، إمامان يتناوبان الحكم على فترات . وكان يعين الامام مجلس انتخابى (Electrol College) يتألف من أربعة أعضاء يمثل كل واحد منهم سلالة من سلالات الصحابة الأول : كاراموكو وابراهيم سورى . وبعد أن ينال المرشح للامامة موافقة المجلس العام لقبائل الفولة يصبح إماما . وكان يجرى كل هذا فى تيمبو العاصمة السياسية ، أما فوجومبا فكانت العاصمة الدينية للدولة . وكان للامام مجلس من الكبار يهيمن أعضاؤه على جميع الشئون السياسية والقضائية والدينية . وكان لهذا المجلس سلطة خلع الإمام . ويبدو أن هذا اقتصر على الناحية الشكلية فقط ، لأن الإمام كان هو القائد الأعلى للجيش .

وهكذا رأينا أن النظام الجمهورى ، قد عملت به دول افريقيا الغربية فى الوقت الذى طبقته فرنسا ، ان لم يكن من قبل ... هذا النظام السياسى الذى دعمته الروح الإسلامية دعماً قوياً . ولولا الغزو الاستعمارى للقارة الافريقية ، لكنا قد رأينا قيام جمهوريات عدة تسودها الحرية والعدالة الاجتماعية ...

وهناك زعيم دينى آخر ، نهض فى منطقتى فوتا السنغالية وبوندو (Bondu) فى أعقاب الحركة الإصلاحية التى قامت فى منطقة فوتاجالون . وقد تزعم هذه الحركة « تييرنو سليمان بال » (Tyèrno) على رأس شعب التوكولور المسلم الذى كان يعيش فى منطقة امتدت من السنغال حيث تقع ديمباكينى (Dembakené) بالقرب من باكل (Bakel) إلى دجانة (Dagana) بيد أن الوثنيين من قبائل الفولة ، كانت لهم السيادة على قبائل التوكولور .. وكان هذا شيئاً لا يرضى به هؤلاء . وكان تييرنو هذا قد تلقى علوم الدين فى فوتاجالون ثم استطاع بمعاونة رجال الدين السيطرة على الجماعة العسكرية وتأليف دولة تحكم باسم الله فى منطقته ، وقد تم ذلك قبل وفاته عام ١٧٧٦ فى أثناء محاربته المغاربة . وسرعان ما تولى الامامة ، مجاهد آخر اسمه عبد القادر فترأس دولة دينية منتخبة (والمعروف أن عبد القادر ولد فى « ديام وبلى » بالقرب من بوليبان عاصمة بوندو) .

فتيسر له دون صعوبة أن يحكم القبائل المختلفة من الوولوف والسوننكة والبمبارة والماندنكة الذين يسكنون المنطقة . ثم خص زعماء الجهاد بالاراضى ليزرعونها ويحكمونها وشاركوه فى مهمة الدفاع ورد الاعداء عن بلادهم ، ولا سيما ضد المغاربة الذين عملوا على تخريب الأراضى الواقعة على ضفة نهر السنغال اليمنى وجعلوها غير صالحة حتى لا ينتفع بها الزنوج . وقد كان عبد القادر على قدر كبير من الحكمة ، إذ عمل على مصالحة أعدائه الوثنيين ومنح بعضهم سلطات يمارسونها على أن يقدموا له الجزية . وبذلك استفاد من الهدوء الذى ساد البلاد . ولا يزال هؤلاء إلى اليوم وثنيين لم يتأثروا بالإسلام ، وتمكن عبد القادر من هزيمة المغاربة (١٧٨٦—٧) ، وحارب بعض قبائل الوولوف لكى يحولهم إلى الإسلام ، ولكنه وقع أسيراً لمدة عام ، عاد بعدها إلى فوتا ، فعزله عن الامامة فى عام ١٨٠٥ ، حلف مؤلف من زعماء بوندو والبمبارة وأعدائه القدامى من الدنيانكى . ومات شهيداً فى إحدى المعارك عام ١٨٠٦ ، وتغلب عليه أمام بوندو . ولما مات انتخب المجمع الدينى اماما آخر اسمه مختار بن سيره لمدة عام واحد . ويبدو أن هذا النظام السياسى كان قد فشل فى هذه الدولة لكثرة المطالبين بالامامة . وآل الحكم فى الدولة الدينية الجديدة إلى جماعة منتخبة من بين الصحابة الذين ساهموا فى الثورة ضد عبد القادر وأقاربهم ، ومن ثم أصبحت حكومة تحكمها الأقلية (Oligarchie) وتولى رجال الدين الكبار أزمة الحكم بعد أن ألفوا هيئة منتخبة (Electral) تنتخب الإمام من بينهم . ولم يكن لدولتهم عاصمة مركزية ، إذ أقام كل إمام فى قريته ، ومن ثم قسمت البلاد إلى عدة مديريات تستمد كل منها السلطة من الهيئة المركزية . وقنع الأئمة بهذا الشكل من الحكم بعد أن فقدوا الزعيم الملهم القوى ، ولو إلى حين .

نعم فقدوا الزعيم إلى حين ، حينما نهض زعيم قوى ، هو الحاج عمر تال الذى كان قد تأثر بتعاليم المجاهد الكبير عثمان دان فوديو .

دولة بوندو الإسلامية

أما قبــائل الفولة المسلمين فى بوندو ، ومنطقتها تقع بين فوتا السنغالية وفاليمى فقد ألفوا أيضاً دولة دينية وعلى رأسها امام ينتخب من بين أفراد أسرة واحدة كانت لهــا سيطرة على المنطقة منذ تسلم الزعامة رجل صالح اسمه « مالك سى » جمع حوله بعض المريدين ، (توفى عام ١٦٨٠) . وعلى مر الأيام زاد عدد هؤلاء حتى تزعم إحدى القرى واحد من سلالته اسمه أحمد جايه (١٧٦٤—٨٥) ، عاصر أحداث ثورة فوتاجالون واتخذ لقب الامامة لنفسه . وتوسعت أطراف حكومته على حساب البلاد المجــاورة . ثم ثار سيجاجايي (١٧٩٠—١٧٩٤) ضد عبد القادر امام فوتاتورو . ولا يمكننــا اعتبار بوندو دولة دينية فى مستوى فوتاتورو وفوتاجلون ، وقد زار الرحالة مونجوبارك عاصمة هذه الدولة ووصف أحوالها (١٧٩٥) .

حركة الاصلاح الدينى الكبرى

بزعامة عثمان دان فوديو

تكلمنا عن بعض حركات الإصلاح الدينى فى غرب افريقيا ، وسنتحدث الآن عن أهم تلك الحركات المباركة التى كان لها أكبر الأثر فى دعم الإسلام وانتشاره فى منطقة كبيرة . كان زعيم هذه الحركة وملهمها الشيخ عثمان دان فوديو فإليه يرجع الفضل فى نشر الإسلام بين ممالك الهوسا فى أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

ومع أن ممالك الهوسا التى تشتمل على هاب (Habe) ، وكاتسينا ، وجوبر (Gobir) ، وكانو وزاريا ، وكانت كلها غنية ولكن كان يؤدى التنافس

بينها إلى نشوب القتال بين بعضها البعض ، ولذلك انتهزت دولة برنو فى شرقيها فترة ضعف تلك الممالك ، فكانت تضغط عليها بين الحين والحين وكادت تهدد استقلالها .

فى هذا الجو السياسى ، نهض الزعيم عثمان دان فوديو معتمداً على قبائل الفولة ومعلناً حركته فى عام ١٨٠٤ وبادئاً حركته فى جوبر ، ولكن أجبره ملكها على مغادرة بلاده ، فاضطر إلى الهرب وكان ذلك فى ٢١ فبراير ١٨٠٤ ، ويعتبر هذا اليوم يوماً دينياً مبجلا يطلق عليه فى شمال نيجيريا يوم الهجرة . وسرعان ما انضم إلى دعوته الآلاف ، الذين قادهم عثمان إلى تلك الممالك ، وقضى على ملوكهم الواحد بعد الآخر ، وتمكن زعماء الفولة فى ١٨١١ أن يصبحوا سادة بلاد الهوسا كلها ، ومن ثم أقاموا عدة مراكز فى طول البلاد وعرضها ، كانوا يشنون منها الهجمات ضد القبائل الوثنية ، فدانت لهم مناطق شاسعة فى زمن قصير .

فما هى أسباب هذا النصر السريع ؟

أما أهم هذه الأسباب ، فيرجع إلى ضعف روح المجتمع فى تلك الممالك آنذاك . كانت الحياة تسودها الفرقة وتنافر الصفوف . وكان الملوك يعتمدون على جيوشهم الخاصة ورجال البلاط فكانوا منعزلين عن شعوبهم ، فانقسم الشعب إلى سادة وأتباع . أما السادة فكان عمادهم الظلم والإرهاب ، يخشون على ملكهم من جيرانهم ومنافسيهم ، بينما أفراد الشعب : سواء أكانوا من الفلاحين أو أصحاب المهن فقد عانوا الضرائب الباهضة وطغيان رجال الحكومة فى جباية الأموال . كانت تتوفر بالمدن الأموال الوفيرة بيد أنها تذهب إلى جيوب حفنة من الحكام . ومن ثم أصبح الأغنياء أكثر ثراءً . وأصبح الفقراء أكثر فقراً . فلا غرو إذن ، أن نهض عثمان دان فوديو بثورته

(١٧٥٤ — ١٨١٧) ضد ملوك « هاب » ، سرعان ما استجاب لها شعب الهوسا وانضم إلى قبائل الفولة بكل حماسة ليخلصوا من العذاب .

لقد أدرك عثمان بحكمته كيف يوجه حركته لاصلاح المجتمع عن طريق الدين ، وحدد أهدافه مع أعوانه المخلصين ، فكانت تعليماته إليهم واضحة تهدف قبل كل شىء إلى الإصلاح الاجتماعى واتباع نظام الشورى والبعد عن العسف والجبروت . وتبدو آراء الشيخ عثمان فى إدارة الحكومة فيما كتبه من المؤلفات ، ولا سيما فى رسالة الفرق[1] .

كان الفساد والمغالاة فى الترف والأنانية والظلم من معالم حكم ملوك « هاب » . ولذلك كانت دعوة عثمان تهدف إلى إزالة كل هذا الفساد والخلاص من الأحوال السيئة لحياة أفضل وأشرف . ويقول المصلح عثمان رضى الله عنه فى كتاب الفرق وفيه يعكس آراءه ما يلى :

أقول بعون الله أن دعائم الحكومة خمسة :

١ — أن القوة (السلطان) لا تمنح لمن يسعى إليها .
٢ — الحاجة إلى الشورى .
٣ — التخلى عن القسوة .
٤ — العدل .
٥ — الأعمال الصالحة .

ويقول عن النظام الحكومى ما يلى : ينبغى أن تقصر أعمال الحكومة على أربعة وزراء . أولهم وزير مخلص للأمانة العامة عليه أن يوقظ الحاكم إذا نام ، وأن يجعله يبصر إذا عمى ، وأن يذكره إذا نسى . ياسوء حظ الحكومة

---

(١) الفرق بين ولاية أهل الاسلام وأهل الكفر مخطوط عربى للمصلح عثمان دان فوديو موجود منه عدة نسخ . حققه م. هيسكت : انظر : مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية ، مجلد ٢٣ ، عدد ٣ عام ١٩٦٠ ، ص ٥٥٨ — ٥٧٩

والشعب إذا ابتليت بوزير غير أمين . وأهم صفات هذا الوزير الرحمة والعطف نحو الناس .

وثانى الوزراء : القاضى الذى يخشى الله ، وثالثهم رئيس الشرطة الذى يعطى لكل ذى حق حقه ويناصر الفقراء ضد جشع الأقوياء . والرابع هو المسئول عن جباية الضرائب فى نطاق واجبه المرسوم فلا يعسف أحداً .

والواقع أن هذه أمور يحث عليها الدين الاسلامى . ولكن أهملها الطغاة والأنانيون . وكانت بلدان غرب افريقيا فى حاجة إلى الزعيم الذى يذكرهم بشمائل الاسلام وبالحاجة إلى العودة إلى مبادئه السمحاء . وقد نجح الزعيم الشيخ عثمان فى دعوته نجاحاً لم يلقه أى زعيم آخر فى موطنه ، فوحد كلمة الشعوب المتنافرة وهذب الدين . ويمكن القول بأنه فى عام ١٨١٠ وصل جهاد عثمان إلى ذروته وأعتقد أنه قد أدى رسالته ، فوجه عنايته إلى تنظيم دولته فى أنحاء امبراطورية الفولة وقسم إدارة بلاده إلى قسمين : قسما يشرف عليه شقيقه عبد الله وآخر يشرف عليه ابنه محمد بللو .

حركة الاصلاح فى أعقاب وفاة الزعيم الأكبر

برهن زعماء الفولة على كفاءتهم فى دعم حياة ديموقراطية والاطاحة بالملوك الذين أهملوا مطالب شعوبهم . فوحدوا دويلاتهم المتنافسة وأصبحت قوة لا يستهان بها . أصبحت للفولة دولة مهيبة تتمتع بسيادتها تدين بالولاء لحاكم واحد وعاشت حوالى المائة عام حتى قدم الاستعمار البريطانى وقضى على سيادتهم السياسية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً حيال سيادتهم الدينية فى سكوتو أو كانو .

وكان الشيخ عثمان بعد ما أحرزه من النجاح ، قد قسم الدولة التى اقامها

إلى قسمين كبيرين : أحدهما فى الشرق وجعله تحت حكم ابنه محمدو بللو . وجعل القسم الغربى تحت حكم شقيقه عبد الله ، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكوتو مقراً للدعوة الكبرى وأخذ يجد فى التـأليف الدينى والاجتماعى ونذكر من كتبه : أصول الولاية (الحكومة) ، احياء السنة ، بيان البدع ، تمييز المسلمين ، نصائح الأمة وغيرها كثير . وقد تكوّن من كتابات الشيخ دستور اتبع مبادئه جميع خلفائه .

كان شقيقه عبد الله محدثا قوى الحجة ، ألف أيضاً عدة كتب من أهمها تزيين الورقات[1] . وبوفاة عثمان تولى ابنه محمدو بللو حكم البلاد . وكان مثل والده وعمه شخصية ممتازة ومفكراً حصيفاً وقائداً ماهراً . جمع حوله كثيراً من أهل العلم والدين والأدب ، فعملوا معه على نشر علوم الإسلام ودعمها فى كثير من المدارس التى شيدها فى بلاد الهوسا . عطوفاً على شعبه فبادلوه الحب والاحترام ، لم يعرف عنه أنه استغل بيت المـال من أجل شخصه ولم يعلن حرباً من أجل الغنائم وحب التملك . وكانت مدة حكم السلطان بللو مليئة بالحروب المتواصلة ضد بعض القبائل التى لم تذعن لحكم الفولة . وكانت معركته الكبرى فى «كجواكوكى» خاتمة حروبه عام ١٨٦٥ . وقد استطاع أن يدعم سلطانه فى جميع ولاياته .

امتدت دولته من ماسينـا فى الغرب إلى باجرمى فى الشرق ، ومن بلاد اليوروبا فى الجنوب إلى واحتى أدار وأجاديس فى الصحراء الكبرى شمالا .

وكانت سياسته تهدف إلى دعم الحدود باقامة الحاميات والرباطات والمعاقل ضد اغارات الطوارق وسكان كبى (Kebbi) وجوبى أعدائه القدماء . وقد

---

(١) مخطوط فى عدة نسخ موجودة بمكتبات نيجيريا الشمالية ، عبارة عن مجموعة قصائد من نظم عبد الله الفردى شقيق الزعيم عثمان .

شجع أعمال البنـاء ولا سيما المدارس والمساجد التي زودها بالعلماء والمدرسين والوعظاء والقضاة .

زاره فى عام ١٨٢٤ الرحالة البريطـانى كلاپرتون (Clapperton) فشاهد فى مكتبته عدداً من كتب العلوم الكلاسيكية . ويذكر الرحالة أن السلطان تحدث معه عن أحوال البلدان الأوربية وعن بعض القضايا الدينية التى كان الرحالة يجهلها .

وبالرغم من مشكلات الحكم استطاع محمد وبللو أن يكرس بعض الوقت للتأليف فى التاريخ والجغرافيا والدين ونظم الشعر كما قلنا . وقد عنى كثير من العلماء بترجمة مؤلفاته ونشرها فى السنوات الأخيرة . ومن تلك المؤلفات :

١ — الأنصاف فى ذكر ما فى مسائل الخلافة من وفاء وخلاف .

٢ — جلاء الصدور عما يحتاج فيها من صدور الغرور .

٣ — الرباط والحراسة . وله عدة قصائد .

وقد مات بللو عام ١٨٣٧ ودفن فى ورنو التى كانت تنافس سكوتو فى مكانتها الدينية .

حركة الاصلاح الدينى فى وسط افريقيا

هكذا امتدت اليقظة الإسلامية إلى غرب افريقيا ووسطها ، تماماً كما قامت فى أكثر أقطار العالم الاسلامى أثناء القرن ١٩ محاولات مخلصة لايقاظ المسلمين من رقدتهم وإصلاح عقائدهم . وما كانت بلدان غرب افريقيـا أن تبقى بعيدة عما تفاعل فى البلدان الإسلامية الأخرى ، فقد كانت صلاتها بالعالم الاسلامى صلات وثيقة .

كانت حركات غرب أفريقيا تدعو إلى العودة بالاسلام إلى ماضيه المشرق وهداية الوثنيين الذين لم تعمر قلوبهم بعد بالدين الحنيف . وكانت غاية عثمان وخلفائه وأمثالهم تستهدف تكوين مجتمع إسلامى فى نظمه وتقاليده وتعاليمه . ومن هذه الحركات نذكر على سبيل المثال الدعوة الوهابية فى الجزيرة العربية ، وتجدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت إليها يد العبث ، ممثلة فى نشاط السنوسية والقادرية والتيجانية .

ولا غرو أن يقتدى زعماء مسلمون آخرون بما فعله الشيخ عثمان المصلح وأقاربه وأتباعه ، فينهضون فى بلدانهم القريبة من بلاد الهوسا بحركات إصلاحية مماثلة . وسرعان ما قامت فى منطقة ماسينا غرب الهوسا حركة تزعمها أحمدو لوبو ، ثم انطلقت حركة شبيهة فى حوض السنغال بزعامة الحاج عمر تال الذى سنتكلم عن حركته المباركة .

اجتذبت أحمدو لوبو دعوة المصلح عثمان دان فوديو ، واستجابت لها رغبته فى الاصلاح الدينى ، فشارك الشيخ وجاهد تحت رايته ثم أدرك أن وطنه ماسينا فى حاجة شديدة لاصلاح شئونه . فسرعان ما ذاعت دعوته وقد وجد الأهالى فيها فرصة لتوحيد صفوفهم ، كما ارتفع شأن إخوانهم فى شمال نيجيريا ، ثم أعلن الجهاد ضد قبائل البمبارة الوثنيين (١٨١٣) ، وانتصر على الطوارق (١٨٢٥) ، ودخل تمبكتو (١٨٢٧) ، ثم دخل مدينة جنى وطهرها من المنكرات . وكان قد اتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها « حمد الله » . وهكذا قامت إمارة إسلامية فى ماسينا اتبعت الطريقة القادرية .

وحينما مات الشيخ أحمدو (١٨٤٤) خلفه ابنه أحمدو شيخو الذى لم يعمر طويلا فقد توفى عام ١٨٥٢ . وتشاء الصدف أن تكون ماسينا هدفا لحركة الحاج عمر تال التى انبعثت من بلاد التكرور فيستولى على مدينة حمد الله فى سنة ١٨٦٢ . ولولا الحروب التى اشتعلت بين معسكرى المصلحين لظلت دولة ماسينا مناراً للاسلام والمسلمين يخشى أمرها البمبارة وغيرهم من القبائل الوثنية .

وهنـاك حركة إصلاحية كبرى أخرى نهضت فى شرق نيجريا وشمال الكاميرون ، تزعمها المؤدب آدم وكان قد تلقى علومه الدينية فى برنو ، وحج إلى بيت الله . ولمـا سمع بجهاد المصلح عثمان ذهب إليه فى سكوتو ١٨٠٦ ليعرض عليه الولاء ومشاركته فى الجهاد فى بلاده ، فجعله الشيخ أحد قادته وبارك حركته التى بدأها عام ١٨٠٩ فأخضع الوثنيين فى بلاده وقبائل المندارا (Mandara) وكان زعماؤها مسلمين اسميا . ثم أسس مدينة يولا (Yola) على نهر بنوى وأقام الزوايا والمدارس الدينية . ومات ١٨٤٧/٨ تاركا للفولة منطقة فسيحة امتدت من ماداجالى فى الشمال إلى بانيو (Banyo) فى الجنوب ومن نهر اينى (Ini) فى الغرب إلى ليرى (Leri) فى الشرق . وقد وحد البلاد فجعلها متماسكة بعد أن كانت فى فوضى .

ومنذ ذلك الحين عرفت بلاده باسم «أداما» وغالبية سكانها اليوم من المسلمين .

دعوة وجهاد الحاج عمر تال

ولد الحاج عمر بن سعيد تال فى عام ١٧٩٧ فى ألوار بمنطقة فوتا السنغالية ، وقد نشأ فى أسرة دينية فتلقى علوم الدين ، ثم أدى فريضة الحج (١٨٢٦) وصار من مؤيدى الطريقة التيجانية . وفى أثناء عودته إلى وطنه ، كان قد اكتسب شهرة واسعة ، فنال احترام الشيخ الكانمى فى برنو . وفى سوكوتو ، تعرف على الشيخ محمد بللو نجل الزعيم الشيخ عثمان دان فوديو المصلح الكبير . فبقى عنده حوالى ثلاث سنوات واشترك أثنائها فى جهاده . وفى عام ١٨٣٨ أقام فى منطقة ماسينا (Massina) مع الشيخ أحمدو ثم ذهب إلى سيجو قاعدة البمبارة ، لكنه أبعد عنها ، فظل يطوف أنحاء كانكان سبع سنوات ، معلماً

ومرشداً وهادياً الناس ، وأخيراً وصل إلى دينجراى فطاب له المقام ، ودعم مركزه الدينى فيما بين ١٨٤٥ — ١٨٥٠ ، وصار له أتباع كثيرون .

وقد نشطت دعوة الحاج عمر للطريقة التيجانية فى منطقة فوتاجالون بين رجال الدين ، واستطاع أن يحولهم عن الطريقة القادرية ، وكان ذلك فى عام ١٨٥٠ ، وحبب إليهم أن يهبوا للدعوة فى دينجراى ، فاجتذب إليه عدداً كبيراً من قبائل الفولة فى فوتاجالون ، وقد أصبحوا فيما بعد يؤلفون القوات الرئيسية فى جيشه ، وهكذا ساعد على دعم العلاقات بين الفولة والتوكولور .

ولما أدرك أن الوقت قد حان للقيام بحركته الاصلاحية ، أعلن الجهاد ، ورأى أن يبدأ ذلك فى موطنه بفوتاتورو ، وكان قد زارها عدة مرات لينشر دعوته بالطرق السلمية ونجح فى اجتذاب التوكولور إلى صفوفه .

بدأ نشاطه بغزو بامبوك ، ثم دخل نيورو عاصمة منطقة كارتا فى عام ١٨٥٤ ، وفى ذلك الحين وجه جهاده ضد حركات الاستعمار الأوربى ، ولا سيما الفرنسيين الذين كانوا قد وصلوا إلى خاصو فى فوتاتورو وأحاطوا بعاصمتها « المدينة » (١٨٥٧) . فلما لم يستطع رفع الحصار عنها وخابت مساعيه ، قرر أن ينسحب إلى الشرق ، ليقيم دولة مستقلة تتألف من مملكتى البمبارة وماسينا ، تاركا منطقة السنغال . وسرعان ما استولى على عدة مدن : أهمها نيورو فى الشمال ، وسافساندنج (Sansanding) ، ونيامينا (Nyamina) ، وسيجو على نهر النيجر ، فقضى على مملكة البمبارة الوثنية وكان قد مات فى ١٨٦١ . ثم تابع فتوحه نحو الشمال متتبعاً النيجر ، وهاجم ملك ماسينا المسلم الذى كان قد امتنع عن مساعدته أثناء حصار الحاج عمر للمدينة ، واستولى على عاصمته حمد الله (١٨٦٢) ، ثم فتح مدينة تمبكتو (١٨٦٣) ، وكانت أقصى ما وصل إليه فى الشمال . وهكذا نجح الحاج عمر فى اقامة دولة إسلامية كبيرة تمتد من بلاد التكرور حتى تمبكتو . بيد أن الحظ لم يواكبه فقد تحالفت عليه قبائل الفولة

فى ماسينا وزعماء كونتا (Kunta) وهم اتباع الطريقة القادرية . وفى أثناء نضاله استشهد الحاج عمر عام ١٨٦٤ ، فخلفه ابنه أحمدو الذى اتخذ سيجو عاصمة للدولة .

وبوفاته فقدت الحركة الاصلاحية أهم الزعماء الذين عرفوا فى افريقيا فى القرن ١٩ ، فلو أنه نجح فى تحقيق مشروعه الكبير ، لأتيح له أن يؤلف وحدة كبرى من البلدان فى غرب افريقيا بيد أن الاستعمار الفرنسى كان قد سبقه ، وعمل على بث عوامل التفرقة بين الزعماء ، وسادت الروح القبلية فى تلك المناطق ... فعمت الفوضى ومن ثم تقدم الفرنسيون عام ١٨٨١ وطردوا أحمدو من ماسينا ، فهرب إلى بلاد الهوسا ومات بها عام ١٨٩٨ . فكانت دولته آخر الدول الوطنية التى شهدتها افريقيا الغربية قبل الاستعمار . وفازت المنطقة بدعم الإسلام والطريقة التجانية فيهما ، كما انتشرت القادرية فى منطقة نفوذ عثمان بن فوديو وأحمدو لوبو ، (Lobo) .

وهكذا انتهت حياة بطل عظيم ومجاهد مسلم قبل أن يجنى ثمار عمله الصالح.

المجاهد الشيخ أحمدو

حمل الشيخ أحمدو لواء الجهاد الإسلامى بعد وفاة أبيه الزعيم الجليل الحاج عمر تال فى عام ١٨٦٤ . والمعروف عن نشأة أحمدو ، أن والده عمر حينما عزم على فتح مملكة ماسينا ، تلك الحملة التى قتل فى اثنائها ، كان قد كلف ابنه النظر فى شئون مملكة سيجو وجعله خليفة له على اتباع الطريقة التجانية . وكان أحمدو ذكياً ومثقفاً ثقافة دينية ، كما كانت له كلمة مسموعة بين أتباعه ورعاياه ، بيد أن مشكلات التنافس فى الأسرة ، والمتاعب السياسية التى تعرض لها كانت كثيرة ، فضلا عن تهديدات حملة فرنسية قدمت للاستيلاء على بلاده .

وكانت دولة أحمدو الفسيحة تضم ممالك شتى ، منها سيجو وكارتا ، حيث قام أخوته الثلاثة فى ثلاثة مراكز عسكرية للدفاع عنها ، فى نيورو ، وكونياكرى ، ودياﻻ ، بالاضافة إلى حاميات كونديان وموروجولا ، ودينجوارای وماسينا . وفى تلك المناطق لم يكن لمواطنى التوكولور وهم شعب الشيخ أحمدو ، الغالبية الساحقة ، فبدأت الدولة فى التفكك ، وحاولت قبائل البمبارة فى مملكة سيجو أن تخرج عن طاعته ، وواصلوا مقاومته ، وكذلك قبائل الفولة فى ماسينا التى كان أبوه الحاج عمر ضحيتهم . كل هذا جعل الشيخ أحمدو فى نضال مستمر ضد الخارجين عليه . فلم يوفق فى كبح جماح البمبارة ، كما تآمر ضده زعماء التوكولور مع أفراد أسرته ، ثم كانت فتنة شقيقه حبيب ضده فى عام ١٨٦٨ ، وثار بعض أفراد التيجانية غير معترفين بسلطته الدينية ، حينما اتخذ لقب أمير المؤمنين عام ١٨٧٤

وانتهز الفرنسيون الفرصة — فرصة انقسام الدولة — وعبأوا قواتهم ، فحول الشيخ أحمدو جهاده ضد الفرنسيين ، هذا النضال الذى اشتد فيما بين ١٨٦٥ ، ١٨٩٠ ، واستمر حتى ١٨٩٤ . وتتابعت الحملات الفرنسية ضده ، بعد أن تعاون بعض الزعماء معهم . فاستولوا على كيتا عام ١٨٨١ ، ثم باماكو على نهر النيجر عام ١٨٨٣ ، مما جعله يكتب إلى القائد الفرنسى محتجاً على تدخلهم فى شئون بلاده ، ولكن دون جدوى .

وفى ذلك الحين نشأ العداء الشديد بين أحمدو والزعيم الدينى ساموری الذى كان نجمه قد سطع ، وهذا العداء مهد للفرنسيين تقدمهم وإنزالهم الهزائم بكل ملك وأمير على حدة ، ومما يؤسف له ، أن شقيقه مجيبو حاكم دينجرای تحالف مع الفرنسيين ضده ، فأدرك أن بقاءه فى سيجو أصبح خطراً عليه ، فقرر عام ١٨٨٤ الذهاب إلى نيورو ، وخلع شقيقه «المنتقى» عن الحكم ، ثم تخلى عنها فيما بعد ، وأخذ يشن المعارك ضد الفرنسيين ، فصمد أمامهم فى كثير

منها ، حتى اضطر إلى الالتجاء إلى إحدى ولاياته فى ماسينا للقيام بعمل كبير ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على سيجو فى ٦ أبريل سنة ١٨٩٠

ثم عبرت قواته نهر النيجر ، وتجمعت بالقرب من بانديا جارا ، ولكنها منيت بالهزيمة فى ٢٦ أبريل ١٨٩٣ . وكان الأهالى فى مدينة جنى قد قاوموا هجمات الأعداء بصلابة ، لكنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم ، فانتهت سيادة التوكولور فى السودان الغربى ، وآل الأمر إلى فرنسا . ولم ير أحمدو من الشهامة أن يستسلم للعدوان ، ولذلك لجــأ إلى سلطان سوكوتو فنزل عنده ضيفاً كريماً . وانتهت حياته عام ١٨٩٨

المجاهد أحمد ساموری توری

تفخر غينيا الحديثة بابنها البار المجاهد أحمد ساموری توری ، زعيم الحركة الاصلاحية التى نهضت فى جنوب سنغامبيا ، والتى أخذت طريقاً مماثلا لحركة الحاج عمر تال . وقد بلغت حركة ساموری الذروة فى عام ١٨٨١ ، بيد أن الاستعمار الفرنسى كان واقفاً له بالمرصاد ، فقضوا على حركته وأسروه عام ١٨٩٨

حفظ أحمد القرآن ثم اشتهر اسمه مقــاتلا شجاعاً ، فأصبح زعيما تخشاه القبائل ، ومن ثم أخذ فى إنشاء دولة للماندنكة [١] ، تقوم بديلا عن الدول المتناحرة فى المناطق التى كان يحكمها خلفاء الحاج عمر تال الزعيم التكرورى ، وليصد فى الوقت نفسه قوات الاستعمار الفرنسية الرابضة بالقرب من بلاده . فاستطاع فى زمن قصير أن يضم إليه تلك الدويلات بعد سلسلة من المعارك ، وباستيلائه على كانكان ، أصبح يعرف بلقب الإمام ، واشتهر بتقواه وحماسته

---

(١) قبــائل المندنغ (الماندنكة) فى غرب افريقيا من شعب الماندى الشماليين كالبمبارة والديولا والسوننكة والكاسونكى والبوزو . وقد سيطر الماندنكة فى المنطقة التى تتوسط نهر النيجر والساحــل الأطلسى وانتشر الإسلام بينهم بنسبة تجاوزت ٧٠ ٪ فى خلال المائة سنة الأخيرة .

الدينية ، فقضى على تقاليد الشعوذة والسحر والاعتقادات الوثنية الفاسدة ، وأمر بإنشاء كثير من الزوايا ، كما طالب الأهالى بأن يرسلوا أبناءهم للمدارس الدينية ليحفظوا القرآن ، ويتلقوا مبادىء الإسلام ، وكان فى كثير من الأحيان يستوقف الأطفال فى الطريق ليمتحن معلوماتهم الدينية . ليس هذا فحسب ، بل أنه كان يأمر شيوخ القرى بأن يتعهدوا بزراعة قطعة من الأرض ليعود نتاجها إلى خزانة الحكومة . كما أنه كان يأمر رجال الحكم بأن يعملوا على تعيين الموظفين دون النظر إلى قبائلهم وأصولهم حتى يندمج الأهالى دون أن يؤلفوا عصبيات متناحرة .

وكان ساموری يعتمد فى تنفيذ أهدافه الدينية والعسكرية على جيش كامل التنظيم ، تألف من ٧ — ١٠ فرق كبيرة للولايات ، تقف كل فرقة مستعدة لرد أى اعتداء ضدها ، وكان نواة هذا الجيش فى بيساندوجو .

وجهاد أحمدو وصموده ضد قوات الاستعمار صفحة رائعة من الوطنية التى تمتزج بالحماس الدينى ، فقد بدأت معاركه ضد الفرنسيين عام ١٨٨١ واستمرت عملياته ضدهم فى مد وجزر ، حتى استولوا على بيساندوجو قاعدته الحربية عام ١٨٩١ ، فاضطر أحمد إلى التراجع إلى الشرق فى منطقة غينيا العليا وأعالى ساحل العاج حيث ألف دولة أخرى . ثم واصل كفاحه المرير بين عامي ١٨٩٤ / ١٨٩٥ ، وفى الوقت نفسه ، كان ابنه « سارانجى مورو » يقود جيشاً آخر فى فولتا السوداء حيث واجه البريطانيين .

وقد أظهر الزعيم أحمدو مهارة فائقة فى قيادة جيوشه ضد أبرع القادة الفرنسيين الذين أوفدتهم فرنسا للقضاء على الروح الوطنية فى غرب افريقيا ، ولا سيما فى معاركه التى دارت فيما بين ١٨٩١ — ١٨٩٧ ، فتقدموا إليه بطلب الصلح ، ولكن رفض جميع اقتراحاتهم لأنه أدرك فيها المساس بكرامته كزعيم افريقى ، ولم يرض بوجود « مقيم » (Resident) فرنسى ، يتلقى منه التعليمات . فاضطرت فرنسا إلى ايفاد حملة كبيرة بقيادة الكولونيل « أرشينار » ، وتمكن

هذا من زحزحة قوات الزعيم ، وأجبر أحمد إلى الانسحاب نحو الجنوب ثم هاجم الفرنسيين ، ولكن تغلب هؤلاء عليه ، ومع ذلك فقد واصل جهاده ...

وأخيراً وقع ساموري بعد حيلة دبرها الفرنسيون فى أسر أعدائه وكان ذلك فى ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨ ، عند جويليمو (Guélémou) ، ونقلوه إلى نيجولى (Njole) بجزيرة أوجويه (L'Ogooué) بجابون حيث قضى نحبه عام ١٩٠٠

لقد شوه التاريخ الاستعمارى سيرة البطل ساموري ، فرسمه فى صورة بشعة ، وجعله وحشاً شريراً محباً لسفك الدماء ، والواقع أنه لم يكن سوى الزعيم الدينى والمجاهد الوطنى الذى كان يهدف دائماً خلاص وطن أجداده من عبث المستعمرين .

* * *

كان من ثمرات حركات الإصلاح الدينى فى غرب افريقيا دعم نظم الحكم الإسلامية بين القبائل المسلمة . وتحسين أسلوب جباية الضرائب وانتشار العدالة ، وتعميم التعليم ونشر اللغة العربية مع انتشار الإسلام . وفى أعقاب إجادة عدد كبير من العلماء الإفريقيين اللغة العربية ، أنهم أسهموا فى الكتابة فى شتى ألوان التأليف : فى الدين ، والأدب ، والتاريخ ، كما نهضت جماعات من الفقهاء المتخصصين فى الدين ، فأسهموا فى القضاء على التقاليد الوحشية والمعتقدات الفاسدة التى كانت متفشية بين الأهالى ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم . ولم يقف فى سبيل ذلك النور الحضارى سوى الأدغال الكثيفة ، فظلت فى ظلام لوقت ما حتى عبرها المعلم المسلم على دراجته حاملا القرآن وكتب التفسير فى شتى اللهجات .

ولم يستطع الاستعمار الذى غزا تلك البلاد أن يقتلع من قلوب الأهالى الروح الدينية الأصيلة بالرغم من الجهود التى كان يبذلها رجال التبشير المسيحى .

وازدهرت الجمعيات الإسلامية والمراكز الدينية والمعاهد الثقافية التى أسهم العرب فى إقامتها . ولقد كان للحركة التى نهض بها عثمان دان فوديو أثراً عظيماً فى تقدم أحوال المسلمين ، ليس فى نيجيريا فقط ، بل وفى غرب افريقيا . وكانت هذه الحركة اعلاء للثقافة العربية فى تلك البلاد . فلم تكن دعوة دينية مبنية على صوفية ، إنما كانت تدعمها حركة علمية على دراسة أصيلة ذات أهداف مرسومة غير مرتجلة . والدليل على ذلك ما صدر من المؤلفات فى تلك الفترة الأولى من حركته . وأولها مؤلفات الزعيم عثمان نفسه ، فقد ألف أكثر من عشرين كتاباً وبحثاً ، فى الفقه والسياسة والجهاد . وكان شقيقه الوزير عبد الله مؤرخاً وشاعراً وأديباً ، عرف من مؤلفاته نحو ١٨ كتابا بعضها لا يزال مخطوطاً ، وبعضها ترجم ونشر فى اللغات الأجنبية . كذلك كان محمد بللو أديباً ورعا ومؤلفاً ، وإلى جانب هؤلاء من رجال الطليعة الفكرية فى نيجيريا ، حمل علماء آخرون رسالة الفكر المقدسة ، منهم : الوزير جنيد السوكوتى ، عبد الله بن محمد ، عبد القادر بن مصطفى بن ابنة عثمان الفودى ، عبد الرحمن بن الخطيب ، وغيرهم .

وقد أدرك علماء الغرب من بريطانيين وفرنسيين منذ وطأ الاستعمار الأوربى غرب افريقيا أهمية المخطوطات العربية التى ألفها هؤلاء العلماء ، فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم ، ودأبوا على بحثها وترجمتها ونشرها بوساطة المعاهد العامة ، ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة فى مدن نيجيريا الشمالية لم تحقق بعد . ونأمل أن يتكاتف المسلمون على نشر هذا التراث الهام لخدمة العلم والدين ، ولا شك أن الوقت قد حان للقيام بهذه المهمة الجليلة . والله مع العاملين .

دكتور عبد الرحمن زكى

وصف جديد لقرطبة الإسلامية

تقديم

أُقدِّم فى هذه الصفحات نصاً جديداً عن قرطبة الإسلامية قبسته من مخطوط مجهول المؤلف فى جغرافية الأندلس وتاريخه محفوظ فى الخزانة العامة بالرباط . وقد تحدثت عن هذا المخطوط حديثاً موجزاً فى آخر بحثى عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس وأعطيت فكرة عن محتواه ونظامه وقيمته بالنسبة للباحثين .

ولم يجدّ لى شىء عن ذلك المخطوط وصاحبه من ذلك الحين ، رغم اشتغالى بأمرها وانصرافى إلى إعداد نص المخطوط كله للنشر . وقد تراءى لى فى وقت مّا أن هذا المخطوط إنما هو كتاب « مجموع المفترق » الذى تكثر الإشارة إليه عند المقرى ومحمد بن عبد المنعم الحميرى وغيرهما ، وذلك بسبب ما تحققت منه من تطابق فقرات من ذلك الكتاب واردة فى نفح الطيب والروض المعطار ، مع فقرات من كتابنا هذا ، ولكنى طويت هذا الظن حتى أحصل على بينـات أقوى وحججاً أنصع ، ومع هذا فان هذا الظن لو صدق فإن ذلك لا ينفعنا فى كثير ، لأن « مجموع المفترق » نفسه مجهول المؤلف والعصر ، فكأننا ننتقل من مجهول إلى مجهول مثله ، ولا يعيننا هذا فى شىء .

وقد رأيت — ريثما يتضح هذا الأمر — أن أنشر هذا الفصل من القسم الجغرافى من المخطوط عن قرطبة — كورةً ومدينة — فلعل واحدا ممن يطلعون عليه يستطيع أن يستبين شيئاً يعيننا على التعرف على الكتاب وصاحبه ، ولهذا أيضاً فسأنشر فى القسم الأوروبى من المجلد التالى — الرابع عشر — من الصحيفة ترجمة إسبانية لهذه القطعة مع تقديم مناسب للمقام .

وقد زودت النص بحواشٍ ضافية ، وأشرت فى كل موضع إلى الفقرات التى وردت فى أصول أخرى وإلى المعلومات الجديدة التى يزودنا بها ، وهذه المعلومات الجديدة فى مجموعها قليلة ، ولكنها على جانب عظيم من الأهمية ، فهى أحياناً تصحح لنا ما ورد على صورة غير صحيحة فى المراجع المعروفة لنا ، وأحياناً أخرى تكمل نصوصاً نقلت مبتورة ودرجنا على قراءتها فى صورة شائهة ، وهى تتضمن أحياناً ثالثة إشارات جديدة حقاً وذات نفع كبير مثل إشارة المخطوط إلى خراج قرطبة وكلامه عن الشيوخ المقلّسين ودورهم فى الإدارة العامة للبلاد .

وواضح من النص أن صاحبه اطلع على الجزء الخاص بالأندلس من جغرافية العذرى ، فهو يشير إليه باسمه ، ولكنه فى كلامه عن أقاليم قرطبة يصحح قراءة بعض اسمائها ثم يضيف تفاصيل جديدة عن التقسيم الإدارى للاندلس كما قلنا ، فهو يذكر إلى جانب القرى مصطلحين جديدين هما الحصون والأبراج ، وهو لا يذكرها على أنها مجرد منشآت عسكرية ، بل على أنها أقسام إدارية توجد فى كل إقليم تقريباً ، فهو يقول مثلا :

« ثم إقليم الصدف ، وفيه ثمانية حصون وعشرون برجاً وثمانية وعشرون قرية .

ثم إقليم بنى مسرة ، وفيه ثلاثة عشر حصناً وسبع عشرة قرية وستة بروج . . . » ، وهكذا .

وقد اجتهدت فى تعرف حقيقة البرج والحصن كأقسام إدارية على مثال ما فعلت فى بيان حقيقة القرية والجزء فى بحث سابق ، ولكنى رأيت أنه لابد من مراجعات طويلة لكل ما لدينا من مادة جغرافية عن الأندلس حتى نستشف المعنى الصحيح لهذين المصطلحين .

وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب يشترك مع العذرى فى الكلام عن الأقاليم وأقسامها ، ويزيد عليه فيذكر الأبراج والحصون ولكنه يُسقط الأجزاء فكأنه أخذ عن نفس المصادر التى أخذ منها العذرى نفسه وتصرف فى المادة المقتبسة

وفق المنهج الذى رسمه لنفسه . ولا نستطيع أن نقول إن هذا النص يعدِل نصَّ العذرى فى القيمة ، فإن الأول كنز زاخر بالمعلومات الأصيلة النافعة ، ولكنه يكمل مادة العذرى ويزيدها وضوحاً فى مناسبات كثيرة ، وفى هذا — على ما أظن — كفاية .

ويمكن تقسيم مادة هذا النص عن قرطبة إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

الأول معلومات عامة عن مدينة قرطبة ، تتضمن جانباً من العبارات التقليدية التى يوردها المؤلفون فى تعظيم قرطبة نقلا عن ابن حيان والرازى وابن بشكوال ومن فى طبقتهم ، ثم يورد بعد ذلك تفاصيل هامة عن أحياء قرطبة وسورها وأبوابه وقنطرتها وما إلى ذلك .

والقسم الثانى يدور حول المسجد الجامع وتاريخه ووصفه وإحصاء ما فيه من بلاطات وأعمدة وثريات وأبواب وما أشبه . ويدخل فى هذا كلام طويل عن المنبر والصومعة (المئذنة) يشبه ما نجده فى نفح الطيب ، ويزيد عليه أشياء ذات قيمة ، ولا غرابة فى هذا التشابه ، فان مرجع الاثنين واحد وهو ابن بشكوال .

والقسم الثالث يدور على كورة قرطبة وأقاليمها وأجزائها ، وقد سبقت الإشارة إليه .

ونحن ننشر هذا النص اليوم راجين أن نستطيع نشر بقية الجزء الجغرافى من الكتاب كله فى عدد قادم من هذه الصحيفة ، فهو جدير بذلك نظراً لما يحتوى عليه من المادة القيمة ، وإنما قدمنا القسم الخاص بقرطبة لأن نفراً من إخواننا الباحثين أَلَحّوا علينا فى سرعة نشره لحاجتهم إليه فى أبحاث بين أيديهم .

وهذا هو والله المستعان سبحانه :

الخبر عن مدينة قرطبة ومحاسنها

جبرها الله تعالي وأعادها للاسلام بمنه

(١) [١١ ب] ... أما قرطبة فهى قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم، وأم مدائنها ومسكنها(٢)، ومستقر الخلفاء، ودار المملكة فى النصرانية والإسلام، ومدينة العلم، ومقر السنة والجماعة. نزلها فيما نُقل رجل من الصحابة(٣) وجملة من [١٢ ا] التابعين، رضى الله عنهم أجمعين(٤).

وهى(٥) على ضـ[ـفة] النهر الأعظم، متوسطة بين بلاد شرق الأندلس وبلاد غربها، وهى مدينة عظيمة أزلية من بنيان الأوائل، طيبة الماء والهواء، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى(٦) والحصون والميـاه والعيون من كل جانب، وعليها المحرث العظيم الذى ليس فى بلاد الأندلس مثله ولا أعظم منه بركة.

وبها معدن الفضة ومعادن كثيرة، ومن بعض غرائبها حجر الغاز(٧) الذى

(١) هذه الفقرة كلها موجودة فى نفح الطيب المقرى (٢/٨) وقد نسبها المقرى إلى « بعض العلماء » ولم يذكر مؤلف كتابنا هذا عمن أخذها.

(٢) كذا فى الأصل، وفى النفح « مساكنها » وهو أصح.

(٣) الكلام من لفظ « فيما » غير وارد فى النفح.

(٤) لم يورد المقرى لفظ أجمعين، ولكنه أضاف: ويقال نزلها بعض الصحابة، وفيه كلام. أى أنه ينكر القول بأنه نزلها بعض الصحابة.

(٥) أورد المقرى فى النفح (٢/٨) هذه العبارة أيضاً، ولكنه اختصر منهـا فلم يورد من قوله إلا: وهى مدينة عظيمة أزلية.

(٦) الأصل: القرا.

(٧) كذا فى الأصل بوضوح، ولم أجد له ذكراً فى المعاجم وربما كانت صحته حجر العقاب أو حجر النار اللذين ورد ذكرهما فى مفردات ابن البيطار. انظر دوزى، ملحق القواميس، ٢٠٢/١

بجهة قرية بسطانة ، فانه من أنفع شيء للخنازير إذا سحق وذرى عليها ، قاله ابن الجزار فى كتاب عجائب الدنيا(١) .

وذكر الرازى قرطبة فقال : هى أم المدائن وسرة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث ، والجاهلية والإسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وهو يخرج من جبال شقورة ، وعليها(٢) قنطرة عظيمة عجيبة البناء ، بناها السَّمح(٣) بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وهى أحد غرائب الأرض فى الصنعة والإحكام . ومن فضائلها جامعها الذى ليس فى بلاد الإسلام أكبر منه(٤) .

وقال الدولائى(٥) فى كتابه : قرطبة هى الغاية ومركز الراية وأم القرى ،

---

(١) ينفرد نصنا بهذه العبارة التى نقلها عن ابن الجزار . والدواء الذى يصفه ابن الجزار للخنازير يدل على سعة أفق ، فإنه يبدو لنا من الغريب أن يصف طبيب مسلم دواء للخنازير مع نفور المسلمين منها واستقباحهم تربيتها ، وليس هذا غريبا من ابن الجزار ، فهو دون منازع أعظم من أطلعه المغرب العربي من الأطباء ، فهو قيروانى المولد والدار والوفاة ، واسمه الكامل أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد ويعرف بابن الجزار ، وكان معاصراً للقاضى ابن النعمان فى المغرب وعلى هذا فهو من أهل القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى . انظر عنه : عيون الأنبـاء فى طبقات الأطباء ، الباب الثالث عشر ، أطبـاء افريقية والأندلس ، بتحقيق نور الدين عبد القادر والدكتور هنرى جاهيه . الجزائر ١٩٥٨ ، ص ٩ — ١٥ ، ولم يرد ذكر كتاب عجائب الدنيا بين ما أورد ابن أبى أصيبعة من مؤلفات ابن الجزار .

(٢) كذا ، وصحته ، وعليه أو وعليه عندها .

(٣) هو السمح بن مالك الخولانى ، ولى الأندلس من رمضان ١٠٠ إلى ذى الحجة ١٠٢ (مارس — أبريل ٧١٩ — يونيه ٧٢١) .

(٤) إلى هنا تنتهى عبـارة الرازى ، وقد أوردها المقرى فى النفح (طبعة محي الدين ٢/٨) ولكنه بترها فى أكثر من موضع فأضاع نظامها ، وهذا شأنه فى معظم ما ينقل عن الآخرين .

(٥) المقصود الدلائى وهو أحمد بن عمر بن أنس العذرى الفقيه المحدث الجغرافى صاحب كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار المعروف بجغرافية العذرى ، وقد نشر معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد قطعاً منه عثر عليها وحققها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى بعنوان « نصوص عن الأندلس » سنة ١٩٦٥ وهذه الفقرة ليست بين الفقرات الخاصة بقرطبة الواردة فى ذلك الكتاب .

وقرارة أهل الفضل والتقى[١] وقلب الإقليم[٢] ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام وحضرة الامام[٣] .

وقال ابن حيان : قرطبة دار ملك بنى أمية ولذريق الرومى قبلهم ، وهى مدينة زرع وضرع ، وبهـا من أنواع الفواكه ما لا يحصى ، داخلها مليح وخارجها عجيب فسيح ، ومنظرها بهىّ مشرق وشكلها بديع مُوَنَّق ، عذبة المياه ، معتدلة [١٢ ب] الهواء ، حفت بأرجائها أشجار ملتفة وحدائق جمة ، وهى منزل التابعين والرواة المحدثين ، وأهلُها أهل السنة والجماعة ، وهى دار الخلافة وقطب الملك ، وفخر بلاد الأرض ، نزلها من الصحابة رجلان وقيل ثلاثة[٤] .

واتصلت العمارة بها فى أيام بنى أميـة ثمانية فراسخ طولا ، وفى عرضها فرسخين ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون ميلا فى الطول وستة أميـال فى العرض[٥] ، كل ذلك ديار وقصور وبساتين ومساجد وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير ، وليس بالأندلس نهر يسمى باسم عربى غيره .

ولم تزل قرطبة فى الزيادة من حين فتحها الإسلام ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين من الهجرة إلى سنة أربعمائة منهـا ، ثم لم تزل تحط[٦] وتخرب إلى

---

(١) الأصل : التقا .

(٢) ورد فوق هذا اللفظ قا ، فكأن الناسخ أراد أن يجعل اللفظ الأقاليم .

(٣) أورد المقرى فى النفح (٢/٩) هذه العبارة كلها ، ولكنه نسبها إلى الحجارى ، فكأن هذا الأخير نقلها عن العذرى . والفقرة كما يوردها المقرى أكثر تفصيلا ، وكلها على أى حال عبارات بلاغية لا يتحصل منها شىء محدد .

(٤) هذا الكلام لا يشبه كلام ابن حيان ، ولا ندرى من أين استقاه . ومهما كانت حقيقة أصل العبارة فاننا نعتقد أنها تنتهى هنا ولو أن المؤلف لم يشر إلى ذلك .

(٥) الميل العربى كيلومتران تقريباً ، ومعنى هذا أن طول قرطبة كان ٤٨ كيلومترا وعرضها ١٢ ، وهذا لا يصدق إذا كان المقصود مساحة المدينة . ويمكن قبول هذا التقدير على أنه مساحة المدينة وحوزها أى ما يتبعها إدارياً ومالياً من القرى والأراضى ، وقد بقى لفظ الحوز فى المصطلح الزراعى الإسبانى : el alfoz . ويؤكد هذا التفسير ما سيقوله المؤلف نفسه فى فقرة قادمة .

(٦) كذا ، والأصوب هنا : تنحط .

أن ملكها العدو النصرانى دمّره الله تعالى ، وذلك فى الثالث والعشرين لشوال من سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة .

وكان تكسير مدينة قرطبة ومساحتها التى دار السور عليها دون الأربُضِ طولا من القبلة إلى الجوف ألف وسبعمائة ذراع ، وعرضها من المشرق إلى المغرب ألف وأربعمائة ذراع .

ولها سبعة أبواب ، أولها باب القنطرة وهو القبلى ، وخارج هذا البـاب جنات كثيرة ونواعر وأرض وبساتين متصلة .

ثم باب الحديد وهو شرقى .

ثم باب اليهودى وهو جوفى .

وباب عامر وهو غربى ، وكان قد نزل قريباً منه عامر بن عمرو بن وهب ابن أبى [عُزيز] زرارة بن عمر بن هاشم بن عبد مناف(١) فنسب إليه .

وباب العطارين(٢) ، وهو . . .

[وباب عبد الجبار(٣)] منسوب إلى عبد الجبار بن خطاب وهو [١٣ ا] مولى معاوية بن مروان ، وكان قد نزل قريباً منه فنسب إليه .

وباب الجوزة(٤) .

(١) ورد الاسم فى الأصل مشوهـاً فصححته على رسمه الكامل كما ورد عند العذرى (انظر نصوص عن الأندلس بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، منشورات معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ١٩٦٥ ص ١٢٢) ففى نصنـا هذا ورد عمر بدل عمرو وأبو زرارة بدل أبى عزيز زرارة وهشام بدل هاشم : وقد اقتضب المؤلف الاسم فى أكثر من موضع .

(٢) هذا آخر سطر فى الصفحة وهو مطموس على نحو تعسر معه القراءة ، ولم أستطع استجلاء بعض الألفاظ إلا بشق النفس . ويلاحظ هنا أن البيان الذى أورده العذرى عن أبواب قرطبة لا يضيف شيئاً فى التعريف بباب العطارين . وإنما يرد فيه بعد فراغ بقدر كلمة : وهذه الأبواب المفتحة هى خمسة .

(٣) أضفت هذه العبـارة بين حواصر للسياق ، وقد قبستها من بيان أبواب قرطبة للعذرى (نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٢) وقد ورد عنده لفظ هارون بدل مروان .

(٤) الأشهر : الجوز . عن أبواب قرطبة انظر الدراسة التى نشرها مانويل أوكانيـا خيمينيث فى مجـلة الأندلس Manuel Ocaña Jimenez, *Las Puertas de la Medina de Cordoba;* al-Andalus, III, 1935, fsc. 1 pp: 143-151.

ودَوْر قرطبة[١] المسور بطول الأربض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ودور قصر إمارتها ألف ذراع[٢] ومائة ألف ذراع .

وللقصر من الأبواب ستة أبواب ، أولها باب السَّدة[٣] ، وباب الجِنان وباب العدل وباب الصناعة ، وباب الملك وباب الساباط ، ومنه كان يخرج الامام من بنى أمية إلى المسجد الجامع[٤] .

وعدد أرباضها المحيطة بها أحد وعشرون ربضاً ، كل ربض منها يزيد عرضه وطوله على الميل ، وفى كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره . فأول ربض منها ربض شقندة[٥] ، ثم ربض منية [عجب][٦] ، ثم ربض الريحـانى[٧] ، ثم الرقاقين ، ثم ربض مسجد الكهف ، ثم ربض بلاط مغيث ، ثم ربض مسجد مسرور ، ثم ربض الروضة ، ثم ربض الأبورى[٨] ، ثم ربض مسجد الشفاء ، ثم ربض مسجد مسرور[٩] ثم ربض الروضة[١٠] ، ثم ربض السجن القديم ، ثم ربض باب اليهودى[١١] ، ثم[١٢] ربض الرصافة ، ثم ربض شَبُلَار ، ثم ربض فرن بريل[١٣] ، ثم ربض

---

(١) هذه العبـارة عند العذرى مقتضبة بعض الشيء فى جزئها الأول (نصوص ، ١٢٢) . ولكنه يذكر بعد ذلك من التفاصيل القيمة ما لم يورده مؤلفنا هنا .

(٢) عند العذرى « ألفا ذراع » وقد كتب المحقق إلى جانبها [كذا] .

(٣) هكذا بفتح السين والمشهور بضمها مشددة ، وهو كذلك عند العذرى (نصوص ، ١٢٣) وربما كان فتح السين أصح .

(٤) العبارة واردة عند العذرى باختلاف طفيف .

(٥) المؤلف ينقل هنا عن ابن بشكوال كما رواه العذرى ، وقد اختصر الكلام .

(٦) أسقط المؤلف أو الناسخ هذا اللفظ .

(٧) الأصح حوانيت الريحان .

(٨) كذا ، والمعروف فى بقية المراجع : ربض حمام الإلبيرى .

(٩) فى نفح الطيب (٢/١٣) مسجد السرور .

(١٠) فى النفح (٢/١٣) مسجد الروضة ، وفى نسخة أخرى : ربض الروضة .

(١١) المشهور ربض باب اليهود .

(١٢) هنا سقط اسم ربض مسجد أم سلمة ، لا ندرى من المؤلف أو من الناسخ .

(١٣) هنا يبدو أن لفظ بريل استعصى على الناسخ فرسم مكانه هيئة ذات عقد أقرب قراءة لها هى : بالى .

الفرج[١] ، ثم ربض منية عبد الله ، ثم ربض المغيرة[٢] ، ثم ربض الزاهرة[٣] ثم ربض المدينة[٤] ، ثم ربض العدوة . وقصبة الملك بوسط هذه الأربُض .

وأحصيت[٥] دُور قرطبة التى بها وبأرباضها فى أيام الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر فكانت مائة ألف دار . . .[٦] وثلاثة عشر ألف دار وسبعة وسبعين داراً ، وهذه دور الرعية ؛ أما دور الأمراء والأكابر والوزراء [١٣ ب] والرؤساء والقواد والكتاب والأجناد وخاصة الملك ، فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصارى[٧] الكراء والحمامات والخانات[٨] .

وكان بها من المساجد ثلاثة عشر ألف مسجد وثمانمائة مسجد ونيف وسبعون مسجد . وكان بربض شقندة خاصة ثمانمائة مسجد[٩] .

وكان عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام وسبعمائة حمام وأحد عشر حماماً .

---

(١) الشائع المعروف : البرج .

(٢) المشهور منية المغيرة .

(٣) فى الأصل الزهرة ، وقد صوبتها لأن هذا الحى منسوب إلى الزاهرة مدينة محمد بن أبى عامر .

(٤) عند ابن بشكوال برواية النفح (٢/١٣) المدينة العتيقة .

(٥) وردت نفس الفقرة فى نفح الطيب (٢/٧٩) منسوبة إلى « بعض العلماء » .

(٦) هنا كلمة غير مقروءة طمس الحبر جزءاً منها ، يمكن قراءتها هكذا مثان ، ويلاحظ هنا أن نفح الطيب يذكر ٢٠٠٠٠٠ لا ١٠٠٠٠٠ ومن هنا فمن الممكن أن تكون قراءة هذا اللفظ [أو] مئتان .

(٧) مصارى جمع مصرية ويراد بها الغرفة الصغيرة أعلى البيت أو فوق الدكان ، وتكون فى البيوت معزولة عن بقية المسكن يدخل إليها من الدهليز لأنها كانت تخصص للخدم ، وهى بناء على ما ورد فى ملحق القواميس لدوزى من أصل لاتينى ترجع إلى Solarium أى غرفة مكشوفة للشمس ، ولكن العلاقة بين مصرية وسولاريوم فى رأينا بعيدة ، وربما كانت منسوبة إلى مصر . انظر ملحق القواميس لدوزى ٢/٩٧

(٨) هذه العبارة واردة بنصها عند المقرى منسوبة إلى بعض العلماء (٢/٧٩ — ٨٠) .

(٩) من الواضح أن قول المؤلف أن عدد المساجد كان ١٣٨٧٧ وهم منه ، فقد خلط بين عدد الدور وعدد المساجد . وقد وردت الفقرة نفسها عند المقرى (٢/٧٩) . ولكن ورد فيها أن عدد المساجد كان ٣٨٧٧ وهو تقدير غير معقول أيضاً . ومن الطريف أن الكثيرين من المؤلفين القدامى لم يكن لديهم تصور سليم للأرقام .

وكان بها من الفنادق والخانات ألف وستمائة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزاب[١] والغرباء وغيرهم .

وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت وأربعمائة واثنان وخمسون حانوت .

وانتهت دور قصرها الكبير[٢] الذى ينزله الخلفـاء والملوك [إلى] أربعمائة دار ونيف وثلاثين دار ، كلها للملك وحُرَمه وفتيانه .

وانتهى عدد الصقالبة الذين يخدمون القصر ويحرسونه ويحرسون أبوابه [إلى] ستة آلاف صقلبى وسبعمائة وستة وثمانين صقلبياً .

وكمل فيه أيام الناصر لدين الله الأموى من النساء والجوارى الرواشد والخدام والطباخات ستة آلاف وثمانمائة وأربعة عشر امرأة .

وكان لهم من اللحم فى كل يوم جراية ثلاثة عشر ألف رطل ، سوى ضروب الصيد والحوت .

وكان عدد الصقالبة بالزهراء ثلاثة آلاف خصى وتسعمائة وخمسين خصياً . وكانت جرايتهم من اللحم فى كل يوم دون أرامل القصر ستة آلاف وثمانية رطل سوى الصيد وأصناف الطير والحوت [١٤ ا] وكان فى كل يوم لحيتان بحيرة الزهراء إثنا عشر ألف خبزة ، وينقع لهم مع[٣] الخبز المذكور ستة أقفزة من الحمص الأكحل .

وكان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية [فى كل منها] منبر [يخطب عليه] مقلس[٤] ، وهو الفقيه المشاور الذى تكون له الفُتْيَـا فى الأحكام والشرائع ،

---

(١) لفظ « العزاب » هنا يستوقف النظر ، فهو يدل على أن الأعزب المفرد لم يكن يستطيع السكنى وحده بين الأسرات والمساتير .

(٢) يبدو أن المراد بالقصر الكبير هنـا مدينة الزهراء ، فإن كل التفاصيل والاحصائيات التى سترد فيا بعد واردة فى نفح الطيب (٢/١٠٢) خاصة بمدينة الزهراء ، وبعضها منسوب إلى ابن حيان .

(٣) فى الأصل : من ، ولا يستقيم بها الكلام ، وتصويبنا يتفق في المعنى مع ما ورد فى نفح الطيب ٢ / ١٠٢

(٤) أدخلت هذه الزيادات بين أقواس ليستقيم السياق .

وكان لا يجعل القالس[١] عندهم على رأسه إلا من حفظ المدونة وحفظ عشرة آلاف حديث بأسانيدها عن النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هؤلاء المقلسون الذين بالقرى والعلماء المجاورون لقرطبة إذا كان يوم الجمعة أتوا إلى قرطبة فيصلّون بها مع الخلفاء ويسلمون عليهم ويطالعونهم بأحوال بلادهم .

وانتهت جباية قرطبة وأحوازها فى أيام الخلفاء وأيام المنصور بن أبى عامر ثلاثة آلاف ألف دينار بالحق والعدل ، وذلك ثلاثة بيوت مال فى السنة[٢] كان ذلك فى أيام الناصر لدين الله تعالى وأيام ولده الحكم وأيام هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر .

ثم حطت بعد الأربعمائة سنة الماضية للهجرة وخرب أكثرها ، فكان عدد دورها فى أيام لمتونة والمرابطين والمصامدة الموحدين مائة ألف دار وثلاثة عشر داراً للرعية ، ودور أهل الدولة والخدام والأجناد ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ، ونقصت حماماتها إلى سبعمائة حمام وأحد عشر حماماً ، وأفضت مساجدها إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مسجد وسبعة وسبعين مسجداً .

أما جامعها الأعظم فلم يكن فى جميع بلاد الإسلام [. . . .][٣] [١٤ ب] اثنى عشر ملكا من بنى أمية ، وزاد فيه الحكم المستنصر بالله زيادة حسنة ، وحيثما

(١) المقلس هو لابس القالس ، والقالس هو القلنسوة ، وتسمى القلنسوة أيضاً قلوسة (بتشديد اللام) وجمعها قلاليس ، وفى الأندلس كان المقلس هو الفقيه الكبير الذى يجوز له الافتاء كما يقول عبد الواحد المراكشى تأييداً لكلام مؤلفنا هنا ، ويكتب المقرى اللفظ بالصاد فيقول مقلص ، وانظر دوزى . ملحق القواميس ٢/٣٩٥

(٢) العبارة هنا معضلة . فنحن لا نعرف المراد بقوله ثلاثة بيوت مال فى السنة ، فهل المراد بذلك أن هذا المبلغ يدفع على ثلاث دفعات كل منها مليون دينار ؟ إن المعروف أن المال كان يجبى فى الأندلس على دفعتين تباعاً لأوقات المحاصيل . ولكن هذه العبارة على أى حال أكثر فائدة من عبارة المقرى فى هذا الصدد (٢/١٤٠) .

(٣) سطر آخر الصفحة مطموس على صورة يصعب معها قراءة شيء فيه .

اجتمعت منه أربع سوارى كانت رؤوسها رأساً واحداً(١) من حجر واحد من رخام منقوش مُحَشى بالأزورد والذهب فى أعلاها وأسفلها . ولم يُبْنَ(٢) فى الإسلام مثله وانفق(٣) فيه وزاد فيه كثيراً الحاجب المنصور بن أبى عامر . زاد فيه ثمانى بلاطات ، من الجانب الشرقى منه .

الخبر عن جامع قرطبة

جبرها الله ، وقدر مساحته كما حُكِىَ من خَبَرِه

قال صاحب التاريخ ، عفا الله عنه :

ذكر ابن عتاب عن عُبيد الله الزهراوى عن شيوخه(٤) إن موضعَ جامع قرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وأدفانهم وجِيَفِهم ، فلما قدم سليمان بن داوود عليهما السلام بلاد الأندلس مر على قرطبة ، فنزل بأزائها ، فرأى تلك الحفرة فوقف عليها ، ثم قال للجن اردموا هذا الموضع وعدلوه فسيكون به مسجد يُعبَد الله تعالى فيه . ففعلت الجن ما أمرها به نبى الله سليمان . فلما فرغوا من موطئته(٥) وتسويته أمرهم أن يبنوا مسجداً ، فبنوه ، وجعل به من يعمره من أحبار بنى اسرائيل ويقيموا فيه أحكام

---

(١) ورد بعض ألفاظ هذه العبارة ممحوا فى الأصل وقد اعتمدت فى تقويمها على نصها الوارد فى نفح الطيب (٨٣/٢) ، ومن أسف أنه هذه المرة أيضاً ينسبها إلى « بعض المؤرخين » مهملا اسم المؤلف ، ويغلب على الظن أن الكتاب وصل المقرى نفسه دون اسم المؤلف . والعبارة بعد ذلك غير صحيحة المعنى ، فإن المقصود أنه كلما اجتمعت أربعة اقواس كان رأسها واحداً ، وهذا هو الصحيح ، أما أن يكون رأس كل أربع سوار (السارية هى العمود) واحداً فلا يستقيم .

(٢) الأصل : يبنا .

(٣) هذه الكلمة ليست واضحة فى الأصل .

(٤) روى المقرى فى النفح (٩٩/٢) هذا الخبر بتفصيل طفيف ونسبه إلى ابن بشكوال .

(٥) كذا فى الأصل بوضوح ، ولم نشهد هذه الصورة لهذا اللفظ فى هذا المعنى وربما تكون صحته توطئته أو تغطيته .

[الثوراة] والزبور [وبقى] كذلك إلى أن بعث الله عيسى [١٦ ا] — عليه السلام — ونشر دين النصرانية ، فصار ذلك المسجد كنيسة للنصارى يعبدون الله تعالى فيها ويقرأون الإنجيل إلى أن فتح الأندلس الإسلام ، ودخل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير قرطبة ، فأمر ببنـاء المسجد الجامع المذكور فى نصف تلك الكنيسة ، فبني ، وبقى النصف الثانى كنيسة بأيدى نصارى الذمة(١) .

فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ولى الامام عبد الرحمن بن معاوية الداخل الأندلس ، فاشترى النصف الثانى من الكنيسة وزاد فى الجامع المكرم وأتقنه وأنفق فى بنائه مائة ألف دينار بالوازنة(٢) .

ثم زاد فيه وحسَّن بناءه ولده هشام وحفيده الحكم .

ثم زاد فيه عبد الرحمن بن الحكم الأميرُ زيادة كثيرة : كانت أقواسه القديمة التى بنـاها جده عبد الرحمن الداخل وولده هشام ومَن كان قبلهما من الأمراء(٣) تسعة أقواس ، فزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بهواً من جهة المشرق وبهواً من جهة المغرب ، فأكملها أحد عشر قوساً ، وأعْلَى سقفه وبناه بالآلات العجيبة ، وجعل سعة كل بهو منها تسعة أذرع ونصف ذراع . وأكمل أبواب

(١) دلت الحفائر على أن موضع مسجد قرطبة الجامع لم يكن فيه كنيسة أو أى بناء قبل إنشاء الجامع . أما القول بأنه كانت هناك كنيسة اشترى المسلمون نصفها ليجعلوه مسجداً ، ثم اشترى عبد الرحمن الداخل نصفه الثانى لينشىء جامعه فأسطورة نشأت حول قداسة الجامع وموقعه كما نرى فى هذا التاريخ الطويل للجامع الذى يرويه المؤلف عن ابن عتاب وغيره ، وقد حرص المؤرخون المتأخرون على ترديد هذا القول بعد ضياع قرطبة وتحول الجامع إلى كنيسة .

انظر : Cf: Manuel Gómez Moreno, *El Arte Español hasta los Almohades* en Ars Hispaniae, vol. III, Madrid, 1951, pp. 19-20.

(٢) هذه العبارة غير صحيحة ، إذ أن الذى بدأ بناء جامع قرطبة كان عبد الرحمن الداخل ، ولا يد لأحد من الأمراء — أى الولاة — قبله فيه .

(٣) المشهور أنه أنفق في بنـائه ٨٠٠٠٠ دينار واشترى موضعه بمبلـغ ١٠٠٠٠٠ دينار (انظر نفح الطيب ٢/٨٣) .

الجامع سبعة أبواب ، عرضُ كلِّ باب منها خمسة أذرع ، وجعل طول الزيادة من حَدِّ الأرجل إلى منتهى القبلة تسعةً وأربعين ذراعاً ، وجعل عرض الأرجل الراسية فى المسجد خمسة أشبار .

وزاد فى جوفيه سقيفة للنساء عدد سواريها ثلاثة وعشرون سارية ، وذلك سنة أربع وثلاثين ومائتين .

ثم زاد فيه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله [رحمه الله] تعالى [١٥ ب] أحد عشر بلاطة ، ونقل المحراب القديم إلى موضعه الآن واتقنه وزيَّنه وأنفق فيه أموالا جليلة ، وصنع به منبراً عظيماً مؤلفاً من الأبنوس والصندل الأحمر والأصفر والنَّبع(١) والعناب والشَّوْحَط(٢) والبقَّم(٣) ، ونصبه بالمقصورة .

ثم كان آخر من بناه واتقنه وزينه وزاد فيه على ما كان بناه الخلفاء قبله بحَدِّ النصف الحاجبُ المنصور محمد بن أبى عامر . ابتدأ بالبناء فيه فى غرة رجب من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وصلى الناس فيه فى رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، وكان العمل فيه نحوا من سنتين ونصف ، وخدَّم فيه رحمه الله وجوه أعيان الجلالقة والأفرنج والرمانيين(٤) من النصارى ، يعملون مع الصناع مصفدين فى الحديد إلى أن كمل بالبناء ، وصنع فيه الجباب لاستقرار مياه المطر تحت صحن الجامع المذكور ، فكمل على اتقن شيء .

فجعل طول الجامع المذكور من القبلة إلى الجنوب ثلاثمائة ذراع وسبعة

---

(١) النبع شجر صلب الخشب تتخذ منه السهام والقسى .

(٢) شجر من فصيلة النبقيات شائك جداً ، وله ثمر يشبه حب الزيتون ، أجوده الأحمر الحلو ، يستعمل مأكلا وعلاجا .

(٣) شجر من فصيلة القطانيات ، ورقه كورق اللوز وساقه حمراء ، يحتوى خشبه على مادة ملونة تستعمل فى الصباغة .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعل صحتها الرمانيين .

وأربعين ذراعاً ، وعرضه مائتان وخمسون ذراعاً [1] وتكسير أرضه حرث مُدَّيْن وقفيز وثلث قفيز . وقيل إن تكسير أرضه بالمساحة إحدى عشر قفيزاً وثلث قفيز بالقرطبي [2] .

وعدد بلاطاته المسقفة تسعة عشر بلاطاً ، وعدد أبوابه الصغار والكبار خمسة وثلاثون باباً . والكبار منها أحد وعشرون باباً والصغار باقيها ، منها فى الجانب الغربى سبعة وفى الشرقى تسعة وفى الجوفى عشرة ، وباقيها فى القبلة حيث باب الساباط الذى يدخل منه الخلفاء .

والأبواب الكبار منها كلها مغشاة بصفائح النحاس المملوء بالذهب .

[١٦ ا] وعدد سواريه الحاملة لسقفه واللاصقة ببنائه ومحرابه ومناره ما بين كبار وصغار ألف سارية وأربعماية سارية وتسع سوارى ، منها بداخل المقصورة مائة سارية وتسعة عشر سارية ، ومنها فى الصومعة من خارجها وداخلها مائة

---

(١) عند العذرى ، طول الجامع ٣٣٠ ذراعاً والعرض ٢٣٠ ذراعاً (نصوص عن الأندلس ، ١٢٣) . والمعروف أن طول الجامع حالياً ١٧٧ متراً وعرضه ١٢٧,٦٠ متراً : وتقدير مؤلفنا على هذا قريب جداً من الصحة ، لأن الذراع الذى يستعمله فى القياس هو الرشاشى وهو كان المستعمل فى الأندلس والمغرب . طوله ٥٤,٠٤ سنتيمتراً .

وعلى هذا فإن تقدير العذرى أقرب إلى الصحة من تقدير مؤلف كتابنا هذا وإليك جدولا للمقارنة بالأمتار على أساس أن الذراع المستعمل هنا هو الرشاشى .

	الحـــالى	العذرى	المؤلف المجهول
الطول	١٧٧	١٧٨,٣٣	١٨٧,٥١
العرض	١٢٧,٦٠	١٢٤,٢٩	١٣٥,١٠
المساحة	٢٢٥٨٥,٢٠	٢٢١٦٤,٦٥	٢٥٣٣٢,٦٠

(٢) هذا التقدير خطأ قطعا لأن القفيز ١٥٩,٢ متراً مربعاً فالمساحة على هذا التقدير ١٧٩٨,٩٦ متراً مربعـاً وهو محال لأن المساحة الحقيقية كما تبين من التعليق السابق ٢٢٥٨٥,٢٠ متراً مربعاً ، وأقرب للصحة أن يقال ١١١,٣٠ قفيزاً ، فتكون المساحة ١١١,٣٠ × ١٥٩,٢ أى ١٧٩٨٩,٦٠ متراً مربعاً ، وهذا قريب من مساحة الصحن المسقوف .

وأربعون سارية ، ومنها الحاملات لسقف البلاطات وما اتصل بها ألف سارية ومايتان وثلاث وخمسون سارية[(١)] .

وسعة المنار من كل وجه من تربيعه ثمانون شبراً ، وارتفاعه إلى حيث يقف المؤذن ماية وستون ذراعاً . والصومعة القديمة طولها أربعة وخمسون ذراعاً ، وعرضها فى كل تربيع ثمانية عشر ذراعاً ، وعدد أدراجها[(٢)] فى الشق الأيمن ماية درجة وسبع درجات ، وفى الشق الأيسر ماية درجة وعشر درجات .

وعدد ثرياته الصغار مايتان وخمس وثلاثون ثرية ، فى كل ثرية منها ستة أكواس . وعدد ثرياته الكبار تسعة وثمانون ثرية ، منها فى الصومعة خمس[(٣)] ، ومنها فى بلاط القبلة أربع ، وهى أعظمها ، تحمل كل ثرية منها سبعة أرباع من الزيت تحترق فيها فى ليلة واحدة . ومنها فى المقصورة ثلاث ثريات من فضة مخلصة ، تحمل كل ثرية منها ثمانية عشر رطلا من الزيت .

ويحترق بالجامع المذكور أعاده الله للإسلام من الزيت فى كل سنة فى الثريات المذكورة ألفا ربع وثلاثون ربعاً ، منها فى شهر رمضان خاصة دون أشهر السنة خمسمائة ربع كاملة .

وصنع[(٤)] فيه منبراً عظيماً فيه ستة وثلاثون [١٦ ب] ألف وصل[(٥)] ، قام

---

(١) هذه الحسبة لاتستقيم لأننا لو جمعنا أعداد سوارى المقصورة والصومعة والحاملة لسقفه وما اتصل بها كما يذكرها هو لكان المجموع ١٥١٢ سارية أو عموداً فى حين أنه يقول إن العدد الكلى للأعمدة ١٤٠٩ ، ويذكر العذرى (نصوص ، ١٢٤) أن مجموع عدد السوارى فى المسجد كله ١٣٠٧ .

(٢) المراد درجاتها .

(٣) الأصل خمسة ، والمؤلف يخطىء فى تمييز العدد كثيراً جداً ، وسأصوب ما يصادفنا منه دون إشارة .

(٤) يبدو أن الفعل فى الأصل كان بصيغة المبنى للمجهول ولكن السياق سار بعد ذلك على المبنى للمعلوم دون أن يذكر الف عل . وقد تركته على حاله .

(٥) ورد اللفظان مبهمين فى الأصل وقد أكملتهما مما أورده المقرى فى النفح (٢/ ٨٩) من كلام ابن بشكوال برواية ابن سعيد فى صفة الجامع . والمؤلف هنا ينقل عن ابن بشكوال رأساً ولكنه يختصر الكلام ويتصرف فيه . والوصل أو الوصلة هى قطعة الخشب التى تدخل فى عمل منبر أو سلم أو باب أو سفينة ، فقد تكون لوحا كبيراً أو قطعة صغيرة تستعمل للتحشية والزينة ، مما كان يسمى فى المصطلح =

كل وصل منها بسبعة دراهم ، وكل منها مؤلف من أنواع الخشب الرفيع كالعود الرطب وغيره ، والأوصال كلها مسمرة بمسامر[1] الذهب والفضة ، ومنها ما هو مكوكب الرأس بالجوهر ونفيس الأحجار ، لم يصنع فى الإسلام منبر أحسن منه . وعدد درجاته تسع درجات ، وخُدِم فيه خمسة أعوام ، وأنفق فى عمله ثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسمائة دينار[2] وثلاثة دراهم .

وعدد الخُدَّام والقَوَمة والمؤذنين فيه فى زمان الخلفاء وأيام المنصور بن أبى عامر ثلاث ماية[3] رجل .

وعدد قومته فى أيام الفتنة سبعة وثمانون رجلا .

وليس بالأندلس ولا فى بلاد الإسلام جامع أكبر منه .

وصنع فى القبة التى فى وسط الجامع ، حيث كان المحراب القديم ، ثرية عظيمة دَوْرُهَا خمسون شبراً تحتوى على ألف كأس وأربعة وثمانين كأساً[4] مموهة كلها بالذهب .

وتحتوى ثريات الجامع كلها بين صغار وكبار والتى بالقباب [و] التى أمام

= المعمارى الشرقى باللقمة والجمع لقم . وجمع الوصل أو الوصلة أوصال . ومثل هذا المنبر الفنى كان يبنى هيكله من خشب كريم تام الجفاف ، ثم تكون الزخرفة والزينة عليه بقطع صغيرة من الخشب تلصق أوتسمر ، وهذه هى الأوصال . انظر عن اللفظ : Dozy *Supplémentt*, II, 812 b.

(١) كذا فى الأصل ، وهذا الرسم لصيغة منتهى الجموع فى شائع المغرب .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو لا يستقيم ، والأغلب أن صحته : وخمسون فتكون جملة النفقة فى صناعة هذا المنبر ٣٠٧٥٠ ديناراً و ٣ دراهم وفى نفح الطيب (٢/٨٨) ٣٥٧٠٠ دنانير و ٣ دراهم .

(٣) كذا فى رسم الأصل ، وقد تركتها على حالها .

(٤) أشك هنا فى أن الناسخ أسقط من الرقم شيئاً وأخطأ فى قراءة شىء آخر ، وأظن أن نص المقرى هنا أصح ، فالرقم عنده ١٤٥٤ فى حين أن صاحبنا يجعلها ١٠٨٤ والطريف أن المقرى وضع لفظ السراج بدلا من الكأس ، كأنما تحرج من أن يجعل فى الجامع كؤوساً حتى لو كانت هذه الكؤوس آنية الزيت .

ولا ندرى مصدر مؤرخينا فى هذه الاحصاءات الدقيقة ، لأن إحصاء الأعمدة والأبواب والأقواس معقول أما إحصاء كؤوس الثريا وأوصال خشب المنبر وما إلى ذلك فيبدو لنا عسير التصديق إلا إذا كان قد نقل من دفاتر الصناع أو قومة المسجد .

الأبواب على عشرة آلاف وثمانماية وخمسين كأساً لها من مشابك(١) الرصاص فى كل سنة وزن ستة عشر ربعاً .

وصُنع(٢) فى أعلى منارة الصومعة الكبرى ثلاث رمانات(٣) دَوْرُ كل رمانة منها ثلاثة أشبار ونصف ، اثنان منها ذهب ابريز والثالثة فضة قبلها ، وفوقها سوسنة قد سُدِّسَتْ ، من فوقها رمانة من ذهب صغيرة على رأس الزج ، وهى احدى غرايب الأرض(٤) .

ومن أبواب الجامع [١٧ ا] المذكور ثلاثة أبواب لا يدخـل عليها إلا النساء ، وهى من أبواب(٥) [...]

(١) أفسد المؤلف نظام هذه العبارة حين أراد اختصار كلام ابن بشكوال . وقد يكون المسئول عن ذلك الناسخ ، ويستحسن أن يراجع القارىء هذه العبارة على نصها الأوفى فى نفح الطيب (٢/٨٩) . ولفظ مشابك ورد فى الأصل مشك ، وعند المقرى (نفح الطيب ٢/٨٧) مشاكى ، وهى قراءة لا تستقيم لأن المشكاة لا تصنع من الرصاص ، وإنما يشبك الكأس الذى يوضع فيه الزيت أو الشمع بمشابك من الرصاص لأن سهولة صهره تيسر استعماله . وكانوا يصلحونها أو يستبدلونها بغيرها كل سنة ويلزم لهذا عشرة أرباع (على قول المقرى) وستة عشر على قول مؤلفنـا هنا . والمراد ربع رطل . وهذا يؤيد ما قلنـاه من أنها مشابك لا مشاكى . إذ لا يعقل أن تكون « زنة مشاكى الرصاص للكئوس المذكورة » (وعددها ٧٤٢٥ مشكاة حسب قوله) هذا القدر الضئيل من الرصاص .

(٢) هكذا بصيغة المجهول ، والذى أكمل بناء هذه الصومعة على الصورة الموصوفة هنا هو عبد الرحمن الناصر .

(٣) تذكر الرمانات فى معظم المراجع باسم التفافيح جمع تفاحة .

(٤) هذه هى العبـارة التى جعلتنى أميل إلى القول بأن الكتاب الذى بين أيدينا هو « مجموع المفترق » الذى ذكره المقرى ونقل عنه فى مواضع كثيرة منها هذا . وقد راجعت هذه العبارة على ما أورده المقرى (٢/٨٦) .

(٥) كلمة مطموسة تماماً ، وإليك ما ورد عن أبواب جامع قرطبة فى نفح الطيب (٢/٨٧ – ٨٨) نقلا عن ابن سعيد ، وهذا نقلا عن ابن بشكوال : وعدد أبوابه الكبار والصغار أحد وعشرون بابا ، فى الجانب الغربى تسعة أبواب ، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن ، وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب ، وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها لدخول الرجال بابان كبيران ، وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهن ، وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته متصل بالساباط المفضى إلى قصر الخلافة ، منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة .

وكان للجامع المذكور فى بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى خطه بيده ، عليه حليـة مِن ذهب مُـكَلَّلة بالجوهر والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسى من العود الرطب بمسامر الذهب .

وكان للجامع فى يوم كل جمعة فى أيام الجمعة[1] رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به .

وصُنع إلى جوانب الجامع من جهة المشرق ومن جهة المغرب ومن الجوف ثلاث ساقيات ، فى كل ساقية عشرون بيتاً للتصرف ، وفى صحنها صهريج وفى وسطه فوارة من الماء المعين[2] .

وتم ذلك كله بالبناء فى سنة تسعين وثلاثمائة .

الخبر عن أقاليم قرطبة وعددها

أعادها الله للاسلام

أما أقاليم قرطبة وأعمالها فهى على ما ذكر المؤرخون خمسة عشر إقليماً ، كل إقليم منها يحتوى على حصون وقرى وبروج كثيرة[3] .

فأولها إقليم المُدَوَّر ، وعدد قراه تسعون قرية .

---

(١) العبارة فيها اضطراب هنا ناشئ من أن المؤلف أو الناسخ كرر جملة « فى كل يوم جمعة »

(٢) واضح أن المؤلف أساء الاختصار هنـا فضاع الكثير من قيمة النص وقد أورد المقرى فى النفح (٢/٩٢) أصل هذه الفقرة بعبارة ابن بشكوال .

(٣) كنا نعتقد أن العذرى هو أوفى مراجعنـا عن كور الأندلس وأقسام هذه الكور ، ولكن هذه العبارة وما يليها تدل على أن هناك مراجع أخرى منها تلك التى رجع إليها مؤلف هذا الكتاب ، وهو يضيف إلى معلوماتنا الحصون والبروج كأقسام إدارية إلى جانب الاقاليم والأجزاء التى ذكرها العذرى .

ثم إقليم القَصَب[(١)] ، وفيه سبع وثمانون قرية وثلاثون برجاً وسبعة حصون .

ثم إقليم لورمر[(٢)] ، فيه ثلاثة حصون وأربعة وستون قرية وستة عشر برجاً .

ثم إقليم الصَدف ، وفيه ثمانية حصون وعشرون برجاً وثمانية وعشرون قرية .

ثم إقليم بنى مَسَرة ، وفيه ثلاثة عشر حصناً [١٧ب] وسبع عشرة قرية وستة بروج .

ثم إقليم مِنْيَانه وفيه أربعة حصون وثلاثة عشر برجاً وست وعشرون قرية .

ثم إقليم كُرتش ، وفيه عشرة حصون وستة وعشرون برجاً وستون قرية .

ثم إقليم القشتل[(٣)] ، وفيه ثلاثة حصون وسبعة أبراج وثمان وأربعون قرية .

ثم إقليم الهرهار[(٤)] ، وفيه ثلاثة عشر حصناً وستة عشر برجاً وثلاثة وسبعون قرية .

ثم إقليم الملاحة[(٥)] ، وفيه ستة حصون وسبعة عشر برجاً وأربع وثمانون قرية .

ثم إقليم الشعر[(٦)] ، وفيه عشرون حصناً ، وأربعون برجاً وتسعون قرية .

ثم إقليم السهلة[(٧)] ، وفيه ستة وعشرون حصناً وخمسة وثلاثون برجاً ، ومائة قرية وقريتان .

ثم إقليم أوليّه[(٨)] وفيه ستة حصون وعشرون برجاً وستة وثمانون قرية .

---

(١) الشكل هنا ليس فى الأصل ، وقد تابعت فيه العذرى (ص ١٢٥) .

(٢) كذا الأصل ، وعند العذرى (ص ١٢٥) لورة ، والراجح أن هذه الصورة الأخيرة أصح .

(٣) عند العذرى : القتل ، ويبدو أن مؤلفنا أصح فإن فى محافظة قرطبة وما حولها أماكن كثيرة تبدأ بألفاظ Castillo و Castil و Castella و Casteilar و Castellón وما إليها .

(٤) عند العذرى (١٢٦) الهزهاز بزايين وفى مخطوطتنا ما يشبه نقطة صغيرة فوق الهاء ، وربما جاز لهذا أن نقرأ الهزهار .

(٥) عند العذرى (١٢٧) وابه الملاحة .

(٦) العذرى (١٢٧) وابه الشعراء .

(٧) العذرى (أولية السهلة) .

(٨) جمع العذرى اسم هذا الاقليم والسابق عليه فى إقليم واحد اسمه أولية السهلة ، وضع فيه القرى التى يذكرها مؤلفنا فى السهلة وحدها .

ثم إقليم الوادى[(١)]، وفيه سبعة عشر حصناً واثنان وثلاثون برجاً ومائة قرية واحدى عشرة قرية .

ثم إقليم أى مريم[(٢)] ، وفيه اثنا عشر حصناً وستة عشر برجاً ومائة قرية وثلاثة عشرة قرية عليها جُمَل من الوظائف المخزنية فى كل سنة مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار وثلاثة وعشرون ديناراً[(٣)] .

وأحواز قرطبة تنتهى من جهة الغرب إلى أحواز اشبيلية . وتأخذ أحوازها فى الجوف ستين ميلا ؛ وفى الشرق إلى أحواز جيان ، وفى القبلة حتى تختلط بأحواز أسجه وقبرة .

وفى إقليم كرتش منها معدن فضة فائقة الجودة طيبة غزيرة المادة .

وبين قرطبة ومعدن [١٨ ا] الزيبق ثلاثون فرسخاً .

وليس هو فى معمور الأرض إلا فى هذا الموضع ، ومنه يختلف [به] إلى جميع آفاق الأرض .

ولبعض الأدباء يمدح قرطبة وما فيها .

دع عنك حضرةَ بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قطر مثل قرطبة ولا مشى فوقها مثل ابن حمدين

إلى هنا ينتهى النص .

حسين مؤنس

---

(١) انفرد مؤلفنا بذكر هذا الاقليم والتالى له دون العذرى .

(٢) هذه أحسن قراءة للاسم بحسب رسمه فى الأصل ولكنى أرى أن قراءة لفظ « أى » غير مستقيمة .

(٣) هذه أول مرة يورد المؤلف رقماً لجباية قرى إقليم من هذه ، وقد ورد الرقم فى الأصل فى صورة مضطربة .

الكتب : نقد وعرض

د. عبد الرحمن بدوى : مؤلفات ابن خلدون . دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٢

هذا الكتاب من تأليف عبد الرحمن بدوى ، ونعتقد أن هناك قليلين فى العالم العربى كانوا يستطيعون تأليفه على النحو الشامل المحكم الذى عمله به ، فإنه ليس تأليفاً عادياً عن ابن خلدون ، وإنما هو دراسة عنه وعن مؤلفاته ومخطوطاتها وأين يوجد كل منها وما نشر منها محققاً أو غير محقق ، وما ترجم من أعماله إلى لغات غير العربية ومَن ترجمه وما نُشر من تلك الترجمات ومَن نشره ، ثم يختم الكتاب بثبت بالأبحاث والتواليف عن ابن خلدون فى شتى اللغات .

ومثل هذا البحث يحتاج أول الأمر إلى علم واسع بالمكتبة العربية أو بالتراث الفكرى العربى بتعبير أدق ، المخطوط منه والمنشور ، وهذا لا يتأتى إلا لعالم عارف بالمكتبات ذوات الأقسام العربية فى العالم كله ، ومتتبع فى نفس الوقت لسير المكتبة العربية والحركة العلمية العربية كلها ، لأن عبد الرحمن بدوى فى إحصائه لما كُتب عن ابن خلدون من المقالات والأبحاث أدرج حتى مقالات المجلات الأسبوعية والصحف اليومية وبرامج الاذاعة والتليفزيون التى دارت حول ابن خلدون ، وهذا مطلب عسير كل العسر اقتدر عليه د. بدوى بما أوتى من سعة العلم والاطلاع ، وبما يجرى عليه فى عمله العلمى كله من منهج علمى صحيح ، وما رزقه الله من طاقة ضخمة للعمل .

بدأ عبد الرحمن بدوى بقصة حياة ابن خلدون وسماها لوحة حياته ، وهى تسمية لطيفة قبسها عن الفرنسية portrait de sa vie واستعملها قبـل ذلك فى ترجمته لطه حسين التى صدر بها كتاب التكريم الذى أهدى إليه ، وفى كتاب مؤلفات الغزالى . وقد أحسن إذ جعل اعتماده الرئيسى فى هذه الترجمة على كتاب « التعريف » فهو ترجمة ذاتية ممتـازة وفريدة فى بابها ، وإن كان لابد من التحرز عند استعمالها ، لأن ابن خلدون لجـأ إلى الدفاع عن نفسه وتحوير بعض الحوادث بمـا يقتضيه ذلك الدفاع فى بعض الأحيان .

وألحق بدوى بهذه الترجمة بيـاناً كرونولوجياً يتضمن أسماء حكام البلاد الإسلامية المعاصرين لابن خلدون وسنوات حكمهم ، حتى يتيسر لدارس حياته أن يضعه فى الإطار الزمنى التاريخى فى كل بلد حل فيه .

بعد ذلك يتنـاول بدوى مؤلفات ابن خلدون بادئاً بمؤلفاته الصغرى مثل لباب المحصَّل وشفاء السائل وما إليها ، فعرض ما وجدت أصوله منها وتحدث عنه ، وتكلم كذلك على ما ورد ذكره فى الكتب الأخرى من هذه المؤلفات وعَدِم رسمه مثل التلخيصات التى يقال إن ابن خلدون عملها للكثير من كتب ابن رشد ، ونعتقد أن هذه المؤلفات الصغيرة تكون فى العادة مختصرات وتقييدات عملها العلماء أيام الشباب وأثناء الدراسة ليستعينوا بها فى العمل ، وقد أثبتنا هذا الرأى فيما يتصل بالكثير من مؤلفات ابن حزم الصغيرة التى يبدو بوضوح أنها تقييدات أثناء الدراسة أو جداول عملها ليستعين بها وليست مؤلفات بمعنى الكلمة ، وقد يعود العالم إلى بعض هذه التقييدات فيما بعد فيصقلها ويجعلها فى هيئة رسائل لاستعمال تلاميذه ، وقد فعل ابن حزم والمقريزى ذلك فى الكثير من تقييدات الشباب فأصبحت كتباً جارية فى الناس باسميهما ، وأحياناً يتصل بأعمال الشباب هذه أعمال تخرج خروجاً شديداً عن الاتجاه المعروف للرجل ، فيكون ضمن ما عمله وهو بَعْدُ يتحسس طريقه ويبحث عن نفسه ، ومثله فى حالة ابن خلدون « شرح البردة » إذ يبعد أن يكون ابن خلدون قد انصرف إلى

شرح البردة بعد أن أوغل فى التاريخ والفقه وصارا شغل قلبه ولباب حياته .

ثم تناول بالدرس مؤلفات ابن خلدون الكبرى بادئاً بتاريخه المعروف بالعبر أو ترجمان العبر ، وقدم لذلك بمقدمة عن المقدمة وطبيعتها وقيمتها هى أحسن ما قرأناه إلى الآن عن ذلك العمل الفريد من نوعه فيما أخرجت العصور الوسطى للناس ، وقد أعجبتنا آراؤه لأنها تجردت أولا وقبل كل شىء من ذلك التحمس المبالغ فيه الذى يجرى عليه بعض مؤلفينا حسباناً منهم أن عروبتهم تقتضى منهم هذا التحمس ، وهو لهذا تحمس مصطنع لا يغنى عن الحقائق أو عن العروبة شيئاً ، لأن المهم فى العلم وفى كل ما يتصل بأساسيات الحياة هو الصدق ، وفى العلم بالذات ينبغى أن يطابق كل لفظ حقيقته ، فليس ينفعنا فى شىء أن نقول — مثلا — إن العرب اكتشفوا أمريكا قبل كولومبوس ، لأن هذا غير حقيقى أولا ، ثم لأنه لو صح فما الذى فعلناه بالسبق فى هذا الكشف ؟ لا شىء ! وعندما وصل الأوروبيون إلى العالم الجديد وجدوا الناس فى العصر الحجرى ، فكيف نكون قد وصلنا بلادهم دون أن نحمل إليهم حضارة أو رقياً ؟ إنما الأصح أن يقال أن العرب وضعوا نظرية الوصول إلى آسيا عن طريق الهند وأن كولومبوس أخذ ذلك عنهم وطبقه ، فكأننا شاركنا فى الكشف بالعلم وشارك الآخرون بالتطبيق ، وهذا فضل له قدره ، وهو صحيح ، وهو لهذا أصح وأجدى علينا من دعوى غير صحيحة لا تضيف إلينا شيئاً .

لهذا يعجبنا رأى بدوى فى مقدمة ابن خلدون ، فهو رأى رجل علم يزن الكلام ويعرف قدره ، ورجل فكر يعرف كيف ينظر إلى الأشياء وكيف يحكم عليها ، وبدوى هنا أكثر انصافاً لابن خلدون ممن يحسبون أنهم خلقوه من عدم وأخرجوه من الظلمات لكثرة ما كتبوا عنه !

ودرس بدوى بعد ذلك تاريخ تأليف المقدمة وبقية تاريخ ابن خلدون ، وتتبع الروايات المختلفة ، وأتبع ذلك بدراسة المخطوطات واحدا واحدا فوصفها فى تفصيل ودقة ، ثم التفت إلى ترجمات المقدمة والتاريخ إلى اللغات المختلفة

فى الشرق والغرب ، وختم هذا القسم بالإشارة إلى وصف المغرب الذى قال ابن خلدون أنه كتبه لتيمور لنك ، وقد تساءل بدوى عن السبب فى ضياع هذا الكتيب ، وأجاب بأن ابن خلدون زهد فى الاحتفاظ بنسخة منه لنفسه لسبب من اثنين ، إما أن يكون قد ضمنه كلاماً عن المغرب سبق أن أورده فى المقدمة والتاريخ أو يكون قد أورد فى تلك الرسالة أشياء من أسرار جغرافية المغرب وتحصيناته ونقطه العسكرية الدقيقة فخشى أن يعرف الناس انه قال ذلك فآثر كتمانه ، ونعتقد أن الرأى الأول أصح ، لأن ابن خلدون مع تيمور كان كثعلب وقع فى يد أسد ، فهو يجتهد فى الخلاص بنفسه بأى سبيـل ، فلما طلب إليه تيمور وصفاً للمغرب كتبه حيثما اتفق : شذرات من كتبه وأشياء من هنـا وأخرى من هناك قدّر أنها تنجو به من التلف ، ومثل هذا المؤلَّف لا يحرص الإنسان على نسخة منه بل لا يحرص على بقائه أصلا .

واعقب ذلك بفصل قائم يضم نصوصاً عن أخبار حياة ابن خلدون جمعها بدوى من شتى المراجع وأوردها فى نسق ، وهذا المجموع من النصوص على أكبر جانب من الأهمية ، فأنت تستطيع أن تعتمد عليه فى الكتابة عن ابن خلدون . ويلى ذلك فصل صغير عن نشاط ابن خلدون التعليمى أورد فيه المؤلف بياناً بالمدارس التى تولى التدريس فيها نقله عن خطط المقريزى ، وختام الكتاب ثبت عظيم القيمة بالدراسات عن ابن خلدون ما بين شرقية وغربية .

هذا كتاب جيد نافع يضيف إلى المكتبة العربية زادا قيما تعتز به ، وهو نموذج للأعمال البيو — ببليوغرافيـة نرجو أن يوضع فى أيدى طلبة أقسام الدراسات التاريخية العربية ليروا الأبحاث الجيدة وكيف تكون ، وهو لبنـة جديدة يضيفها عبد الرحمن بدوى إلى البناء العلمى الشامخ الذى ينشئه فى صبر وجد وإخلاص .

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، بقية السفر الرابع والقسمان الأول والثانى من السفر الخامس . بتحقيق د. إحسان عباس الأستاذ بالجامعة الامريكية فى بيروت (المجلدات ١٠-١١-١٢ من المكتبة الأندلسية التى تنشرها دار الثقافة فى بيروت) . ١٩٦٥

لا شك فى أن قيام الأستاذ الدكتور إحسان عباس بتحقيق هذا الكتاب بالاشتراك مع الأستاذ محمد بن شريفة يعتبر خدمة جليلة للأبحاث الأندلسية والمغربية ، فإن هذا الأصل النفيس ذخر من المعلومات عن الجناح الغربى لمملكة الإسلام ، والأندلس خاصة ؛ ولقد كنا نرجو أن يتيح الله لهذا الكتاب من يضطلع بأمر إخراجه إلى النور حتى نهض بذلك إحسان عباس ذو الهمة الكبرى التى نرجو أن تتصل وتزداد مع الأيام ، ونرجو أن تتاح لنا رؤية الجزء الأول الذى تعهد الأستاذ محمد بن شريفة بنشره ضمن برنامج تحقيق هذا الكتاب الذى فصله إحسان عباس فى مقدمة بقية السفر الرابع من ذلك الكتاب .

نشر إحسان عباس ثلاثة مجلدات ، الأول منها يضم بقية السفر الرابع والثانى يضم القسم الأول من السفر الخامس والثالث يضم القسم الثانى من نفس السفر الخامس ، وهذه المجلدات تمثل الأجزاء ١٠ و ١١ و ١٢ من المكتبة الأندلسية التى يشرف على نشرها عن طريق دار الثقافة للنشر فى بيروت .

وقد كان الدكتور عبد العزيز الاهوانى قد نشر فى المجلد الثالث من هذه الصحيفة (لسنة ١٩٥٥) مقالا قيماً عن كتابى صلة الصلة لابن الزبير والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (ص ١ — ١١) تحدث فيه عن هذا الأخير — واسمه الكامل محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المكنى بالمراكشى — المتوفى سنة ٧٠٨/١٣٠٨ وأورد نص أطول ترجمة له بين أيدينا وهى التى أدرجها أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن الزبير (٦٢٧ — ٧٠٨/١٢٣٠ — ١٣٠٨) فى كتابه المعروف بصلة الصلة أى صلة كتاب الصلة لابن بشكوال . وقد بين الأهوانى فى بحثه هذا كيف أن ابن الزبير وابن عبد الملك تعاصرا وأخذ أحدهما عن الآخر

وكيف ألف ابن الزبير كتابه وفرغ منه مرة أولى قبل سنة ٦٨٩/١٢٨٠—١٢٨١ ، ثم أضاف إليه ترجمات كثيرة لرجال ماتوا بعد ذلك التاريخ وأصدر منه نسخة موسعة قبل وفاته سنة ٧٠٨/١٣٠٨ ، وهذه هى التى تضمنت ترجمة ابن عبد الملك المراكشى ، أما النسخة الأولى فهى التى عثر عليها ليفى بروفنسال ونشرها سنة ١٩٣٩ وقال فى مقدمتها أن ابن الزبير سابق على ابن عبد الملك ، والحقيقة أنهما متعاصران كما يتبين من تواريخ حياتهما ، فقد توفيا فى عام واحد .

قام إحسان عباس على نشر الأجزاء الثلاثة التى نشرها بما عرف عنه من القدرة والعلم والتدقيق ، وأضاف إلى التحقيق تعليقات وملاحظات بيوغرافية وببليوغرافية ذات قيمة عظيمة ، شأنه فى كل ما ينشر من الأصول ، ولا يسع قارىء الكتاب إلا أن يشكر له هذا الجهد الضخم الذى قام به ويرجوه الاستمرار واكمال هذا الكتاب على هذا النمط من الاحسان والتجويد .

ذلك أن الكتاب نفسه كنز لا يعرف قدره إلا من أطلع عليه ، ولقد حصلت مما راجعت من تراجمه على فوائد جليلة جداً متصلة بتاريخ الأندلس والمغرب ، ولو أننى أطلعت على ترجمة سعيد بن حكم القرشى الواردة فيه (رقم ٦٧) لأفدت منها شيئاً كبيراً عند تحقيق المادة التى أدارها عليه ابن الأبار فى الحلة . وترجمة ابن عبد الملك لهذا الرجل تعطى صورة جديدة لآخر أيام المسلمين فى الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار . وقبل سعيد بن حكم يترجم ابن عبد الملك لواحد من المتأخرين من بنى سعيد العنسيين ، وفى حرف الصاد يترجم لصندل مولى المأمون بن ذى النون ويورد فى ترجمته إشارة هى أشبه بالفكاهة خلاصتها أن المأمون أسلم حفيده المسمى بالقادر إلى المؤدب أبى بكر بن فضلون ليؤدبه وأصحبه صندلا هذا ليكون خادماً له ورفيقاً ، وقال للمؤدب : « إذا أنت أدبت ابنى هذا أو أتى بنكير فاضرب فتاه صندلا هذا مكانه . . » وهذا من أغرب ما سمعنا : يُضرب المولى ويؤدب بخطأ سيده ، ولا غرابة هنا فى أن يشب هذا القادر غفلا جاهلا ويكون بعد ذلك نكبة على المسلمين سواء فى

طليطلة أو بلنسية . وتضيف الترجمة أن صندلا هذا كتب فيما بعد عن مولاه القادر ، وعليه كان معوله فى تدبير رياسته ببلنسية . وهذا أمر لم نكن نعرفه .

وتحت حرف الطاء يترجم ابن عبد الملك لطالوت بن عبد الجبار أحد الشيوخ الذين قاموا على الحكم الربضى وكانوا سبباً فى هيج الربض (رقم ٢٧٤) والترجمة هنا مطولة بأوفى مما ورد فى نفح الطيب والتكملة . ويترجم تحت رقم ٣٢٩ لعبد الله بن أبى بكر القضاعى والد ابن الأبار . وابتداء من ص ١٩١ (رقم ٣٦٣) يترجم لعبد الله بن الحسن بن احمد بن يحيى المعروف بأبى محمد بن القرطبى من أهل مالقة ترجمة مستفيضة تقع فى صفحات كثيرة ، ولكنه يستغرق ثلاثا منها فى ذكر شيوخ الرجل وتلاميذه ، وهذه القوائم الطويلة من الشيوخ والتلاميذ تعتبر من العيوب الكبيرة فى هذا الكتاب ، فإن الأسماء الكثيرة المتوالية مملة وثقيلة على النفس ، وهى فى هذا الكتاب ليست بذات قيمة كبيرة ، فهى تقليد للمحدثين فى طريقتهم فى الكلام على رجال السند ، وإذا كان المحدثون لديهم مبررات للحرص على ذكر الشيوخ والتلاميذ فما قيمتها بالنسبة لرجل من أهل القرن السادس الهجرى (ولد سنة ٥٥٠ وتوفى سنة ٦١١) كل أساتذته وتلاميذه من مستواه من حيث العلم ومن حيث الجرح والتعديل ؟

وفى نفس هذه الترجمة يأتى ابن عبد الملك بنص مختصر فى العروض ألفه أبو محمد بن القرطبى فى يوم واحد بعد أن درس علم العروض كله فى ذلك اليوم ، وكان قبله مقصراً قليل العلم فيه . وهذا المختصر يقع فى إحدى عشرة صفحة من النص المطبوع ، وربما كانت هذه الرسالة المختصرة ذات قيمة بالفعل بالنسبة للذين يدرسون العروض .

وفى ترجمة عبد الوهاب بن على بن محمد القيسى ، من أهل مالقة (ت ٥٩٢) يروى ابن عبد الملك خبراً طويلا يدور حول بيتين من الشعر — ليسا فى حقيقتهما بشىء — أثارا من اهتمام أهل الأدب ما يصور لنا البطالة الذهنية التى كان أولئك الناس يعيشون فيها ، فهناك ١٨ صفحة من الكتاب بعد ذلك

كلها تدور على هذا السفساف ، كأنما كانت الأندلس إذ ذاك فى رخاء وأمان وسعد وانحلت عن الناس التكاليف فهم يقضون وقتهم فى هذا العبث دون حرج ؛ ولو ذكر الانسان حال الأندلس والإسلام فى ذلك الوقت الذى كان أصحابنا هؤلاء يسحنفرون فيه لإكمال بيتى شعر لقضى عجبا ، وسبحان الله الذى جعل مصائر الأوطان رهنا بهمم الرجال ؛ وأندلسٌ كان هذا حال المفكرين من أهله كان لا يمكن إلا أن يصل إلى النهاية المحزنة التى وصل إليها .

ويطول الأمر لو مضينا نقرأ تراجم هذا الكتاب النفيس ونستخرج منها الفائدة والعبرة ، فالحق أنه كنز حافل سيكون له أثر بعيد فى كل ما سننشر بعد ذلك . شكر الله لاحسان عباس جهده وعلمه ، وآتاه القوة على المضى فى ذلك الطريق ، وأعان شريكه محمدا بن شريفة على أن يهدينا ما وعد باعداده من أجزاء هذا الكتاب .

د. شوقى ضيف : العصر الاسلامى . الجزء الثانى من
تاريخ الأدب العربى ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٢

من الملاحظ على الإنتاج العلمى فى تاريخ الفكر العربى ونقده والتاريخ الإسلامى والفلسفة الإسلامية وتحقيق النصوص أن الكتب الجيدة تصدر فى غالبية الحالات عن نفس الأشخاص ، ولقد راجعت أبواب نقد الكتب فى هذه الصحيفة وفى مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق ومجلة المجمع العراقى ومجلة دعوة الحق فى المغرب وما إلى هذه الدوريات فوجدت أن التجويد فى معظم الحالات محصور فى نفر معين نعرفه ولا نزال نشكره ونقدر فضله فى كل مجال يقدَّرُ فيه العمل الجيد ، ولا نجد ما يدعو إلى ذكر هذه الأسماء فهى معروفة بذواتها ومياديها ، ولست أنسى مرة كنت فى مكتبة فى طنجة فى المغرب فدخل رجل وسط فى العمر وسأل : هل وصلكم شىء جديد من تحقيق الشيخ

شاكر أو عبد السلام هارون ؟ فأعجبنى السؤال ، لأنه دل على أن الأستاذين الكريمين قد أصبحا علمين على التحقيق الجيد المتقن ، فأصبح الناس يطلبون تحقيقاتهما لذواتها وقدرها العلمى كما يتطلب الناس — مثلا — ساعة سويسرية الصنع لأن ذلك فى نفسه دليل الجودة والإتقان .

ومثال من النفر القليل من العلماء المجيدين هو الدكتور شوقى ضيف وهو دون شك من أعلام مؤرخى الأدب العربى ونقاده ، وانتاجه فيه غزير ممتاز يتناول ميادينه كلها ، فهو يكتب عن الأدب الجاهلى بنفس الأصالة والعمق والوضوح التى يكتب بها عن الأدب فى العصر الأموى أو العصر العباسى أو الأدب الأندلسى أو الأدب العربى الحديث والمعاصر ، لأنه يقرأ فى ذلك كله قراءة واسعة شاملة وينتفع بما يقرأ على أحسن صورة ثم يعرض ذلك فى أسلوب واضح صاف سهل ممتنع ، وقد سبق أن كتبنا عن بعض مؤلفاته فى أعداد سابقة من هذه الصحيفة .

والآن نكتب عن الجزء الثانى من التاريخ العـام للأدب العربى الذى يكتبه ، ويدور هذا الجزء الثانى على العصر الإسلامى أى صدر الإسلام والدولة الأموية . لقد قرأت هذا الكتاب فى طبعته الأولى ، ثم صدرت الثانية بعد ذلك ولم يتيسر لنا الاطلاع عليها ، ولكن التعديلات التى أدخلها د. شوقى ضيف كما قيل لنا قليلة لا تمس جوهر الكتاب ، ونرجو القارئ على أى حال أن يذكر دائماً أن أساس كلامنا هنا هو الطبعة الأولى للكتاب التى صدرت سنة ١٩٦٢

يبدأ الكتاب بالكلام على الإسلام فيحدد معناه وأركانه والقيم الروحية التى أهداها للبشر ، وهذا الموضوع على ما يبدو من سهولته من أعسر ما يكتب فيه الواحد منا ، وقد عانيت ذلك فى بضع صفحات كتبتها فى كتاب الإسلام الذى سينشره هذا المعهد قريبــاً . وكلام شوقى ضيف هنا واضح رصين فيه عمق وشمول وإيجاز يدعو إلى الإعجاب . ثم تحدث عن القيم العقلية التى أتى بها

الإسلام وهى تتلخص فى دعوة الإسلام للبشر إلى استعمال العقل والرجوع إليه فى كل شىء وخاصة فى إثبات وجود الله وصدق رسالاته السماوية وفى التدليل على أن القرآن كلام الله سبحانه وأن الإسلام دينه الذى رضيه للناس كختام للرسالات الإلهية وسبيل الناس إلى الخير والسعادة فى الدارين . وأشار شوقى ضيف إلى ما حث عليه القرآن من طلب العلم وما أوصى به من تقدير أهل العلم وما حمَّل العلماء من أمانة قدسية كبرى . وختم هذا الباب بالكلام على الثورة الإجتماعية التى أعلنها الإسلام وحقق أهدافها فى تاريخ المجتمع البشرى ، وكذلك القيم الإنسانية التى ثبت أركانها من حرية وكرامة وأخوة ومساواة .

والفصل الثانى يدور على القرآن : وصفه ونزوله وجمعه وترتيبه ثم نشأة المصاحف وما أحيط به القرآن من سياج متين من المحافظة على نصه سليما دون أدنى تغيير . ثم تكلم عن أثر القرآن فى اللغة والأدب ونشأة الفكر العربى الإسلامى ، وكتب بعد ذلك فقرة طويلة ممتعة عن الحديث الشريف .

والفصل الثالث يدور على الشعر بادئا بالكلام على الشعراء المخضرمين ، وتكلم بعد ذلك عن الشعراء فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فذكر سفيان ابن الحارث وابن الزبعرى ثم شعراء الإسلام الثلاثة حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة وقال أن حسان أشعرهم ، وربما جاز هنا أن نقول أن هذا الرأى المتوارد عند مؤرخى الأدب العربى فى حاجة إلى إعادة نظر ، فمن المؤكد أن حسانا كان أكثرهم شعراً ولكن هل كان حقاً أصدقهم كلاماً وأحسنهم شاعرية ؟ كلما قرأت أشعار أولئك الثلاثة بدا لى أن حسان ابن ثابت يتمتع بصيت لا يستحق إلا جزء منه إذا قورن بصاحبيه .

ويستطرد الكلام بعد ذلك على شعراء عصر الخلفاء الراشدين وشعر الفتوح ، وهذا الأخير موضوع جديد استحدثه شوقى إذ لم أرَ أحدا درسه قبله ، وجدير بالتنويه كذلك القسم الذى أداره على الشعراء المخضرمين ، وقد لاحظت أنه لم يقف طويلا عند قصيدة بانت سعاد ، وقد أحسن فى ذلك ، فهى على الحقيقة

من أضعف الشعر العربي وأكثره مجافاة للمعنى الذى أريد منها والموقف الذى قيلت فيه ، ولا أظن أن هناك شعراً هو أبعد عن الذوق مثل هذا التسيب المتكلف الذى افتتح به كعب قصيدته المشهورة .

ولكن كلام شوقى ضيف جيد جداً عن لبيد بن ربيعة والحطيئة ونابغة بنى جعدة العامريين عبد الله بن قيس .

ويتكلم شوقى ضيف بعد ذلك عن النثر بادئا بصفحات عن تطور الخطابة ثم خطابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الراشدين . ويتحدث عن الكتابة مشيراً إلى النصوص التى كتبت فى عهد الرسول وخاصة الكتاب الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من اليهود ، وهى الوثيقة التى نسميها بدستور المدينة ، وهذه الوثيقة جديرة بدراسة لغوية أدبية من شوقى ضيف . وقد اعتمد فى ذلك الموضوع على النصوص التى جمعها محمد حميد الله فى مجموعته الفريدة المسماة الوثائق السياسية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة ، وكنت أفضل لو نظر إلى جانب ذلك فى المجموع الذى أورده ابن سعد فى الطبقات ، ففيه الكثير جداً مما كان يفتح لشوقى ضيف أبواباً من الكلام الجيد .

والكتاب بعد ذلك طويل حافل يتناول فى الفصول التالية الشعر والنثر فى عصر بنى أمية بادئا بفصل ممتع حقاً عن مراكز الشعر الأموى ، ثم يتحدث عن المؤثرات العامة فى الشعر والشعراء ، وكلامه هنــا كله جديد مبتكر هو ثمرة الدرس الطويل والأستاذية الحقة فى ذلك الميدان ، وقد أعجبتنى دراساته الموجزة الممتعة عن موضوع النقائض وكذلك صفحاته عن شعراء الأحزاب من زبيريين وخوارج وشيعة وبنى أمية .

وأدار الفصل السادس على الخطابة والخطباء ، وقد استوقف انتباهى كلامه عن خطباء الوعظ والقصص فهذه إضافة جديدة تحمد له ، وراقنى كلامه عن الحسن البصرى .

وختم الكتاب بفصل عن الكتابة والكتاب تليه خاتمة هى الغاية فى الايجاز وصدق الحكم وإجادة النظر .

هذا كتاب جيد سيكون منذ الآن أصلا من الأصول التى لا يستغنى عنها دارس لتاريخ المسلمين وفكرهم ، وهو دون شك أجود تاريخ عام للأدب العربى كتب فى العصر الحديث ، وهو خطوة إيجابية واضحة بعد جرجى زيدان ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات وغيرهم من أصحاب تواريخ الأدب العربى التى كتبت وتكتب فى عصرنا هذا .

د. فرناندو بلدراما مرتينث : كناش الحائك أو مجموعة
أغانى مغربية من القرن الثانى عشر الهجرى . تطوان ١٩٥٣

كان حق هذا الكتاب الصغير أن نكتب عنه فى هذا الباب من سنوات ، ولكن نسخته لم تتيسر لنا إلا من قريب . وسر اهتمامنا به هو أنه البحث الوحيد الذى نملكه عن كناش الحائك ، وهو أحسن مجموع للأغانى الأندلسية التى انتقلت إلى المغرب ، ونرجو أن تتيسر لأحد من إخواننا المغاربة المعنيين بالغناء والموسيقى الفرصة لتحقيق نص هذا الديوان الفريد ونشره مع ما ينبغى له من دراسة .

هذا الكتيب فى حقيقته نص محاضرة ألقاها باللغة العربية السيد فرناندو بلدراما مرتينث Fernándo Valderrama Martínez الأستاذ بالمعهد الإسبانى فى تطوان ، وهو دراسة لكناش الحائك تتخللها آراء وتعليقات واستطرادات المؤلف .

يبدأ المؤلف بالكلام على النوبات الموسيقية وواحدتها نوبة ، ويقف هنيهة عند لفظ نوبة فيقول أنه غير محدود المعنى تماماً ، ففى النصوص القديمة من كتاب الأغانى وفى مقدمة ابن خلدون ورسائل إخوان الصفاء كانت النوبة هى القطعة التى يغنيها المغنى فى فريق من المغنيين إذا جاء عليه الدور ، لأنهم كانوا

يفتتحون الغناء بدور جماعى ثم ينشد كل منهم قطعة منفرداً ، وهذا هو الدور أو النوبة ، ويقول : وبعد ذلك نجد كلمة نوبة تطلق على الموسيقى التى يعزفها جوق أو فرقة ، وعلى الجوق نفسه ، وبهذا المعنى تستعمل الآن فى المغرب فى اصطلاح الموسيقى العسكرية . وأضاف أنه يستعمل لفظ نوبة فى محاضرته بمعنى قطعة موسيقية كاملة مؤلفة من عدة ألحان ونغمات ، أى أنه يطلق النوبة على مجموع النوبات أو الأدوار التى تتكون منها الأغنية الكاملة التى تغنيها فرقة موسيقية جماعةً فى المطلع والختام وفرادى فى النوبات أو الأدوار ، وقد يغنون المطلع جماعة بعد أن ينتهى كل واحد منهم من نوبته على مثال ما كانت الجوقات المصرية تستعمل «المذهب» فى نظام إنشادها .

ويقال أن النوبات كانت ٢٤ بعدد ساعات اليوم ، ولكننا نستبعد ما تقال من أن كل نوبة منها كانت خاصة بساعة من ساعات الليل أو النهار فلا يغنى إلا فيها ، أما ما نلاحظ من أن بعض النوبات المعروفة الآن تشتمل على قصائد خاصة بالليل أو بالفجر أو بالصباح فليس معناه أنها لا تغنى إلا فى ذلك الوقت بالذات .

وتكلم المؤلف عن انتقال الموسيقى الأندلسية إلى المغرب مع مهاجرى الأندلسيين بعد استغلاب النصارى بلادهم ، وقال إن مدارس موسيقية مختلفة ظهرت فى المغرب بحسب أصول المهاجرين والجهات التى هاجرو إليها ، فالمدرسة التونسية أصلها إشبيلى والمدرسة الجزائرية أصلها غرناطى والمدرسة البلنسية استقرت أولا فى غرناطة ثم انتقلت إلى فاس ولهذا فإن الموسيقى الأندلسية المغربية إنما هى بلنسية وغرناطية واشبيلية .

وأضاف المؤلف ملاحظة على أكبر جانب من الأهمية فقال أن الموسيقى الأندلسية التى تغنى وتعزف فى المغرب تحرفت عن أصولها اللفظية والموسيقية ، فإن اللهجة الأندلسية التى كان معظم تلك الأغانى مكتوباً بها لم تكن مفهومة إلا للمهاجرين الأندلسيين وبالأخص الأجيال الأولى منهم ، فوضع أهل البلاد

أزجالا وموشحات بلهجاتهم على أوزان الأغاني الأندلسية وبحورها ومعانيها ، وقد اجتهدوا أول الأمر فى المحافظة على النغمات ، ولكنهم لم يكتبوها ، بل أخذوها بالسماع جيلا عن جيل ، وكان لابد أن تنحرف عن أصولها الأولى ، ولكن هذا الانحراف لم يمس الجوهر ، ومن حسن الحظ أنها ثبتت بعد ذلك على الصورة التى وصلتنا بها ، وهذه هى التى سجلها محمد بن الحسين الحائك الأندلسى التطوانى فى كناشه .

ولم يستطع المؤلف أن يضيف إلا شيئاً قليلا إلى معلوماتنا عن الحائك ، فقد تبين من مقدمة المخطوط أن أصله من تطوان ولكنه سكن فاس وفيها عاش وعمل وألف الكناش ، وفى هذه المقدمة ذكر الحائك أن هدفه من تأليف كتابه هو إنقاذ الأغانى الأندلسية من الضياع المحتوم ، وأنه بذل غاية الجهد فى جمع ما تيسر له من تلك الأغانى ، ولكنه وجد أنه لم يبق من بعض النوبات القديمة إلا أغان قليلة ، ولهذا فإنه لم يستطع أن يضمن كتابه النوبات الأربع وعشرين ، بل اكتفى بإحدى عشرة ، وهو يسمى القديمة بالطبوع جمع طبع والجديدة التى أدرجها فى كتابه بالنوبات ، وهذه النوبات هى رمل الماية ، الاصبهان ، المـاية ، رصد الديل ، الاستهلال ، الرصد ، غريبة الحسين ، الحجاز الكبير ، الحجاز المشرقى ، عراق العجم ، العشاق .

وتحدث بعد ذلك عن المخطوط فقال أن النسخة الأصلية غير موجودة ، ولكن هناك نسخاً عملت منها وكلها غير كاملة وتختلف فيما بينها ، وقال أنه فى سنة ١٣٣٥ ﻫ (١٩٣٤ — ١٩٣٥) طبع بالرباط كتاب يقع فى ١٨٢ صفحة بعنوان «مجموع الأغانى الموسيقية المعروف بالحائك» قام بجمعه السيد المكى مبيركو وهذه الطبعة غير محققة وغير كاملة ولكنها تصلح مؤقتاً حتى ينشر المخطوط الكامل .

ثم لخص المؤلف محتويات المخطوط وأتى ببضعة نمـاذج من النوبات الواردة فيه .

وهذا الكتيب الصغير هو مع الأسف الشديد أحسن ما لدينا عن الموسيقى الأندلسية فى المغرب ، لأنه قام على دراسة للمخطوط الأصلى لكناش الحائك ، ولقد قرأنا كثيراً من الأبحاث والمقالات عن تلك الموسيقى ، ولكننا لم نظفر إلى الآن بشىء نستطيع الاعتماد عليه عنها ، وفى المملكة المغربية رجال كثيرون مهتمون أشد الاهتمام بالموسيقى المغربية ، وفيه جمعية جليلة لهذه الموسيقى ، والتنافس كبير ومحمود فى هذا المجال بين تطوان والرباط وفاس ، ونحن لهذا نطمع فى أن نقرأ شيئاً جيداً عن الموسيقى المغربية عامة والأندلسية المغربية بصفة خاصة ، ولهذا السبب تحدثنا هنا عن كتاب السيد فرناندو بلدراما مرتينث .

مالكولم هـ. كير : الاصلاح الاسلامى . النظريات السياسية والقانونية لمحمد عبده ورشيد رضا

Malcolm H. Kerr, *Islamic Reform. The Political and Legal Theories of Muḥammad ʿAbduh and Rashīd Riḍā.* University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1966, 249 pages

قرأت هذا الكتاب قبيل اشتراكى فى ندوة عقدت فى مدينة مونبلييه فى فرنسا فى نوفمبر ١٩٦٦ تحت إشراف جامعتها موضوعها أصول القومية العربية ، فقد تناول اثنان من المشتركين فيها وهما الأستاذ روجيه ارنالديز والأب جاك جومييه موضوع محمد عبده ورشيد رضا ونظرياتهما السياسية والتشريعية من زوايا قريبة جداً من الزاوية التى نظر منها مالكولم كير ، وكانت محاضرة الأب جومييه على الخصوص موضع مناقشات طويلة لأن آراءه السديدة أثارت أفكاراً وآراء شتى حول هذه الموضوعات المثيرة الحافلة ببواعث التأمل والتفكير ، وكان الأب جومييه قد أشار كثيراً فى حديثه إلى مالكولم كير وكتابه ، فلما فرغت من الندوة عدت إلى الكتاب فقرأته من جديد على ضوء ما طرح من الآراء وما دار من المناقشات فازداد تقديرى لصاحبه وللجهد الذى بذل فى دراسة محمد عبده ورشيد رضا .

وقد استلفت انتباهى من أول الأمر اتفاق رأى مالكولم كير وغالبية الغربيين الذين اشتركوا معنا فى الندوة فى القول بأن رشيد رضا أكثر ايجابية فى تفكيره من محمد عبده بصورة عامة ، فقد قدم — مثلا — فى كتابه عن الخلافة والامامة العظمى مشروعاً محدد المعالم لاحياء الخلافة فى حين أن محمد عبده لم يقدم شيئاً من هذا الطراز ، وقد لاحظت أيضاً اتفاقاً على القول بأن رشيد أوسع ثقافة من محمد عبده وأنه كان أعلم بالفقه والتشريع ، ولاحظت كذلك أسفاً على أن رشيد رضا لا يتمتع باهتمام كبير عند مفكرى العرب اليوم فى حين أن محمد عبده لا زال موضع الاهتمام والدرس على نطاق واسع .

والحقيقة أن رشيد رضا لم يكن أوسع ثقافة من محمد عبده ولا أكثر ايجابية منه ، بل العكس هو الصحيح ، فإن إحاطة محمد عبده بالعلوم الإسلامية هى التى جعلت معاصريه من الشيوخ يخلعون عليه لقب الأستاذ الامام ، ثم أنه اجتهد فى دراسة الفرنسية وهو فى الثانية والأربعين من عمره وتمكن منها وقرأ بها ودعا العرب إلى تعلم اللغات الأجنبية كخطوة أساسية من خطى التقدم والرقى ، ورحل إلى باريس وعمل فيها وزار الجزائر وكان له فيها أثر فى أيام لم يكن يخطر ببال عربى من الشرق أن يزور هذا القطر . وفتاواه الكثيرة تدل على علم واسع ، وفى كل هذه الميادين لم يصل رشيد رضا إلى جزء مما كان لدى أستاذه . ولكن محمد عبده كان رجلا عاقلا عملياً ، فبعد أن تابع جمال الدين الأفغانى فى اتجاهاته السياسية بضع سنوات أدرك أن تحقيق الأهداف السياسية للمسلمين والعرب : تحررهم من ربقة الاستعمار واقامة نظم حكم صالحة ديموقراطية فى بلادهم وتجديد المجتمع العربى الإسلامي واخراجه من الجمود الذى سيطر عليه ، كل هذه بدت له أحلاماً لا تتحقق إلا إذا تعلم العرب أولا وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى الاجتماعية والفقر الشامل ، ونصح المسلمين بالالتفات أولا للتعليم والاصلاح الاجتماعى ومحاربة الأمراض ومعاونة الناس على الخروج من الفقر ، ثم بعد ذلك كله يكون التحرير السياسى ثمرة

لهذا كله ، وقد ذكر ذلك رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الامام (١/١١ — ١٢) وترجمه كير فى ص ١٠٨ — ١٠٩ من كتابه ، وواضح أن هذا المنهج الذى رسمه محمد عبده للعرب منهج سليم مضمون النتائج وإن كان طويل المدى .

أما رشيد رضا فقد كان مزاجه سياسياً مندفعاً ، فدخل ميدان السياسة وضاع فيه كما كان لابد أن يحدث ، وشغل نفسه بالتفكير فى بعث الخلافة فى ثوب عربى قرشى هو موضوع كتابه « الخلافة أو الإمامة العظمى » ، ثم اشترك فى إنشاء مملكةٍ سوريَّة تُوج عليها الأمير فيصل بن الحسين بن على الذى قاد ثورة عرب الشام والحجاز على الأتراك وكسر بهـا وحدة عالم الإسلام كسراً لم تلتئم بعده .

وهذه المقارنة لا ينبغى أن تقلل من قدر رشيد أو من دوره فى حركة النهوض العربى ، ولكنها تضع خطاً واضحاً يعيننا على تفهم تفكير كل من الرجلين وتقدير مدى الخدمة التى أداها للعرب والإسلام ، وهى من ناحية أخرى تفسر لنا الظاهرتين اللتين أشرنا إليهما : استمرار الاهتمام بمحمد عبده فى عالم العرب وتراخيه فيما يتصل برشيد وزيادة اهتمام الغربيين برشيد رضا ، فأما عن الظاهرة الأولى فإن العربى يجد عند محمد عبده رأيا هادئا ونظراً حكيماً ومنهجاً واضحاً رغم أنه فى رأى البعض منهج بسيط ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الكثيرين من العرب يرون أنه كان أفضل لشعوبهم لو سارت فى الطريق الهادىء المنطقى الذى نصح به الشيخ الامام ، لأن الاستقلال السياسى أسهل على التحقيق من تعميم التعليم وتنوير العقول وإصلاح المجتمع وبناء الاقتصاد السليم ، فأما ما يتصل بالمنهج السياسى الذى رسمه رشيد رضا ، منهج بعث الخلافة فى ثوب عربى قرشى ، فقد مضت أيامه وأصبح مجرد حلم ليلة شتاء ، بل كان رشيد رضا نفسه من العاملين على القضاء عليه ، فقد كان من رجال الثورة العربية وكان رئيساً للمؤتمر القومى السورى الذى أعلن فيصل بن الحسين ملكا على سورية سنة ١٩٢٠ ، وبعد هذا لم يعد هناك أى أمل فى بعث الخلافة الإسلامية .

وتعتبر الدراسة التى أدارها مالكولم كير على محمد عبده والقانون الطبيعى (الفصل الرابع ، ص ١٠٣ وما بعدها) من الدراسات الممتازة ، ومن حسن الحظ أنه استوعب فيها آراء عثمان أمين حول الموضوع ، فإن عثمان أمين كتب كثيراً جداً عن محمد عبده ، وفى كلامه الكثير من الجيد الصائب وإن كان الحماس للامام قد جعله يحاول أن يجد له فلسفة ذات منهج مترابط ، والحقيقة أن محمد عبده لم يحاول قط أن يكون فيلسوفاً ، بل قصد من أول الأمر إلى أن يكون معلما للمسلمين ، وظل كذلك طول حياته ، وقد أصاب مالكولم كير فى كلامه عن الخط الوسط الذى اختاره محمد عبده لنفسه ، وهو خط أملته الحكمة وبعد النظر والعقل ، فهو لم يقطع الصلة بالماضى ، ولكنه لم يحمل تراثه الباهظ على رأسه حتى يعجز عن الحركة ويتجمد كما فعل المتشددون من السلفيين ، ومنهم رشيد رضا وعبد العزيز جاويش وأصحاب هذا الطريق الذى أدى آخر الأمر إلى حسن البنا والاخوان المسلمين ، وهو لم يتطرف فى الحماس للحضارة الغربية حتى يقطع الصلة بالماضى كما فعل لطفى السيد وجماعته (فى الدور الأول لتاريخهم) ولكنه أخذ طريقاً مأموناً بينهما ، وهو الطريق الذى سارت فيه الحركة القومية والحركة الفكرية فى مصر خاصة ، ويمثله بعد محمد عبده فى ناحية الفكر والفقه طه حسين والعقاد والمازنى ومصطفى عبد الرزاق ومصطفى المراغى ومن إليهم . وقد نص مالكولم كير على طرف من ذلك فى كتابه (ص ١٠٥) .

ويستوقف النظر الربطُ بين رشيد رضا وفقه الأشاعرة ، وأظن أن هنرى لاوست أشار إلى شىء من ذلك فى دراسته الممتعة عن « الاصلاح عند السنيين السلفيين والخصائص العامة لتنظيمه الحالى » ، ويقابل ذلك ربط محمد عبده بالمعتزلة ، وصاحب هذا الاتجاه هو عثمان أمين ، ولا يمكن قبول هذين الرأيين إلا إذا سلمنا بأن أبا الحسن الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٤/٨٧٣ — ٩٣٥) كان بداية الاتجاه السلفى الذى انتهى بجمود الفكر الإسلامى جملة ، ولا يقلل من صحة هذا الرأى

أن أبا حامد الغزالى يقف فى نهاية خط الشافعيين الأشعريين ، إذ أظن أنه من المعروف أن إحياء علوم الدين يصور نهاية التفكير الإسلامى الطليق .

وإذا أمعنا النظر فى تفكير محمد عبده وجدنا بالفعل أنه من نفس طراز تفكير المعتزلة وخاصة أهل الطبقة الأولى منهم ، طبقة واصل ابن عطاء وعمرو ابن عبيد ممن كانوا ينظرون للأمور نظراً عقلياً خالصاً ويأخذون الأمور أخذاً جاداً لا مكان فيه لصالح خاص أو لصالح دولة معينة — وأهم من ذلك — لا مكان فيه للخوف ، أما رشيد رضا فلم أظفر فى كتاباته بما يدل على أنه كان يميل إلى آراء الأشاعرة ، نعم أنه كان سلفياً مثلهم ، ولكنه على أى حال لا يصل إلى علم شيوخهم بالإسلام والفقه ، ومن أين كان يتاح الوقت له ليصل إلى علم الباقلانى أو الاسفراييني أو القشيرى أو إمام الحرمين ؟

إن سلفية رشيد رضا لم يكن مرجعها اتجاه أشعرى وإنما هى نابعة من الخوف : الخوف من الغرب وقوته السياسية وقوته الحضارية ، وكثيرون جداً من السلفيين وأصحاب الدعوات الدينية فى العصور الحديثة دفعهم الخوف على المصير إلى التمسك بالإسلام والارتداد بقوة إليه كما يهرول الانسان للاعتصام بملجأ حصين ، وهذا يفسر لنا التناقض الواضح بين آراء رشيد رضا فى مرحلتين مختلفتين من حياته . لقد أشارت إلى ذلك السيدة دومينيك سوردل فى كتابها الصغير عن الإسلام فى سلسلة Que Sais-je? وتحدث عنه مالكولم كير فى كتابه الذى نعرضه هنا ، وتكلم عنه الأب جاك جومييه فى مقاله الذى ذكرناه أول هذا الكلام ، فإن رشيد رضا كان يرى محمدا عبده لايهاب الغرب وحضارته بل يدعو إلى اقتباسها والسير فى غمارها ، فأعجبه ذلك وتابع أستاذه فيه من بعده ، ثم بدأ الخوف يستولى عليه شيئاً فشيئاً : وربما كان هذا الارتداد إلى الدين والاعتصام به من أخطار الضغط الغربى واعتباره وطناً هو الذى أشار إليه البرت حورانى فى كتابه عن الفكر العربى فى عصر التحرر

(ص ٣٧٥ — ٣٩١) ، ومَثّل السلفيين فى ذلك مثـل الوهابيين والسنوسيين والمهديين (فى السودان) وكلهم سلفيون كذلك .

وبمناسبة ما قاله مالكولم كير عن محمد عبده والقانون الطبيعى تجدر بنـا الاشارة هنا إلى ما قاله روجيه أرنالديز فى محاضرته الآنفة الذكر عن تفسير المنار والقانون الطبيعى ، فقد درس هذه الناحية دراسة تعمق وشمول وحاول أن يجد أوجه المشابهة بين مصطلح القانون الطبيعى وما يرد فى تفسير المنـار من ذكر الفطرة والاستعداد والعهد الفطرى الخلقى وما إلى ذلك .

هذا كتاب جيد يفتح أمامنا آفاقاً واسعة من التأمل والتفكير لا فى محمد عبده ورشيد رضا فحسب بل فى الحركة الفكرية والقومية العربية بصورة عامة ، فإننا فى حاجة بالفعل إلى أن نحط الاثقال عن كاهلنا ونقف لحظة أثناء السير المضنى وننظر إلى الوراء لنرى ما قطعنا من الطريق ونفكر كيف قطعناه ، هذا يتجلى لنا فى الفصل الختامى من كتاب كير (ص ٢٠٩ — ٥٢٣) فهو فصل تأمل وإحصاء للنتائج ونظر إلى الأمام ، وهو على هذا الاعتبار من أحسن فصول الكتاب وأبعثها على التفكير ، ومن الطريف أننى إذا نظرت إلى محمد عبده خُيِّل إلىَّ أن العرب لم يسيروا من الطريق بعده إلا خطوات قليلة ، فإذا نظرت إلى رشيد رضا أحسست أننا قطعنا مراحل شاسعة .

وهنا موضع ملاحظة على ما قاله المؤلف فى الفصول الأولى من الكتاب عن النظريات السياسية عند مفكرينا القدامى ممن كتبوا فى النظم كالماوردى والقـاضى ابى يوسف وابى عبيد القاسم بن سلام وابن خلدون وأبى حامد الغزالى وابى الوليد الطرطوشى ومن إليهم ، فأن هذه النظريات والآراء إنما تمثل ما سمحت لهم الظروف السياسية التى عاشوا فيها بقوله ، فان أيدى الحكام كانت ثقيلة عليهم ، ولو تجاسر واحد منهم على قول شىء مما لا يرضى الحكام لكانت العقبى وخيمة عليه ، ولهذا فقد تكلموا كلهم فى احتياط وكتبوا بحساب

شديد ، ومع ذلك فقد لقى الكثيرون منهم العقاب على شىء قليل يسير قالوه ، وعندما كانت تتاح الفرصة لأحد منهم ليتكلم بحرية كان يطلق نفسه على سجيتها كما فعل ابن حزم فى بعض رسائله الصغيرة ، ومن حسن حظه — من هذه الناحية — أنه بعد يأسه من الخلافة لجأ إلى منتليشم قرب وَلبة فى الأندلس وهناك تكلم دون أن يرهبه سلطان .

أنطونى ناتنج : العرب ، حكاية تاريخهم من محمد إلى اليوم ، لندن ١٩٦٤ ، ٤٢٣ صفحة قطع متوسط

Anthony Nutting, *The Arabs. A. Narrative History from Muhammad to the Present.* Hollis and Carter, London, 1964

مؤلف هذا الكتاب سياسى انجليزى معروف ، له بالعرب وقضاياهم صلات بعيدة المدى منذ كان سكرتيراً خاصاً لأنطونى إيدن ثم عضواً فى مجلس العموم ثم وزيراً للخارجية ، وقد كان له نصيب كبير فى المفاوضات التى انتهت بجلاء آخر القوات البريطانية عن منطقة القنال فى ٢٨ يونيو ١٩٥٦ ، ثم استقال من الوزارة أثناء أزمة القناة سنة ١٩٥٦ لأنه لم يكن موافقاً على التدخل العسكرى الانجليزى إلى جانب فرنسا واسرائيل ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الكتابة والرحلات ، وله إلى جانب كتابه هذا كتاب معروف عن توماس إدوارد لورنس المشهور باسم لورنس جزيرة العرب .

وناتنج نموذج للأوروبى الذى أتاحت له الظروف معرفة حقيقة مأساة العرب وما جرى عليهم من المساءات والأذى من جانب أوروبا خلال العصر الحديث ، فجرى لسانه بالحق أو بأكثره ، مثله فى ذلك مثل توماس إدوارد لورنس نفسه وجون باجيهوت جْلاب وآرنولد توينبي وأندريه مالرو وشارل دى جول ، ونحن وإن كنا لا نجارى أنطونى ناتنج فى الكثير من آرائه وخاصة فى الفصول التاريخية الأولى من كتابه إلا أننا ينبغى أن نقرر أنه بذل جهداً كبيراً لكى

يكون أقرب ما يكون من الحقيقة كما يراها انجليزى منصف فيما يتصل بالتاريخ الحديث للعرب ، وهذا شيء نحمده له خاصة وقد كتب كتابه هذا فى فترة كانت العلاقات بين العرب والانجليز فيها على أسوإها .

وطبيعى أن أقسام هذا الكتاب لا تتعادل جميعاً فى القيمة والأهمية ، فإن الأقسام الأربعة الأولى تقص تاريخ العرب من الجاهلية إلى نهاية عصر المماليك ، وهى تلخيص لكتب إنجليزية أخرى وجمعٌ منها دون أصالة ، وفيها أخطاء كثيرة لا مجال لعرضها هنا ، ولكن القارىء العربى يفيد الكثير من ملاحظاته ولمحاته ، لأنها صادرة عن رجل محايد ثم هو سياسي له خبرة بأمور الدول وشئون الحرب والسياسة ، ومن هنا فإن القسم الرابع الخاص بالحروب الصليبية وانتصارات صلاح الدين والمغول والمماليك بالغ الطرافة ، يجد القارىء العربى فى مطالعته متعه وجدة .

ويدور القسم الخامس على عصور التدهور والجمود أيام المماليك المتأخرين والأتراك العثمانيين ، ثم نهوض مصر ونهاية العصور الإسلامية الوسيطة وبدء العدوان الأوروبى على عالم العرب ومناورات تصفية الدولة العثمانية لحساب الغرب ، واحتلال فرنسا للمغرب وانجلترا لمصر والسودان خلال الربع الأخير من القرن الماضى .

ومن هنا فصاعدا يأخذ الكتاب أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ العربى أو للقضايا العربية ، فمن ذلك الحين وانجلترا طرف فى كل ما مر على العالم العربى من أحداث ، وأنطونى ناتنج بحكم دراسته للتاريخ الانجليزى واتصاله بالسياسة الانجليزية معظم سنوات عمله يقص الأحداث من الزاوية الانجليزية ، وهو يقصها فى اعتدال واتزان وبُعد عن العصبية ، والقارىء العربى لا ينبغى أن يسرف فى العتب عليه لأنه قال بعض أشياء لا ترضينا ، لأنه فى نفس الوقت قال الكثير جداً مما يرضاه الحق ونرضاه نحن بالتالى ، ولام مواطنيه الانجليز وأخذ عليهم أخطاءهم فى حق العرب بل خياناتهم أياهم ، وكتب عن القضية الفلسطينية فصلا هو أصدق ما كتب أوروبى بما فى ذلك آرنولد توينبي .

وقد قرأت كلامه عن الثورة العربية الأولى على الأتراك فى تؤدة وتفكير ، لأن العربى يسأل اليوم — بعد أن صارت مأساة فلسطين إلى ما صارت إليه — أكانت ثورة الحسين بن علىّ شريف مكة صواباً ؟ ولكى نقترب من الاجابة على هذا السؤال نسأل : ماذا أفاد منها العرب ؟ لقد انتقلنا بها من استعمار الترك إلى استعمار الغرب ، واستعمار الترك ثقل على صدورنا ولكنه لم يمزق بلادنا ولم ينتقص من حدودها ، ظلت مصر هى مصر والشام هو الشام والعراق هو العراق ، ظللنا فى حال سيئة فعلا ولكن ظلت لنا وحدة أراضينا ووحدة شعوبنا . وماذا حدث بعد أن أنتقلنا إلى الاستعمار الغربى : قسّموا بلادنا وتوزعوها بينهم ، وهذا التقسيم هو السبب الرئيسى فى مأساة فلسطين ، إذ لو ظلت بلاد الشام مجتمعة كما نعرفها فى تاريخنا العربى لما فكر الصهيونيون فى الانفراد بها . إن أنطونى ناتنج يشرح ويفصل فى فصلين بالغى الأهمية والعمق « خيانة للعرب » (ص ٢٩٣ — ٣٠٥) و « مأساة فلسطين » (ص ٣٢٠ — ٣٣٩) كيف خانت أوروبا العربَ خيانة سافرة لعينة وجازتهم على ثقتهم فيها شر الجزاء ، ثم كيف كانت انجلترا من أول الأمر إلى آخره سبباً فى نكبة فلسطين ، حتى أنها عينت يهوديا وهو هربرت صمويل مندوباً سامياً لها فى ذلك البلد ولم تعترف قط بأى حقوق للعرب هناك وساندت الصهيونيين مساندة قوية ، بل ذهب أحد المندوبين السامين البريطانيين وهو سير رونالد ستورز إلى القول بأن عرب فلسطين ليسوا أهل البلاد ، وأنهم يختلفون عن عرب سوريا بالنسبة لسوريا وعرب مصر بالنسبة لمصر ، ومن هنا فليس هناك فى رأيه المشئوم ما يمنع اليهود من إنشاء دولتهم هناك ، وفى ص ٣٢٥ يكشف ناتنج النقاب عن حقيقة ما شاع وذاع من بيع الفلسطينيين لأراضيهم لليهود ، وهى أسطورة شابتها المغالطات والمبالغات ، إذ الحقيقة أنه فى أحيان كثيرة جداً كان الفلاحون العرب يطردون من أراضيهم بأمر السلطة الانجليزية وقوتها ليحل محلهم اليهود ، وحدث مرة أن طرد العرب — ملاكا ومزارعين — من مساحة قدرها ٥٠٠٠٠ فدان

وأعطيت لليهود ، ونال كل من العرب المطرودين ٣ جنيهات و ١٠ شلنات تعويضاً عما سلبوه أياه وفيه على الأقل بيتـه ، وهو مهما بخسنا قدره يساوى أكثر من هذا المبلغ الذى لا يصدق . وفى نفس الوقت وأثناء حكم هربرت صمويل أصبح معظم رجال البوليس والأمن يهوداً ، واستغنى الانجليز عن خدمات العرب فى هذا الميدان ، فلم يبق منهم فى البوليس أو وظائف الإدراة الرئيسية واحد ، وهربرت صمويل هو الذى اختار الشيخ أمين الحسينى مفتياً للقدس وجعله قبالة راغب النشاشيبى ، وهذه وأمثالها أمور ما أظن أن عامة قراء العرب يعرفونها ، إذ لو عرفوها لأدركوا عمق الهوة التى كانت تحفر تحت أقدامنا والقوى التى كانت تدفعنا فى عنف للتردى فيها .

ويقف ناتنج طويلا عند الكتاب الأبيض الانجليزى الذى صدر سنة ١٩٣٩ متضمناً مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ويقول إن تلك كانت فرصة طيبة لو انتهزها العرب ، وربما كان الرجل على حق عند ما كتب هذا الكتاب ، ولكن الأحداث دلت على أن الخطة الصهيونية كانت مرسومة على أساس ابتلاع فلسطين وربما أكثر منها ، وأن العرب لو قبلوا تقسيم ١٩٣٩ فقد كان من المؤكد أن الدولة الصهيونية ستجد حجة لاعلان الحرب والاستيلاء على الدولة العربية ، وهذا أيضاً يمكن أن يقال عن مشروع تقسيم ١٩٤٨ الذى اقترحته هيئة الأمم ، فهذه كلها كانت مراحل وتمهيدات للقضاء على فلسطين ، ولا ينبغى أن ننسى أن حايم وايزمان خطب فى حفل عشاء أقامه فى القدس المندوبُ السامي البريطانى رونالد ستورز سنة ١٩١٨ وقال أن هدف اليهود هو العمل جنباً إلى جنب مع العرب وأنه ليست لهم مطامع سياسية ، وهذا الرجل نفسه قال بعد قليـــل فى المؤتمر الصهيونى فى لاهاى : إن حركته تقصد إلى أن تجعل فلسطين يهودية كما أن أمريكا أمريكية وانجلترا انجليزية .

ومن الفصول التى تستوقف النظر بعد ذلك الفصل السابع والعشرين عن نورى السعيد وعصره (٣٣٩ — ٣٥٥) ومصر من كرومر إلى عبد الناصر (٣٨١ — ٣٨٦) والفصل الأخير عن المشكلة العربية ، فهذه كلها تثير فى نفس القارىء عشرات الأسئلة ، وما أكثر الأسئلة التى تطوف بالعقل حيرى دون أن تجد الجواب !

د. ضياء الدين الريس ، عبد الملك بن مروان ، موحد الدولة العربية . سلسلة أعلام العرب رقم ٢٠ ، القاهرة ١٩٦٢

لابد أن نحمد لوزارة الثقافة فى القاهرة ذلك الجهد الكبير المتعدد النواحى الذى تقوم به لتثقيف الناس أولا ثم لخدمة العلم فى عالم العرب ثانياً بكل ما أتيح لها من وسائل هذه الخدمة من نشر كتب علمية عالية المستوى إلى تحقيق مخطوطات إلى اعداد قواميس ودائرة معارف إلى إصدار سلاسل كتب من طراز «أعلام العرب» و «مسرحيات عالمية» وروايات ذات قيمة أدبية كبرى ، وما إلى ذلك .

وهذه السلسلة «أعلام العرب» تعتبر من أحسن السلاسل التى تنشرها الوزارة ، فهى مجموعة تراجم ممتازة لأعلام من العرب فى كل ميدان تقريباً ، وسنكتب فى هذه الفقرة عن كتاب عبد الملك بن مروان وفى فقرة أخرى سنكتب عن كتاب ان ماجد الملاح وهو فى رأينـا من أحسن أجزاء هذه السلسلة .

مؤلف كتاب عبد الملك بن مروان هو الدكتور ضياء الدين الريس ، رئيس قسم التاريخ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وهو فى يومنا هذا من أعلام مدرسة التاريخ المصرية ، يوالى جهده من سنوات فى خدمة تاريخ المسلمين كأستاذ لذلك التاريخ فى تلك الكلية الإسلامية التى ينتشر خريجوها فى طول العالم الإسلامى وعرضه مواصلين رسالة العلم المجيدة التى فرضها الله على أهل العلم من أبناء أمة الإسلام .

الكتاب يدرس عبد الملك بن مروان وأعماله ، وعبد الملك هو واسطة عقد آل مروان وصخرة بنى أمية فى الشرق : وهو لا يعادَل إلاّ بالعظام من أمراء بنى أمية فى الأندلس ، فهو مثلا صنو عبد الرحمن بن معاوية ذكاءً وحزما وشخصية وقدرة على مواجهة الصعاب ، وقد كان هو النموذج الذى طالما احتذاه الحكم بن هشام وهو الحكم الربضى ، وهو إلى جانب أمويته من أحسن نماذج الفحولة العربية فى أصفى صورها ، وجماع ما يمكن أن نقول فيه هو أنه سيد عربى أصيل وفارس شهم ومسلم جدير بالإعجاب ، وهذه الصفات هى التى نهضت به إلى خلافة المسلمين .

درس الدكتور الريس حياة عبد الملك فى عمق واتساع ، فأحاط إحاطة تامة بالأصول العربية ، وقرأ كل ما كتب عن عبد الملك والأمويين فى العصر الحديث ، وهذا بيِّن من مطالعة فصوله ، فأننى معنى منذ حين بإنشاء كتاب عن بنى أمية فى الشرق والغرب ، وقد نشرت موجزاً له بالإنجليزية فى إحدى المجلات العلمية الأوروبية منذ قليل ، ومن هنا فاننى عندما اقرأ شيئاً عن بنى أمية فأننى أعرف الأصول التى رجع إليها صاحب الكلام . وقد أعجبنى فى ذلك الكتاب اتجاه المؤلف إلى انصاف بنى أمية بما يقضى به الحق ، فإن مؤرخينا القدامى كان يحملهم حبهم لآل البيت وأسفُهم لما أصاب الكثيرين منهم أيام بنى أمية على معـــاداة هؤلاء وتحميلهم مسئولية كل شر أصاب الإسلام ، وهذا واضح حتى فى رسالة صغيرة لتقى الدين المقريزى هى « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » ورسالة أصغر منها للجاحظ فى نفس المعنى والاتجاه ، ولكنها أقسى على بنى أمية وأعنف .

وقد عرف د. الريس كيف يعالج موضوع انتقال الخلافة إلى بنى أمية ثم إلى بنى مروان ، وذلك من أصعب الأمور على المؤرخ ، لأن المراجع التى تؤرخ لأحداث مملكة الإسلام من قبيل مقتل عثمان إلى موت عبد الملك بن مروان تتضارب فيما بينها تضارباً شديداً ، ومعظم من كتب فى الموضوع من

القدماء كتب عن عصب وعاطفة ، ومعظم من كتبوا بعد ذلك كتبوا عن حماس لأهل البيت ، وقد كان مؤرخونا القدماء لا يزالون يتعجبون من وصول معاوية إلى الخلافة ، فلما حازها مروان الحكم تعدى الأمر إلى الغضب ، ولكن فاتهم أن يلاحظوا أن الظروف العصبية التى مرت بها دولة الإسلام اثنـاء الحروب الأهلية بين عليّ ومعاوية كان لا يمكن أن تتحسن إلا على يد رجال ذوي حزم وعزم وتجربة وسياسة وإيمان ، وقد أثبت معاوية بن أبى سفيان أنه على جانب كبير من ذلك ، ولكن ابنه يزيد لم يكن من طرازه ثم كان حفيده خالد بن يزيد شابا صغيراً لا تجربة له ولا حكمة عنده ومن حوله رجال كالسباع قوة وحزامة من طراز حسان بن مالك والضحاك بن قيس ومروان ابن الحكم وعبد الله بن زياد وعمرو بن سعيد ومالك بن هبيرة والحصين ابن نمير السكونى وروح بن زنباع الجذامى وغيرهم ، وكل منهم داهية فى ذاته ، ومن بعيد وقف عبد الله بن الزبير فى المدينة وقد كاد الأمر يتم له ، فاستطاع مروان أن يحوز الأمر بذكائه وحزمه وسياسته ، ولا شك أن وصول مروان إلى ذلك إنما يرجع فى المكان الأول إلى رجاله ، ومن أعظم ملكات رجل السياسة معرفته بالرجال واختيارُه لمن يعتمد عليه منهم ، ومهما بلغت قدرة رجل السياسة فإن نجاحه متوقف على فهمه للرجال وقدرته على تمييز الصالح منهم .

هذا الكتاب من الدراسات الجيدة فى تاريخ المسلمين ، وقارئه يجد فيه إلى جانب الفائدة طلاوة فى القصص وسهولة فى ترتيب الحوادث ، وهو من أحسن ما يوصى به أولئك الذين يبحثون عن الكتب الجيدة ذات الفائدة الأصلية . أما بحثى الذى أشرت إليه فهو :

The Umayyads of the East and West. A study in the history of a great Arab clan, In *Der Orient in der Forschung. Festschrift für Otto Spies zum* 5. April 1966, Wiesbaden 1967.

أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى . مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، سنة ١٩٦٥

كاد هذا الكتاب القيم يمر دون عرض فى هذه الصحيفة لمجرد أنه من مطبوعات المعهد ، وقد سألنا بعض إخواننا فى أن يقوموا بذلك ، ولكن شواغل الأيام كثيرة ، والأيام تندرج دون أن يتحقق الرجاء فرأيت أن أقوم بهذا الواجب تداركا لحق كتاب قيم وأستاذ جليل .

هذا النص هو أقيم ما نشر عن الأصول الأندلسية منذ أن نشر ليفى بروفنسال مختاراته الأندلسية من الروض المعطار فى خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميرى ، وهو دون شك من أجود ما نشر تحقيقاً وضبطاً وعناية ، وقد تعودنا من الدكتور الأهوانى الاتقان والتجويد ، وما قرأنا له شيئاً إلا خرجنا منه بفائدة جليلة ، ولكن هذا الأصل أربى على غيره . فهو كنز زاخر بالمعلومات ومنبع غزير للفوائد من كل صنف عن الأندلس ، ويبلغ من أهميته وفائدته أنه منذ صدر لا يكتب أحد شيئاً عن الأندلس إلا رجع إليه او أفاد منه وذكره بين مراجعه .

وقد عثر على مخطوطة هذا الكتاب القيم السيد رشاد عبد المطلب ذو اليد الطولى فى البحث عن المخطوطات والعمل على جمعها وتصويرها وفهرستها وتيسير الاطلاع عليها للعلماء ، وقد دل عليها الأستاذَ الدكتور الأهوانى فكأنه أعطى القوس باريها ، فإنه خير من يضطلع بتحقيق هذا الأصل والتعليق عليه وإخراجه إلى النور ، وقد كان المخطوط فى الأصل أوراقاً متفرقة فعكف د. الأهوانى عليه يدرسه ويرتب أوراقه حتى استطاع أن يخرجه بعد الجهد الطويل سياقاً متصلا إلا فى مواضع قليلة استحال عليه ذلك .

ومؤلف الكتاب هو أحمد بن عمر بن أنس العذرى المتوفى سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥ وقد وفيناه حقه كجغرافى فى كتابنــا عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، وكتب له د. الأهوانى ترجمة وافية فى مقدمة الكتاب الذى نعرضه ، ولابد أن نشير هنا إلى مكان العذرى فى تاريخ الفقه فى الأندلس ، فقد كان من أكابر المحدثين فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وتلاميذه فى الأندلس كثيرون جداً ، وقد أشار إلى ذلك الأهوانى ، ولم يبق لنا من مؤلفاته فى الحديث شىء ، فهذه القطعة التى نشرها الأهوانى هى البقية الوحيدة بين أيدينا من عمله ، وهى بقية صالحة ذات قيمة كبرى كما قلنا .

وقد ذكر الأهوانى فى مقدمته أن هذا الجزء الذى نشره يمثل عُشر الكتاب الأصلى ، لأن العذرى جعله كتاباً كبيراً فى المسالك والممالك ، ولكنه فى الجزء المنشور لا يسير على طريقة المسالكيين ، بل هو لا يقصر كتابه على الجغرافية بل يضمنه الكثير من المادة التاريخية ، وهذه المادة تتخلل كل جزء من أجزاء الكتاب ، وهذا شىء لم يفعله على هذه الصورة أحد من المسالكيين ، حتى البكرى ، وهو المسالكى الذى استطرد أكثر من غيره إلى تفاصيل تاريخية ، لا يبلغ هذا المبلغ ، فكأن الفاصل بين التاريخ والجغرافية لم يكن واضحاً فى ذهن العذرى ، وهذا يعنى نقطة خلاف كبرى بينــه وبين المسالكيين ، ولكنه — فيما عدا هذه الاستطرادات — جغرافى أصيل ، إذا وصف كورة فعل ذلك فى إتقان وشمول وصدق ، وإذا تحدث عن مدينة صورها تصويراً واضحاً وضمَّن كلامه إشارات عن أحوال أهلها الاجتماعية والاقتصادية وما إلى ذلك مما يدخل فى نطاق الجغرافية البشرية . وهو الذى أتانا بذلك التقسيم المفصل للكور إلى أقاليم وأجزاء ، وذِكر مقادير الجبــايات والضرائب على كل قرية ، وهذا فى ذاته شىء عظيم القيمة للمؤرخ وقد أفدنا منه فائدة كبرى .

قام د. الأهوانى بتحقيق هذا الكتاب على أحسن ما يكون ، وقد راعى فى عمله دقة متناهية فى إيراد النص كما هو ، وهذه خصلة حمدها له كل من

رجعوا إلى الكتاب وأفادوا منه ، فإذا بدر له تعديل أو إضافة — مهما كان ذلك ضئيلا — فعل ذلك بين حواصر أو أرجأه إلى تعليقاته الكثيرة فى آخر الكتاب ، ومن هنا فإنك تقرأ هذا النص وأنت مطمئن تمام الاطمئنان إلى أن أمامك المخطوط كما هو بغاية الدقة ، فإذا أردت تعليقاً أو رأيا فى الصورة التى أمامك فعندك التعليقات فى آخر الكتاب ، وهو فى هذه التعليقات موجز يكتفى بالضرورى دون إسراف فى نقول من كتب أخرى . وهذه التعليقات وافرة ، فإن النص الأصلى يقع فى ١٢٨ صفحة والتعليقات وحدها تقع فى ٥٧ صفحة وتلى ذلك فهارس مفصلة هى الغاية فى الدقة والفائدة .

ومنذ اللحظة الأولى احتل هذا الكتاب مكانه بين المتخصصين فى الأندلسيات ، وعكف نفر من زملائنا الإسبان على درسه وشرع بعضهم فى ترجمته إلى الإسبانية ، وسنشير هنا إلى ثلاثة من الأعمال العلمية التى نشرها اثنان من أولئك العلماء على أساس من نص العذرى هذا .

أول هذه الأعمال هى الترجمة الممتازة التى قام بها د. فرناندو دى لا جرانخا أستاذ كرسى الدراسات العربية بجامعة سرقسطة لفصول العذرى الخاصة بالثغر الأعلى ، وقد نشرها فى كتاب هذه بطاقة عنوانه :

Fernando de la Granja, *La Marca Superior en la obra de al-ʿUdrī*. Publicado en Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón. Sección Zaragoza. Zaragoza, 1966

فى هذا الكتاب القيم تناول فرناندو دى لا جرانخا بالترجمة والتعليق والدراسة الفصول الخاصة « بكورة سرقسطة وما والاها » ثم « الثوار فى سرقسطة وذواتها » ثم التجيبيين والعمال الذين تولوا قلعة أيوب وحصونها ودروقة ثم الكلام عن وشقة وما والاها وأعمالها والمتنزين بها من (ص ٢١ إلى ٧٤ من النص المطبوع) ، وهى

٥٣ صفحة من مجموع صفحاته وهى ١٢٨ أى أقل من نصف الكتاب بقليل ، فجهده على هذا جهد ضخم إذا ذكرنا أنه أضاف دراسات وتعليقات وتحقيقات وافية زادت من قيمة نص العذرى وامكانيات الافادة منه .

الترجمة دقيقة وجميلة ، وهذا أمر لا نستغربه من فرناندو دى لا جرانخا فإن علمه بالعربية متين وواسع ، وخبرته بالترجمة منها إلى الإسبانية طويلة ، أما التعليقات فهى فى ذاتها ذخر نفيس رجع فيه إلى كل المراجع الموجودة ، ومن حسن الحظ أنه اعتمد على الوثائق التى نشرها الأستاذ لاكارا وكلها عن منطقة الثغر الأعلى ، وفيها ذكر لكثير من المواضع التى وردت فى نص العذرى ، فاستطاع لاجرانخا أن يضيف بهذا فوائد جليلة إلى ما أضافه الأهوانى فى تعليقاته . وناحية أخرى تنبه إليها لاجرانخا وأفاد منها فائدة كبيرة هى اطلاعه على كل ما نشر فى مجلة الأندلس من أبحاث وخاصة تلك التى تتضمن تحقيقات جغرافية ، فهذه فى الحقيقة كنز زاخر ، تمكن لا جرانخا من الإحاطة به أثناء عمله فى تحرير هذه الصحيفة ، واعتقد أنه لو كان أعطى نص ابن الأبار الكامل كما نشرناه من سنوات حقه من العناية لاستطاع استكمال تعليقاته عن بنى هاشم والتجيبيين وبنى الطويل .

وأضاف لا جرانخا إلى الترجمة ملحقاً عن اسرات المولدين الذين ذكرهم العذرى فى كتابه ضمَّنه البيانات التى أوردها ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب عنها ، ثم أعقب ذلك بجداول أنساب غاية فى الفائدة والأهمية عن بنى قسى والتجيبيين وبنى عمروس ، وكل هذا يدل على أن لا جرانخا يعمل بطريقة منهجية سليمة ، وهى الطريق الوحيد للانتاج العلمى السليم .

وثانى هذه الأعمال مقال للدكتور لويس سيكو دى لوثينا مدير مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة وأستاذ الدراسات العربية فى جامعتها عن غزوات المنصور محمد بن أبى عامر بناء على بيانها الذى أورده العذرى عنها ، وبطاقة عنوان هذا البحث كما يلى :

Luis Seco de Lucena, *Acerca de las Campañas de Almanzor* en *Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos.* Vols. XIV-XV, fasc. 1, pp. 7-29, Granada, 1965-1966

ذلك أن العذرى أورد فى كتابه (النص المطبوع ٧٤ — ٨٠) بياناً عن ١٨ من غزوات المنصور تحت عنوان : « ذكر بعض غزوات محمد بن أبى عامر إلى بلاد الروم » ، فتناوله سيكو دى لوثينا بالبحث والدراسة بما عُرف عنه من الدقة والاتقان .

بدأ سيكو دى لوثينا مقاله بدراسة موجزة ومستوفاة لتاريخ غزوات المنصور فى المؤلفات الأوربية الحديثة بادئاً بدوزى ، وقرر أنه فى الحقيقة صاحب الفضل الأول فيما لدينا من معلومات تاريخية منظمة عن غزوات المنصور ، فهو الذى استخرج اخبارها من النصوص العربية والمؤرخات النصرانية ونسقها ورواها فى سياق واحد متصل ، وجاء بعده ليفى بروفنسال فأخذ كلام دوزى وأضاف إليه شيئاً قليلاً وأورد بياناً مفصلاً عن بعض غزوات المنصور بن أبى عامر فى تاريخه . وقال إن ليفى بروفنسال يقول أن تلك الغزوات لا تقل عن ٥٠ غزوة ما بين صائفة وشاتية قام بها خلال نيف وعشرين سنة دامها سلطانه فى الأندلس ، ولكن الحقيقة أن معلوماتنا لا زالت قليلة عن كثير من هذه الغزوات ، فكل التفاصيل التى لدينا لا تورد إلا ذكر ١٦ منها . ثم تحدث بعد ذلك عن الفصل الذى أداره العذرى على غزوات المنصور وبيَّن أهميته وما يضيفه إلى معلوماتنا ، ثم ترجم الفصل كله فأورد كلام العذرى عن الغزوات واحدة واحدة ، ثم اتبع كلا منها بتعليق ضاف استكمل فيه تحقيق الجهة التى ذهبت إليها كل غزوة وتاريخها وأين ورد ذكرها من النصوص العربية أو النصرانية .

هذا بحث جيد على أكبر جانب من الأهمية ، وسيكون له منذ الآن مكانه فيما سيكتب من تاريخ المنصور محمد بن أبى عامر .

وقد ورد فى مقال سيكو دى لوثينا ذكر لكتاب ابن حيان عن الدولة العامرية ، وجاء العنوان فى أول ص ٩ من المقال هكذا : « الموضوع فى أخبار الدولة العامرية » وعنوان الكتاب كما هو معروف « البطشة الكبرى » . .

والبحث الثالث الذى نشير إليه هنا قام به أيضاً الأستاذ لويس سيكو دى لوثينا ، وموضوعه الصفحات التى خصصها العذرى لوصف مدينة المرية ومبانيها ، وهى واردة ضمن الفصل الذى عنوانه : « من حديث المؤلف عن كورة البيرة » (ص ٨١ — ٩٢ من الأصل) وبطاقة العنوان كما يلى :

Luis Seco de Lucena, *Los Palacios del Taifa almeriense al-Mu'ṭasim;* en Cuadernos de la Alhambra, vol. III, Granada, 1967, p. 15

أى قصور المعتصم بن صمادح ملك الطوائف فى المرية .

وقد اعتمد سيكو فى هذا المقال على التفاصيل الوافية التى أوردها العذرى فى كتابه ، ومن حسن الحظ أن العذرى عاش فى المرية وعرف مبانى قصبتها وقصورها ، لأنه كما قلنا فى الفصل الخاص به من تاريخ الجغرافية والجغرافيين عمل فى ديوان بنى صمادح فكانت تفاصيل القصور التى ابتناها المعتصم فى قصبة المرية مألوفة لديه .

أشار سيكو فى أول بحثه إلى مقال طويل معروف بقلم ليوبولدو توريس بالباس عن المرية الإسلامية نشره فى مجلة الأندلس » (مجلد ٢٢ سنة ١٩٥٧) جمع فيه كل المعلومات التى لدينا عن المرية وقصبتها إلى حين كتابة ذلك المقال ، ومن أهمها التفصيلات التى أوردها ابن خاتمة فى رسالته المعروفة بتحصيل غرض القاصد بتفصيل المرض الوافد ، وموضوعها الوباء الشنيع الذى اجتاح أوروبا كلها فى القرن الثالث عشر وما فعله فى المرية ، ثم قال ان المهندس المعمارى فرانثيسكو بريتو مورينو Francisco Prieto Moreno المشرف على الآثار فى المرية

قام بدراسات طويلة لقصبة المرية وما كان قائماً من مبانيها فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر وبيَّن أن منشآت القصبة كانت قائمة على مستويات مختلفة من سفح التل إلى أعلاه .

وتناول بعد ذلك وصف العذرى للقصور التى بناها المعتصم فى القصبة وهى الواردة فى ص ٨٤ — ٨٥ من النص المنشور ، فترجمها إلى الإسبانية ثم ناقشها مناقشة طويلة وحدد المراد بما ورد فيها من ذكر « البستان العظيم » و « المجلس العظيم » و « الدار الكبيرة » — ويرى سيكو أن المراد بها دار الامارة — والمجلس المقرنس الواقع جنوبى تلك الدار ، وحدد مكان الساقية التي جلب بها المعتصم المـــاء إلى جامع المرية والسقاية التى كانت تحملها ، والغصن (الفرع الصغير) الذى حفره ليصل الماء إلى وراء القصبة وتسريب الساقية تحت الأرض وما إلى ذلك .

كل ذلك درسه سيكو دى لوثينـــا فى عناية ودقة ، وقدم بذلك نموذجا طيباً للاستفادة من النصوص وكيف تكون . وقد أرفق ببحثه بعض صور فوتوغرافية للقصبة أثبت فيه كل المواقع التى ذكرها العذرى فى نصه القيم .

محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى ، حيـــاته وآثاره .
منشورات المركز الجامعى للبحث العلمى ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٦٦

عرفت أبا المطرف أحمد بن عميرة المخزومى (رمضان ٥٨٢ — ذى الحجة ٦٥٨/نوفمبر ١١٨٦ — نوفمبر ١٢٦٠) معرفة جيدة ، فقد قرأت كل ما تيسر لى عنه لأكتب عنه مادة للطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية ، وعرفت الكثير عن حياته أثنـاء دراستى عن ابن الأبار وفى بعض مراحل تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ولهذا فقد قرأت هذا الكتاب فى عناية واستمتاع وشكرت لصاحبه الأستاذ محمد بن شريفة الجهد الطيب الذى بذله

ليخرج إلينا هذه الدراسة الممتازة عن شخصية قلقة معذبة عاشت فى عصر تعيس مضطرب فشقيت بنفسها أولا ثم بعصرها ثانيــاً : شخصية أبى المطرف أحمد ابن عميرة المخزومى .

والناحية الهامة فى دراسة كهذه ليست شخص المدروس نفسه ، فإن ابن عميرة فى ذاته كان من حيث المستوى الانسانى والفكرى رجلا عاديا ، كل ميزته ملكة لا بأس بها فى الترسل ، وهذه الملكة كانت أيسر ما يُدرس فى تلك العصور فهى تقوم على استظهار طراز معروف من كتب الأدب ، ثم استعمال الثروة اللفظية الضخمة التى تتحصل بهذه الصورة فى إنشاء كتابات أو رسائل مسجوعة لا يتحصل منها شىء ذو بال إلا بعد العناء ، ولكن الناحية الهامة هى ان استخراج حياته وتعرف تفاصيلها يعطينا قطاعا رأسياً فى حيــاة ذلك العصر ، وأنت هنا كأنك تعمد إلى شجرة ضخمة من أشجار الغابة فتستخرجها من الأرض بجذورها كلها التى تذهب عمقاً وفى كل إتجاه عشرات الأمتار ، فتجد أمامك مقطعاً فى باطن هذه الأرض يريك مادتها وتركيبها وما فيها ، فالشجرة فى ذاتها لا تعنينا كثيراً فى هذا المطلب ، الذى يعنينا ما يدل عليه قطاع جذورها ، وهذا بالذات ما ظفرت به فى هذه الدراسة المستوفاة ، فقد ذهب محمد بن شريفة مع الرجل إلى جذوره البعيدة جداً : أصله وأجداده وأسرته وبلده وشيوخه ، ثم رافقه فى حياته مرحلة مرحلة مقدماً لنا التفاصيل الدقيقة فى كل حالة ، فتحصلت لنا من هذه الدراسة معلومات كثيرة جداً ذات قيمة كبرى لمجتمع الغرب الإسلامى كله خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من السابع ، وهو عصر انحدار محزن فى تاريخ الغرب الإسلامى ، شهدت فيه دولة الموحدين أوجها فى انتصار الأرك ثم قاصمة ظهرها فى معركة العقاب ، وشهد الأندلس الإسلامى خلاله انهيار الآمال فى انقاذه واستعادة مجده نتيجة لما وقع من تشقق بنيان دولته وتداعى أركانها بسبب الخلافات والأحقاد والمطامع الرخيصة التى ملأت قلوب رجالها وذهبت بهم وبدولتهم إلى الزوال .

عاش ابن عميرة فى ذلك العصر فلم ينفع عصره ولا نفسه بشىء ، فقد خب وأوضع فى الفتن وطلب الوظائف وجرى من مكان لمكان غير ناظر إلى مثل كريم كالذى ضربه له أستاذه أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعى ولا متطلع إلى أكثر من سعة رزقه وبلوغه الحظوة عند أصحاب السلطان فى ذلك العصر ، وقد كان ابن شريفة رقيقاً كل الرقة فى الحكم على هذا الرجل ، فهو يجتهد دائماً فى العثور على لفظ مجاملة ليستغنى عن لفظ اتهام ، وهى ناحية شكرتها له ضمن ما شكرت ، وإن كان من الواضح فى هذه الترجمة الضافية أن العبرة منها لقارئها هى ألا يكون الإنسان كابن عميرة ، فان من الناس من نقرأ سيرهم لنكون مثلهم ، ومنهم من نقرأ حياتهم لكى نحذر ألا نكون مثلهم ، وقد أثر عن الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى المعروف أنه قال : إن العبرة من وراء هملت هى ألا تكون هملت .

وأعود فأقول بعد ذلك أن الحكم على الناس ليس من وظيفة المؤرخ ، فإن أحداً منا لم يبلغ من الحكمة ما يأذن له فى تنصيب نفسه قاضياً على الآخرين ، وإنما نحن نحكم على العصر برجاله ، فإذا كان ميزان الدولة الموحدية قد مال فذلك نتيجة أعمال رجالها ، وإذا كان شرق الأندلس قد ضاع فلأن أمثال أبى الربيع سليمان بن سالم كانوا فيه قليلين وأمثال أحمد بن عميرة كانو كثيرين ، والتاريخ يصنعه الرجال ، والظروف يخلقها الرجال ، ومن عصر كانت غالبية النابهين فيه أحمد بن عميرة ما كان يمكن أن ينتهى إلا إلى الصورة التى انتهى إليها ، وقد وقفت طويلا أمام رسالة أرسلها ابن عميرة من تونس إلى صاحبه وبلديّه ابن الأبار ، وكان إذ ذاك مبعداً فى بجاية يكتب ويدرس نتيجة « لفشله فى فهم نفسية السلطان واخفاقه فى الانسجام مع حاشيته » كما يقول ابن شريفة ، وهو يبشره فيها برضا السلطان المستنصر الحفصى عنه فى فرح سخيف كأنه يبشره باستعادة بلنسية أو بدخول الجنة :

هنيئاً هنيئاً ، قد رَفَلتَ من المُنَى بأفخــر ملبوس وأجمل شارة !

وقلت فى نفسى : سبحان الله يا أستاذ ! ما دعوت الرجل إلا إلى حتفه ، وقد كان أحسن له ألف مرة لو قنع بالمقام فى بجاية يدرس ويؤلف حتى يفيد من نفسه وعلمه ، ولكن كلا الرجلين كان متهالكا على أفخر الملبوس وأجمل الشارة ، فكان من أمر ابن الأبار أن قتل على أسوأ صورة أما الثانى فمضى يجرى وراء الملبوس والشارة حتى أدركته المنية .

وقبل أن أفرغ من الكلام على ذلك العمل العلمى الطيب أحب أن أبدى ملاحظة يسيرة : لقد لاحظت أن المؤلف مولع بالاستدراك على الناس ، حتى الخطأ المطبعى الواضح يقف عنده ويعلق عليه ، ولا تمضى فى قراءة صفحات من كتابه إلا وجدته يقول : فلان أخطأ فى كذا وعلان هفا فى كذا ! وهذه طريقة ملأت تاريخنا الفكرى بالمآسى ، ومعظم ما نقرأ عنهم من الشيوخ كانت قلوبهم تفيض بالأحن بسبب استدراكات الآخرين عليهم وتعقبهم اياهم : فلان سرق هذا المعنى من فلان وفلان نظر فى هذا إلى علان ، وكان أولى به أن يقول كيت ، وقصر هنا عن قول فلان . . . وكلها فى الحقيقة تعقبات واستدراكات يسيرة لا فائدة فى تجريح الناس بسببها ، فقد وقف المؤلف مثلا أكثر من خمس مرات بمقال كان ح. ح. عبد الوهاب قد كتبه عن ابن عميرة فى الثريا سنة ١٩٤٤ فما زال يقول أخطأ ووهم وسها وخلط وغلط حتى جعل مقال الرجل خطيئة كبرى ، والأمر يا أخى أهون من ذلك بكثير ، فقد ذَهَبَت مجلة الثريا إلى حال سبيلها والمقال الذى تشير إليه لا يصل الانسان إلى نسخة منه إلا بعد السعى الحثيث ، وهو بعد ذلك مقال قديم لن ينظر فيه أحد بعد أن أخرجت كتابك القيم هذا ، فما ضرك لو عبرت به دون هذا التعقب اللدود ؟ لقد كتبتُ مقدمة الحلة السيراء وذكرت نحو عشرين عالما دون أن استدرك على أحد منهم شيئاً ، وحتى فى الحالات التى وجدت فيها خطأ فيما عمله دوزى فإننى لم أشر إليه بل كتبت ما رأيت أنه صحيح ومضيت ، وفى

باب النقد هذا الذى أكتبه يندر أن أتعقب على أحد خطأ أو استدرك عليه شيئاً أو أنصب نفسى حكما على أعمال الآخرين ، فإنه إذا جاز لى أن استدرك على مؤلف ٢٠ خطأ مثلا فلابد أن أقول فى نفس الوقت أنه أصاب فى ألوف المواضع ، وما دام الخطأ أو السهو أو الوهم — أو ما شئت أن تسميه — يسيراً لا يضر الصلب فالإشارة إليه وتجسيمه لا تصلحه وإنما تسىء إلى صاحبه ، أما إذا كان الأمر يمس صميم الموضوع أو يغير الحقيقة التاريخية فهنا يكون الكلام ، وأقصى ما آذن لنفسى فيه هو النصح كما ترى فى هذه السطور .

لقد لاحظت أن هذه الطريقة التى نجرى عليها هى طريقة المحسنين من أهل العلم عندنا ، فلا أذكر أننى قرأت لشوقى ضيف أو عبد العزيز الأهوانى أو جمال الدين الشيال أو عبد السلام هارون أو الشيخ شاكر أو إحسان عباس أو محمد الفاسى أو مصطفى جواد أو جواد على تعقبــاً على أحد ، وعلى طول تقليبى فى مؤلفات الغربيين ما رأيتهم يحرصون على هذا التعقب والاستدراك ومحاسبة الناس ، لأن الوقت لا يتسع ، ولقد قرأت تاريخ الحروب الصليبية لاستيفن رانسيمان وفيه تصحيحات لعشرات الأخطاء الجسيمة التى وقع فيها قبله جروسّيه ، فما لاحظت أنه حاسبه على الخطأ مرة واحدة ، إنما هو يكتب ما يراه صواباً وفى هذا كفاية .

ياأخى ابن شريفة : ان العامل فى العلم فى بلادنا يحفر البئر بإبره ، وهو يؤلف الكتاب أو يحققه وينشره فى مئات الصفحات ويفنى نور البصر ودم القلب لقاء دراهم أنت أدرى بقدرها ، وكل أمله بعد أن يفرغ من العمل أن يسمع التقدير من الناس ويشعر أنه خدم ونصح ، فما يروعه بعد العناء الجاهد والجهد المضنى إلا وإنسان — صاحب له أو غير صاحب — يقول : اخطأت فى هذا اللفظ وحرَّفت فى هذه العبارة وأسأت وزن هذا البيت ، وهنا فاتتك ألف مقصورة وهناك وقعت فى الغلطة المحظورة وهنــا وهمت فى تمييز العدد وهناك أخطأت فى حساب المدد !

هذا التعقب يا أخى آفة من آفات أهل العلم عندنا ، وقد ملأت تاريخنا الفكرى مآس وجعلت الشيوخ أعداء الشيوخ ، وخير منها تقدير الحسنات ومواساة العاملين فى صمت المخطوطات ووحشة الوحدة بين الكتب بكلمة طيبة تشرح الصدر وتشحذ الهمة وتحفز على المزيد من الجهد والتجويد .

يوسف شاخت : مقدمة لدراسة الشريعة الإسلامية ، مطبعة جامعة أوكسفورد ، ١٩٦٤

Joseph Schacht, *An Introduction to Islamic Law*. Oxford, the Clarendon Press, 1964

يندر أن نقرأ فى أيامنا هذه كتابا من هذا الطراز الممتاز ، فان مؤلفه يوسف شاخت استطاع أن يحشد فى ٢٨٧ صفحة من القطع المتوسط مادة لو تناولها غيره لاحتاج إلى أضعاف هذا الحجم ليكتبها ، وهذا الايجاز المعجز هو إحدى ميزات كل مؤلفات شاخت ، فإنه يأتيك فى صفحات قليلة بخلاصة ما يريد أن يقول دون أن يتخلى إلى جانب ذلك عن جمال الصياغة وسهولتها ، فقد قرأت هذا الكتاب وأنا من غير المتخصصين فى الشريعة الإسلامية فلم أجد أى صعوبة فى تتبع ما يقول سواء فى تاريخ التشريع الإسلامى أو فى عرض قضاياه العامة . ويرجع هذا دون شك إلى تمكن شاخت تمكناً تاماً من كل ما يتصل بالشريعـة الإسلامية : تاريخها وتطورها ومدارسها وشيوخها وأصولها ومسائلها الرئيسية ومواقف المذاهب من كل منها وهذا واضح من كتابه الشهير عن أصول الفقـه الإسلامى Origins of Mohammedan Jurisprudence وهو أوضح فى ذلك الكتاب الذى نعرضه اليوم .

ويندر جداً كذلك أن تجد عالمـاً فى دقة شاخت فيما يكتب ، فهو لا يكتب شيئاً إلا ووراءه السند بل الأسناد ، وإذا عرض رأياً فعل ذلك فى غاية الدقة والإحكام ، وهذا يتضح فى القسم الثـانى من ذلك الكتاب الخاص

بالشريعة نفسها والكلام عن طبيعتها وموقفها من أبواب التشريع الكبرى ، وانظر مثلا الفصل الذى أداره على الملكية أو عن الالتزامات بصورة عامة Obligations in general أو الالتزامات والعقود أو الأسرة أو الوراثة والاجراءات القانونية التى تسمى اليوم بالمرافعات procedure ، فهذه كلها أبواب فنية وقيمة عرف شاخت كيف يعالجها فى اختصار ووضوح يغنيان الإنسان عن مؤلفات أخرى أكثر تفصيلا وأكبر حجماً .

وكل فصول هذا الكتاب تستدعى التأمل والتفكير ، وبعضها لا زال موضع مناقشات عنيفة بين المحدثين والقدامى من القانونيين المسلمين ، ومن هذا الطراز مسألة تأثر الشريعة الإسلامية بالشريعات السابقة عليها والمعاصرة لها . ان شاخت يعالج هذا الموضوع فى الفصل الرابع من كتابه الخاص بالقرن الهجرى الأول ، وهو يقول بالرأى المنطق الثابت تاريخيا من أن التطبيق الإسلامى تأثر بهذه التشريعات وأخذ منها ، أما المتشددون عندنا فينفون ذلك نفياً باتاً ، وسبب موقفهم هذا هو علمهم القليل بتاريخ الإسلام ، فإن المؤرخ لا الفقيه هو الذى يستطيع القطع فى هذه المسألة ، لأن القاضى المسلم إذا كان يعمل فى مصر مثلا وقَبِل عناصر تشريعية من تشريع أهل البلاد أو من القانون الرومانى فإنه يفعل ذلك تمشياً مع المنطق ومصالح الناس ، وهو يفعل ذلك دون أن يشعر أنه يدخل فى صلب الشريعة عناصر جديدة ، ثم تثبت هذه العناصر وتندرج فى كيان التشريع الإسلامى دون بيان أصولها ، فتبدو للناس وكأنها استنتاج أو قياس أو استحسان من الشيخ وأنها لهذا تفريع على الأصول الإسلامية وليست عناصر غريبة ، ولهذا فإن المؤرخين حتى من أيام البلاذرى يأخذون برأى اقتباس الشريعة الإسلامية من التشريعات التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، ويبدو هذا بصورة أظهر فى تراجم القضاة والفقهاء ، فإذا أخذنا مجموعا مثل كتاب المدارك للقاضى عياض ومضينا نطالع سير المالكية

تبينا كيف أن قضاتهم وأصحاب الفتيا منهم كانوا يقرون الكثير جداً من المألوف الجارى ويستصلحونه ويدرجونه فى كتبهم ، وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا فى مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للحارث بن أسد الخشنى .

والفصول التى أدارها شاخت على التشريع فى البلاد الإسلامية فى العصر الحديث (الفصلان ١٤ و ١٥) على أعظم جانب من الأهمية ، وقد قرأتهما فى إمعان شديد واعتقد أن خير ما نستطيع أن نعمل هو إذاعتهما بين أهل القانون فى بلاد الإسلام ، فهناك إخصائيون يستطيعون الإفادة من هذا الكلام العامى أكثر مما أفدت .

وقد استوقف نظرى الفصل السادس والعشرون من هذا الكتاب القيم الخاص بطبيعة الشريعة الإسلامية ، لأن شاخت قال فيه آراء لو أنه ذكر وهو يكتبها ما قاله فى آخر الفصل الحادى عشر عن « النظرية والتطبيق » ، Theory and Practice (ص ٨٤ — ٨٥) لعدل كلامه بعض التعديل لأن الذى حدد نطاق الشريعة الإسلامية كانت الحكومات الماضية التى لم تكف عن التدخل فى القضاء والتشريع حتى حصرت حرية القائمين على القانون فى مجال ضيق ، فالتحديد هنا لم تفرضه الشريعة الإسلامية على نفسها بل فرضتها عليها الضرورة واتجاه الكثيرين من الحكام إلى العدوان على القانون ، وفى هذه العصور كان الناس لا يزالون بعيدين جداً عن نظرية فصل السلطات ، ولا شك كذلك فى أن بعض الفقهاء جاروا الحكام وسهلوا لهم أمر العدوان على اختصاصات القضاة .

ونتيجة لهذا نجد أن كل ميادين التشريع التى تتصل بالسياسة قد خرجت من زمن مبكر من يد القضاة أو الفقهاء إلى يد السلطان ، ففى القرآن والحديث قواعد وتوجيهات كان من الممكن أن تكون أساساً لنظريات سليمة فى الحكم ، ولكن الفقهاء رأوا طوال العصر الأموى أنه لا يمكن عمل شىء له قيمة فى ذلك الميدان ما دامت الدولة لا تستريح إلى الكلام فى هذا الموضوع ، وفى

خلال هذا العصر أصبح المتكلمون فى السياسة أو التشريع السياسى خوارج أو فى جملة الخوارج ، وعوقب فقهاء وعلماء كثيرون على التدخل فى هذا الموضوع ، وانتهى الأمر إلى حذف أبواب السياسة من الفقه بل من مجموعات الأحاديث ، فالكتاب الذى كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار لم يَرْوِه محدث واحد مع أنه حديث صحيح ثابت ، ومعاهدات الرسول مع بعض القبائل أسقطت أيضاً ، وفى الصياغة الثانية لسيرة ابن إسحاق وهى التى عملها ابن هشام أسقط من السيرة كثيراً جداً مما لم تكن الدولة ترضاه .

وهذا هو السبب أيضاً فى عدم تنفيذ الكثير من التشريعات الخاصة بالحدود أى العقوبات ، لأن القضاة محتاجون لسلطان الدولة لتنفيذها ، والدولة كانت تستطيع التنفيذ وعدم التنفيذ ، وشيئاً فشيئاً عندما أحس القضاة أن كبار الجرائم ترتكب على يد السلاطين ورجالهم دون أن يوقع عليهم حد تراخوا هم فى تطبيقها على الناس . وتدخل رجال الدولة أيضاً فى المعاملات ، حماية لمصالحهم ومصالح المتصلين بهم وتمكينهم فى أحيان كثيرة من الاستيلاء على أموال بدون حق أو الشراء بثمن بخس ممـا أحرج مراكز القضاة ذوى الإيمان السليم ، ولهذا السبب نقرأ كثيراً عن رفض أتقياء الفقهاء ولاية القضاء ، لا خوفاً من العجز عن الحكم بالعدل بل لأنهم كانوا يعرفون أن رجال الدولة لن يدعوهم ينفذون القانون فى عدل ونزاهة .

وبقيت بعد ذلك مسائل الأحوال الشخصية ، وهذه لا دخل للسياسة فيها ، ولهذا فقد استطاع القضاة والفقهاء أن يوفوا هذه الناحية حقها وأن يوسعوا نطاق الشريعة فى هذا المجال قدر ما استطاعوا .

ولكن الذى يذكر بالخير للمشرعين المسلمين أنهم — فيما عدا النـاحية الدستورية — ظلوا يحتفظون بالمثل الأعلى الشرعى بصرف النظر عما كان جاريا ، وهم لم يأذنوا أبداً فى أن تدخلى مجموعاتهم تشريعات سلاطين أو إداريين ،

وإذا نحن استثنينا أبا بكر وعمر لم نجد لأى خليفة أو سلطان بعد ذلك أى ذكر فى صلب رسالة من رسائل الفقه السنى مهما كان المذهب . وقد تمسك الفقهاء دائماً بأن السلاطين ورجالهم لا مكان لهم فى التشريع .

هذه بعض المسائل الممتعة التى تثيرها فى الذهن قراءة هذا الكتاب الممتاز ، ومن أسف أننى لا أملك العلم الكافى بالفقه وأصوله وتاريخه لكى أسير فى هذه التأملات بصورة مأمونة .

قلت إن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، أولها يتناول تاريخ الشريعة الإسلامية والثانى قضاياها الكبرى والثالث ببليوغرافية غاية فى الشمول والترتيب . هذا القسم يعتبر فى ذاته أداة ممتازة من أدوات البحث فى ميدان الشريعة الإسلامية أو التشريع فى البلاد الإسلامية ، ولا يسع القارىء إلا أن يشكر الأستاذ شاخت على ما بذل فى إعداد هذه الببليوغرافية من جهد وأستاذية .

وبين يدينا بيليوغرافية أخرى ألحقها أوتو شبيس و ا. برتيش برسالتهما القيمة عن التشريع الإسلامى قبل العصور الحديثة :

O. Spies und E. Pritsch, *Klassisches Islamisches Recht*

وهو جزء من السلسلة الممتازة المسماة Handbuch der Orientalistik التى يصدرها برتولد شبولر مع نفر من الاخصائيين . وهى المجلد التكميلى الثالث Ergänzuagsband III للقسم الأول Erste Abteilung من القسم الخاص بالشرقين الأدنى والأوسط .

وقد أصدرتها دار بريل فى لايد سنة ١٩٦٤ ولنا عنها حديث فى باب النقد من هذه الصحيفة فى مجلد قادم بإذن الله .

جاستون فييت : مقدمة للأدب العربي ، باريس ١٩٦٦

Gaston Wiet, *Introduction à la Litterature Arabe.*
Paris (G. P. Maisonneme et Larose) 1966.

المختصرات الوافية المتقنــة ميزة من ميزات العلم الفرنسى ، وقد مهر الفرنسيون فى هذا الضرب من التأليف حتى أصبحت القاعدة عند المشتغلين فى العلوم والآداب أن يلتمسوا هذا الطراز من الكتب الجامعة الموجزة فى المكتبة الفرنسية قبل أن يتطلبوه فى غيرها ، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن الكتب المدرسية الفرنسية هى أحسن الكتب المدرسية فى الدنيا ، وكثيرون جداً من أهل الاختصاص من العلماء يحرصون على اقتناء الكتب المدرسية الفرنسية فى ناحية اختصاصهم ، لأنها تسعفهم فى الوقت القصير بالمعلومات الضرورية أو التواريخ الهامة أو النظريات الأساسية ، ويرجع هذا التجويد فى تأليف المختصرات إلى امتياز الفرنسيين كمعلمين ، فهم دون شك أحسن معلمى أوروبا ، وليس فى الدنيا بلد أنشأ من المدارس الممتازة خارج بلاده قدر ما أنشأ الفرنسيون من الليسيهات يعمل فيها ألوف من الفرنسيين يجدون فى هذا العمل تحقيقاً صادقاً لرسالة فرنسا العلمية والثقافية فى الدنيا ، فهم يقومون بذلك عن إيمان عميق ببلادهم وثقافتهم وضرورة هذه الثقافة للدنيا ، وهم ينهضون به بملكة فى التعليم لا يكاد يخلو منها فرنسى مثقف ، وجدير بالملاحظة أن أعظم مدرسة معلمين فى الدنيا هى الايكول نورمال فى باريس ، فهذه المدرسة لا تخرج معلمين للمدارس فحسب ، بل معلمين لفرنسا كلها ، وما أكثر القادة ورجال السياسة والأدب والعلم الناجحين من خريجى هذه المدرسة أو النورماليان كما يقولون هناك .

خطر هذا كله ببالى وأنا أقرأ هذا الكتاب ، فهو فى الحقيقة موجز ممتاز لتاريخ الأدب العربى ، أو الفكر العربى كله بتعبير أدق ، وقد عجبت وأنا اقرأه لأن جاستون فييت لم يكن من المشتغلين بالأدب العربى فى أى فترة من

فترات تاريخه الحافل بالعمل والانتاج ، وإنما هو أثرى أفنى عمره فى دراسة الآثار الإسلامية والتآليف فيها ، وقد قضى فى القاهرة سنوات طويلة من عمره مديراً لدار الآثار الإسلامية ، ولقد عرفناه إلى جانب ذلك مؤرخاً محسناً فى المجلد الذى خصص لمصر الإسلامية من سلسلة تاريخ الأمة المصرية Histoire de la Nation Egyptienne وفى المجلد الأصغر حجماً من السلسلة الثانية المعروفة بمختصر تاريخ مصر Précis de l'histoire de l'Egypte ، وعرفناه مترجماً ليوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم وكتاب الأيام لطه حسين ومجموعة القصص المعروفة ببيت الشيطان وقصص أخرى لمحمود تيمور ، وعرفنا له كذلك ترجمات عديدة من أمهات كتب الجغرافية والتاريخ عندنا إلى الفرنسية ، أما أنه مؤرخ للفكر العربى فهذا شىء جديد يتكشف عنه هذا الكتاب ، وهو هنا مؤرخ أدب واسع الاطلاع مجيد للتأليف المختصر الوافى ، وهذا أمر جدير بكل تقدير .

ألف جاستون فييت هذا الكتاب بتكليف من منظمة اليونسكو ليصدر ضمن سلسلة اسمها مداخل إلى الآداب الشرقية

Collection Unesco d'Introduction aux Litteratures Orientales

ولهذا فقد حرص فى الكتاب على أن تكون له صفة المقدمة أو المدخل ، وهو لهذا يمر مروراً سريعاً بتاريخ ذلك الأدب من عصر الجاهلية إلى اليوم ، وهو يقف بالمراحل الفاصلة والمعالم المميزة والظواهر الأدبية ويقف بشخصيات الشعراء والناثرين وقفات طويلة أو قصيرة حسبما يراه مناسباً للاطار العام لكتابه ، فهو يخصص ست صفحات للحديث عن الجاهلية وأحوال العرب أثناءها ، ثم يدخل فى الشعر الجاهلى ويتحدث عن القصيدة الجاهلية ومعالمها كما تتجلى فى المعلقات السبع ، وينص على ما نعرفه من أن البيت من الشعر لابد أن يكون كامل المعنى فى ذاته بحيث لا يصعب فهمه إذا غيرنا نظام الأبيات ، وأن القصيدة لا وحدة لها إلا الوزن والقافية والاتجاه العام ، ثم يناقش موضوع اصالة الشعر

الجاهلى ، وهو فى هذا كله يعرض آراء لناس آخرين مكتفياً بالتنسيق والتنظيم والربط وهذا مذهب محمود مأمون فى مثل هذه المقدمات .

ويستمر فييت فى دراسة المراحل التالية من تاريخ الفكر العربى على هذه الطريقة السليمة حتى يصل إلى العصر الحديث ، وإن الانسان ليعجب بما يجده عنده من الايجاز مع الشمول والتعبير العلمى الدقيق ، خذ مثلا الصفحات التى خصصها لشعراء النقائض فهى فى الحقيقة جامعة ممتعة ، ثم الصفحات التالية لها عن شعراء النسيب فى العصر الأموى وكلامَه عن عمر بن أبى ربيعة ووصفَه إياه بقصر الرجلين والغرور وتشبيهه إياه بالدون خوان . وهو عندما يصل إلى العصر العباسى يشعِّب البحث فيتحدث عن الأدب والتاريخ والجغرافية والفلسفة ، ومع ذلك فإن كلامه على اختصاره الشديد لا يهبط أبداً إلى التعميات المبهمة التى لا تنفع فى شىء .

ويتكلم بعد ذلك عن النهضة ، وقد أصبح هذا اللفظ جاريا فى الاستعمال الأوروبى فهم يقولون la nahda و the nahda لأن اللفظ نفسه لا يترجم فى دقة ، وفييت يكتب هنا عن حقبة من تاريخنا الفكرى يعرفها جيداً ، ولهذا فإن كلامه عن القرن التاسع عشر وأدبائه وأعلام الفكر فيه كلام ممتع مفيد ، وكذلك عندما ينتقل إلى الكلام على الأدب المعاصر وأعلامه الكبار من أمثال طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل والمازنى ومحمود تيمور ، وهو يتكلم عن الأدباء بحسب أوطانهم فيخصص لكل من مصر ولبنان والعراق والمغرب فصلا ، وفى كل فصل منها يلتمس الطريق الأيسر ، طريق الكتابة عن الشخصيات واحداً بعد الآخر بادئاً بالكلام فى مصر عن محمد كامل حسين وروايته قرية ظالمة ثم عن يحيى حقى ومحمد عبد الحليم عبد الله وثروت أباظه ويوسف ادريس ومحمد صدقى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف السباعى ونجيب محفوظ ، وهنا يقف وقفة طويلة ويوجز ما قاله الأب جاك جومبيه عنه وعن ثلاثيته وهو فى رأيى أحسن ما كتب عن نجيب محفوظ إلى اليوم .

ومن لبنان وسوريا والعراق يتحدث عن الزعنى المغنى ونازك الملايكة ونزار قبانى ويوسف الخال وعلى احمد سعيد وسعيد عقل وليلى بعلبك وجميل جبر وخليل رامز سركيس وسهيل ادريس وتوفيق عواد وهكذا .

واختيار الأدباء المميزين لاتجاهات الأدب العربى المعاصر مسألة تختلف من كتاب لكتاب بحسب ما يصل إلى يد المؤلفين الغربيين من أعمالنا الأدبية ، وهنا تبرز لنا اسماء يقال فى كتب الغربيين أنها تمثل جوانب هامة من الفكر العربى المعاصر مع أن مكانها الحقيقى فى بلادنا قليل ، ولكن أصحابها يحسنون فن الدعاية لأنفسهم ويرسلون مؤلفاتهم إلى المستشرقين بنظام .

حبذا لو اطلع الناس فى بلادنا على مثل هذا الكتاب ليروا كيف يكون التأليف الجيد وكيف يكون الاختصار الجامع الدقيق .

د. أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح . الكتاب رقم ٦٣ من سلسلة أعلام العرب . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٦ — ١٧٠ صفحة

تكلمت فى هذا الباب عن الكتاب العاشر من سلسلة أعلام العرب عن عبد الملك بن مروان ، ونعرض هنا لكتاب آخر من هذه السلسلة القيمة وموضوعه شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى الملاح العربى الأشهر الذى عاش وعمل خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلاديين ، ومؤلف هذا الكتاب هو خير من يستطيع كتابته فهو د. أنور عبد العليم أستاذ ورئيس قسم علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية ، وإلى هذا يرجع السبب فى جودة هذا الكتاب وامتيازه .

ويستلفت النظر أن سلسلة أعلام العرب صدر منها إلى الآن ٦٣ كتابا ، اثنان منها فقط فى العلوم والباقى تاريخ وآداب وفنون ، وهذا فى ذاته يدل على أن العلوم لم تحتل بعد فى تفكيرنا العام إلا مكاناً ضئيلا لا يذكر ، وإذا

ذكرت العلوم عنيت بذلك أيضاً التفكير العلمى الرياضى ، إذ لا زال تفكيرنا أدبياً أو فنياً ، وفى اليوم الذى نجد نصف كتب سلسلة كهذه مكتوبة فى العلوم الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب والصيدلة وما إلى ذلك نستطيع أن نقول أن تحولا هاما فى نوع التفكير العربى قد تم ، لأن العلوم الدقيقة تقوم على الضبط والدقة والاحكام والمنطق ، والادبيات تقوم على أساس علمى ولكن بناءها يشترك فيه الخيال والاحساس والتصور ، وأسهل ألف مرة أن تكتب كتابا عن حفنى ناصف أو الزهاوى أو عمر بن عبد العزيز من أن تكتب كتابا عن أبى الريحان البيرونى أو الحسن بن الهيثم أو على بن يونس أو أبى القاسم الزهراوى أو ابراهيم الزرقالى أو ابن ماجد أو الخوارزمى أو محمد بن شاذان أو سهل بن ابان أو بيرى ريس .

وقد لاحظت هذه الظاهرة فيما يتصل بنشر المخطوطات ، فحوالى خمسة وتسعين فى المائة من المخطوطات العربية فى العلوم نشرها المستشرقون ، ومعظم مؤرخى العلوم عند العرب غربيون ، وفى مكتبة الاسكوريال مثلا نحو ٢٠٠٠ مخطوط منها حوالى ٣٥٠ فى العلوم ، وهذه الأخيرة قل أن يسأل عنها أو يهتم بها عربى ، وإنمـا همهم التاريخ والأدب وعلوم الدين ، فهذه الأخيرة بطبيعة الحال أسهل فى التحقيق ، ثم أنك لا تجد فقرة فى كتاب تاريخ أو بيتاً من الشعر فى كتاب أدب أو مادة فقهية فى كتاب علوم دين إلا وجدتها فى كتب أخرى كثيرة ، لأن الكتب العربية فى هذه الميادين ينقـل بعضها عن بعض كقاعدة عامة ، الجديد حقاً قليل فيها جداً .

واقبال المستشرقين على نشر كتب العلوم من تراثنا لا يرجع إلى تخصصهم فى العلوم ، إذ أنهم جميعاً يتخرجون فى أقسام الدراسات السامية فى كليات الآداب ، وإنما يدل على عقلية علمية أو على التفكير على أساس علمى ، ومنهم واحد هو كارلو الفونسو نالينو دخل كلية العلوم وهو فى سن الأربعين وهو

أستاذ فى كلية الآداب ليدرس الفلك وحصل على بكالوريوس العلوم لكى يدرس تاريخ الفلك عند العرب ويكتب كتابه المشهور فيه .

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى كتاب ابن ماجد فنقول أنه كتاب متقن وممتع معاً ، فإنه لمن أجمل الأشياء أن تجد رجلا من أهل الطب والعلوم ذا ميل أدبى فنى ، ومن هذا الطراز الدكتور حسين فوزى والدكتور أحمد زكى ، وكذلك كان الدكتور مصطفى مشرفه وهذا هو السبب فى امتياز المفكر الفرنسى المعروف تايلار د شاردان Thailhard de Chardin الذى يقولون عن كتابته أنها شعر رياضى أو معادلات ذات قافية equations rimeés ، ود. أنور عبد العليم يتجه هذا الاتجاه لأن ابن ماجد أيضاً كان رجل علوم وشاعراً أيضاً وما أكثر ما كتب من القصائد والاراجيز .

هذا الكتاب على صغر حجمه واف بموضوعه ، فأنت تجد فيه أولا سيرة ابن ماجد الحافلة بالعلم والمغامرة ، الشائقة بما وقع فيها من الأحداث ، وقد أعجبنى موقف د. أنور عبد العليم من قصة ارشاد ابن ماجد لفاسكو دا جاما إلى طريق الهند سنة ١٤٩٨ ، فهذا القول يرجع إلى جابرييل فيران ، وفيرّان كان رجلا مُجيدا خدم علومنا وتراثنا الفكرى خدمات جديرة بأن نذكر له فى كل حين ، وقد أفدت الكثير من أبحاثه عن أبى حامد الغرناطى ، ولكن نظريته عن أن ابن ماجد هو الملاح العربى الذى دل فاسكو دا جاما على الطريق إلى الهند لا نجد فى المراجع ما يؤيدها ، ومن المؤكد أن ملاحا عربياً هو الذى قام بذلك ولكننا بعد بحث د. أنور عبد العليم هذا نستبعد أن يكون هو ابن ماجد ، ونحن لا نقول هذا الكلام حماساً لابن ماجد أو دفاعاً عنه فإن هذا الحماس وذلك الدفاع لا ينفعان فى شىء إذا كان هناك ما يؤيد ما ذهب إليه فيران ، والمسألة هنا مسألة علم وحقائق لا حماس وعاطفيات .

وإن قارىء سيرة ابن ماجد ليشعر بأسف شديد لأن هذا الرجل وأمثاله مثل سليمان المهرى لم تكن وراءهم دولة تؤيدهم وتمكنهم من توسيع مجال نشاطهم

وخدمة العروبة بصورة أحسن وأشمل ، فبينما كان ملوك البرتغال يؤيدون فاسكو دا جاما وهنرى الملاح والفونسو دِ البوكيرك والفاريس كابرال فى الكشف والبحث والتقدم ، ويقدمون لهم المال والقوات ، كان ملاحونا — وهو ليوث البحار كما كان الناس يصفونهم — يعملون دون حماية رسمية إطلاقا ، وكل ما وصلوا إليه كان بفضل علمهم وجهودهم وبسالتهم كأفراد ، فلم نستفد منهم إلا بجزء ضئيل من أعمالهم . وتصور مثلا أن كريستوفر كولومبس أخذ نظرية الوصول إلى الهند عن طريق الغرب من جغرافى عربى هو أبو عبيد البكرى كما بينا فى كتابنا عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، وحصل من مَلِكى قشتالة على المال والسفن والرجال ففتح لاسبانيا بذلك أبواب القوة والثراء بينما عالمنا العربى كان يكتب فى اشبيلية تحت حكم حاكم عاجز لا هم له إلا المتاع واستصفاء أموال الرعية وقول الشعر ! حقاً إن التاريخ لم يجر على هذه الصورة مصادفة أو لأن أحداً ظلمنا أو حال بيننا وبين القوة والتقدم ، بل نحن فرضنا ذلك على أنفسنا ، ومما يدعو إلى المزيد من الأسف أن رجال العلم عندنا كانوا دائماً فى الطليعة وكانوا دائبين على العمل والكشف ، ولكن حكام تلك العصور الماضية لم يكونوا فى مستوى العلم العربى أو المجد العربى ، فأضاعوا كل شىء ، وما أكثر ما يتعجب الانسان من أن عالماً عبقرياً كالإدريسى لم يجد أميراً يعاونه ويرعاه إلا فردريك الثانى ملك صقلية ، وهكذا وبعيداً عن عالم العرب والإسلام كتب الإدريسى مجداً خالداً للعرب والإسلام .

والجزء الأهم من كتاب د. أنور عبد العليم هو الثانى الخاص بفنون البحر والملاحة عند ابن ماجد . هنا دخل المؤلف فى ميدانه العلمى فأجاد على نحو يدعو إلى الاعجاب ، فهو يعرض آراء ابن ماجد فى السفينة والربان والمجرى ويناقشها ويحدد مواضعها من الصواب والخطأ ، وهنا مجال الاشارة إلى ما أثبته المؤلف فى كتابه من أن العرب كانوا من أوائل الأمم استعمالا للبوصلة فى الملاحة والاسفار ، وقد تبينت فى بحثى عن الجغرافية أن الملاحين فى البحر

الأبيض لم يعرفوا البوصلة إلى آخر القرن الثانى عشر الميلادى ، أى إلى أيام الإدريسي ، وقد رأيت فى كتاب ابن ماجد هذا أنها كانت مستعملة فى بحار الصين قبل ذلك التاريخ ، وفى القرنيين الثانى عشر والثالث عشر استعملت فى بحر الهند ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى البحر الأبيض ، وقد عرف العرب حجر المغناطيس أول تاريخهم بعد الإسلام ولكن استخدام إبرة المغناطيس فى تحديد الاتجاهات لم يصلهم إلا فيما بعد ، وقد أورد المؤلف فى كتابه (ص ٣٩) نص بيلق القفجاقى الذى ورد فى كتابه «كنز التجار فى معرفة الأحجار» الذى كتب سنة ١٢٨٢ الذى يدل على معرفة الملاحين العرب فى البحر الأبيض لابرة المغناطيس واستعمالهم أياها فى الملاحة ، وهو أقدم نص لدينا عن هذا الموضوع ، ويمكن أيضاً أن يكون عملهم لوردة الرياح قد حدث فى نفس الوقت .

وقد ذكر المؤلف فى ص ٤٠ من الكتاب معرفة العرب لخطوط العرض وقال أن أوروبا لم تعرفها إلا بعد ترجمة كتب بطلميوس ، وقد أثبتُّ فى كتاب الجغرافية (ص ٢٣٣ — ٢٣٥) أن ترجمة الخوارزمى لكتاب بطلميوس كانت مستعملة عند عرب الأندلس . وقد رجع إليها الإدريسى ، وعن هذا الأخير أخذها الغربيون قبل أن يعثروا على أصول جغرافية بطلميوس ، وأثبتُّ كذلك أنه إذا كان نص بطلميوس الذى ترجم فى القرن الخامس عشر صحيحاً فإن خرائطه زائفة ، فقد ضاعت خرائط بطلميوس الأصلية ولم يعتر إلا على أجزاء منها ، والخرائط المنسوبة إليه الآن إنما رسمت على أساس الخرائط العربية معدلة بحسب ما وصل إليه الخرائطيون القطلونيون والايطاليون ، وهم الذين عملوا الخرائط البورتلانية ، وهى الأصل الحقيقى الذى قام عليه علم الخرائط الحديث . وقد ذكر د. عبد العليم نفراً عن اليهود كان لهم دور هام فى الكشوف الجغرافية ونقل علوم العرب إلى الاسبان والبرتغاليين ، وهذا الكلام أصله عند كامرر مؤرخ البحر الأحمر ولكنه متأثر بنزاعم يهودية تود أن ترجع كل شيء عظيم فى الدنيا إلى اليهود حتى زعم بعضهم أن كولمبوس يهودى

الأصل ، وهو قول باطل ولكن الثابت أن ماجلان واسمه البرتغالى Fernán de Magalháes فرنان (= فرناندو) دِ ماجلايس منحدر من أصل عربى وأن الفونسو البوكيرك كذلك فلقبه Albuquerque تحريف للفظ «أبو بكر» وقد ثبت فى أبحاث جديدة أن ملاحين من المسلمين كانوا بين ملاحى كولومبوس .

ومن أحسن فصول الكتاب الفصلان الرابع (عن الملاحة الفلكية عند ابن ماجد) والخامس (عن المصطلحات العلمية) فكل ما ورد فى هذين الفصلين جديد مبتكر أضافه د. أنور عبد العليم إلى العلم العربي ، وقد أسدى لنا بذلك خدمة جليلة حقاً .

هذا كتاب ممتاز طرق به صاحبه موضوعا عسيراً وبكراً فى المؤلفات العربية وعُسْر هذا المبحث لا يحتاج إلى برهان ، ولدينا مثلا نسخة من نص الراهمانجات الثلاث لابن ماجد التى نشرها تيودور شوموفسكى فى موسكو ولينينجراد سنة ١٩٥٧ وقد احتاجت منا صفحة واحدة من هذه الأراجيز إلى نحو أسبوع لتحقيق ما فيها ، فما بالك بمن قرأ الاراجيز ومؤلفات ابن ماجد كلها واستخرج منها هذه الصفحات الرائقة ؟ وأما أنه موضوع بكر فهذا فيما أذكر أول كتاب يؤلف فى العربية عن ملاح عربى أو عن الملاحة العربية فى بحار آسيا .

حسين مؤنس

أنبــاء

معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد خلال سنة ١٩٦٥

يتابع معهد الدراسات الإسلامية جهوده فى خدمة الـتراث الإسلامى فى الأندلس والحضارة الإسلامية عامة . وقد حفل هذا العام بنشاط متنوع يمثل شتى الاتجاهات مجتهداً فى خدمة طـلاب الثقافة الأندلسية عامة ، سواء منهم من كان من المستشرقين أو من الطلاب العرب ، وسنورد فى الصفحات التالية عرضاً موجزاً يبين كل ذلك :

دروس اللغــة العربية :

سارت دروس اللغة العربية فى المعهد خلال هذا العام على نفس النظـام الذى سارت عليه خلال الأعوام الماضية ، وقد قام بالتدريس الدكتوران محمود على مكى وأحمد مختار العبادى محاولين السير على طريقة تربوية قويمة تستطيع أن تعود بالجدوى على الطلاب الأجانب ، منتفعين فى ذلك بالتجارب السابقة التى قام بها المعهد فى هذا الحقل الهام ، وقد قسم الطلاب إلى فصلين حسب مستواهم فى اللغة العربية وكان معدل الدراسة درسين فى الأسبوع لـكل فصل .

أما عدد الطلبة المسجلين فى الفصلين فكان كما يلى :

الفصل الأول ٢٥ طالباً .

الفصل الثانى ١٤ طالباً .

محاضرات ألقيت فى دار المعهد :

ألقيت فى هذا العام فى دار المعهد سلسلة محاضرات عرضناها كلها عرضاً وافياً فى تقاريرنا الشهرية ، وفيما يلى بيان هذه المحاضرات ونبذة عن كل منها .

الأستاذ بسكوال مارين بيريث :
النظام الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩ / ١ / ١٩٦٥

تحدث السيد المحاضر عن مظاهر النهضة فى عصر الثورة ، وعن أثر النظام الاشتراكى فى القيام بشتى الانجازات الاصلاحية فى الميادين المتنوعة للجمهورية العربية المتحدة ، وبعد انتهـــاء محاضرته قام بعرض فيلم كان قد عنى بتصويره أثناء زيارته لمصر يمثل مظاهر تقدمها ، وكان المحاضر يقوم بعملية الشرح والتفسير لـكل مناظر الفيلم ، وأعقبت العرض مناقشة غاية فى الأهمية عن النهضة العربية فى مصر ، وعن أثر نظامها الاشتراكى فى دفعها إلى الأمام ، ومن الواضح أن الأستاذ بسكوال يلم بهذه الموضوعات إلمـاماً كافياً ، وقد تجلى ذلك فى مقالاته المتتابعة التى قام بنشرها فى جريدة « أريبا » عقب عودته من زيارة الجمهورية العربية المتحدة ، وقد كان لهذه المحاضرة المذكورة صدى فى أوساط ثقافية أخرى خارج نطاق معهد الدراسات الإسلامية منها « دار الجـــنرال فرانكو للطلاب الجامعيين » حيث ألقاها مرة ثانية وعرض نفس الفيلم .

السيد خوسيه غرسية دومنجث :
من تاريخ البرتغال الإسلامى ١٩ / ٢ / ١٩٦٥

قبل بدء هذه المحاضرة قام الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد بتقديم السيد المحاضر متحدثاً عن جهوده وأعمـــاله فى ميادين الدراسات العربية ، ثم تحدث السيد خوسيه غرسية دومنجث ، فبدأ بالكلام عن وضع البرتغال الجغرافى قبل دخول العرب اسبانيا وبعده مبيناً أن حدود البرتغال الإسلامية ظلت مضطربة

غير ثابتة ، فكانت تتراوح بين الانكماش والاتساع حسب قوة الدولة الأندلسية وضعفها ، ففى القرن العاشر أيام الخلافة الأندلسية والدولة العامرية كانت البرتغال كلها على صورتها الراهنة تابعة للحكم الإسلامى ، ولكن انهيار الخلافة وانهيار خطوط الدفاع الأمامية الأندلسية أمام زحف مملكة ليون وقشتالة أدى إلى الانتقاص من أطراف الثغر الغربى حتى وصل إلى نهر تاجه . وظل الأمر فى تراجع حتى نشأت دول الطوائف وتأسست فى المنـاطق الغربية من الأندلس ممالك ودويلات مستقلة كان أهمها دولة بنى الأفطس التى كانت تشمل القاطعات الغربية من اسبانيا .

وتحدث المحاضر عن هذه الدولة حتى نهايتها على يد المرابطين ، وتكلم عن الموحدين وما قاموا به فى غرب الأندلس حتى ضيـاعه واستيلاء النصارى على قواعده الوسطى مثل الاشبونة وبرتقال وشنترين والجنوبية مثل شنتمرية الغرب المعروفة اليوم باسم فارو .

الدكتور حسين مؤنس :
صورة عامة للجمهورية العربية المتحدة اليوم ٢٥ / ٢ / ١٩٦٥

فى هذه المحاضرة حرصنا على أن نعرض مشاكلنا الراهنة ، وما نقوم به من جهود لمواجهتها .

الدكتور أحمد مختار العبادى :
الاسكندرية ٢٦ / ٢ / ١٩٦٥

بدأ المحاضر كلامه بالإشارة إلى أن الاسكندرية اسم قد اطلق على مدن عديدة فى العالمين القديم والجديد ، ولكن الاسكندرية التى يعنيها مدينة عريقة فى القدم والحضارة وهى الاسكندرية المصرية عروس البحر الأبيض المتوسط ، ثم استعرض المحاضر بعد ذلك تاريخ المدينة الكبيرة فتكلم عن مؤسسها وعن المهندس الذى اختطهـــا ، ثم تكلم عن الاسكندرية فى العصر البطلمى وعن

جامعتها العظمى ومكتبها الكبرى ، ثم عن الاسكندرية فى العصر الرومانى ، ثم دور الاسكندرية فى نشر المسيحية ثم عن الاسكندرية فى عهد الإسلام وأهميتها بالنسبة لعلاقات مصر ببلاد المغرب ثم عن الاسكندرية فى العصر الحديث ثم عن الاسكندرية اليوم .

دكتور بدرو مارتينث مونتابث :
الأدب العربى المعاصر ٢٣ / ٣ / ١٩٦٥

تناول السيد المحاضر تطور الأدب العربى فى شتى فنونه النثرية والشعرية وخص القصة والمسرحية بنصيب وافر باعتبارها الثمرة الجديدة التى تمثل نهاية التطور ، وبين الخصائص الفنية لمسرح الحكيم ، ولروايات نجيب محفوظ ، ثم خلص بعد ذلك إلى الشعر متحدثا عن تطور القصيدة العربية بعامة والغزلية بخاصة ، وركز الحديث على الخصائص الفنية للشعر الحديث ، محللا بعض قصائد نزار قبانى وعبد الوهاب البياتى ونازك الملائكة وإلياس أبى شبكه ، وقد انتهى إلى أن الشعر الحديث الذى يمثله هؤلاء الشبان فى إنتاجهم الفنى يعد ثورة على نظام القصيدة فى الشعر العربى القديم . . .

والدكتور بدرو واحد من شبان المستشرقين الذين أغرموا بالأدب العربى الحديث ، وقد وضع جهده كله فى خدمته .

دكتور بدرو مارتينث ، دكتور الياس تيرس ، دكتور حسين مؤنس :
ندوة عن الشعر العربى المعاصر ٨ / ٤ / ١٩٦٥

حضر هذه الندوة معظم المشتغلين بالدراسات العربية فى العاصمة الإسبانية ، وعدد كبير من رجال الفكر والصحافة ، وقد افتتحها الدكتور بدرو بكلمة جامعة عن الشعر العربى المعاصر ، ثم دعا جمهور السامعين للمناقشة ، فبدأ مدير المعهد كلامه قائلا : إنه من الخطأ أن يحكم على الانتاج الجديد من الشعر العربى المعاصر بناء على القواعد النقدية والبلاغية القديمة التى وضعها أمثال ابن قتيبة

والحصرى ومن إليهما ، لأن كلامهما ينبنى على المقاييس النقدية والجمالية التي كانت شائعة ومعروفة فى زمانهما ، وذلك لأن هذه المقاييس مقيدة بزمانها واتجاهات الفكر فيه ، أما الإنتاج الأدبى الحديث وبخاصة الشعر فقد جدت فيه مذاهب اختلفت تماماً فى الشكل والمضمون عن الانتاج القديم ، ولذلك فلا بد أن تجد له قواعد نقدية جديدة تمثل روح العصر وفلسفته وثقافته . . .

ثم تكلم الدكتور إلياس تيرس أستاذ الأدب العربى بجامعة مدريد فقال إنه شخصياً يرى أن الشعر العربى لم يدرس بعد الدراسة الكافية ، وأضاف أن كلامه هنا ينحصر فى الشعر الأندلسى الذى يعرفه أكثر من غيره من أنواع الشعر الأخرى فى الشرق العربى ، فهذا الشعر يضم من العناصر الجمالية وضروب الحساسية الشعرية ما لم ينتبه له الكثيرون ، فهناك شعراء يوصفون بأنهم صغار ولكنهم لا يقلون عبقرية عن أولئك المحظوظين الذين وضعهم نقاد الأدب ومؤرخوه فى مرتبة أعلى ، والقول بأن شعر الغزل المعاصر يفوق فنياً الشعر العربى كله لا يخلو من مخاطرة فى الحكم ، فإن ديوان الهذليين وحده يضم من روائع الشعر الغزلى ما لا يقل روعة عن أجمل ما سمعناه من شعر غزلى حديث ، ولذلك فإنى أدعو إلى دراسة الأدب العربي القديم وبخاصة شعر الغزل منه دراسة أكثر جدية لكى نستطيع أن نصدر أحكاماً أكثر نضجاً وسلامة . . .

وقد استمرت المناقشة زهاء ساعتين حول هذه الموضوعات .

السيدة كارمن كورتس ، السيد أنتونيو سرانو ، دكتور حسين مؤنس :
صدى الأدب العربى الحديث فى أوربا بعامة واسبانيا بخاصة ١٥ / ٦ / ١٩٦٥

كانت مناسبة هذه الندوة هو حفل اختتام الموسم الدراسى لسنة ١٩٦٥ ، وقد حضر الحفل عدد كبير من أهل الفكر وطلاب المعرفة ورجال السلك السياسى العربى ، وفيما يلى موجز لما ألقى فيه :

بدأ الدكتور حسين مؤنس الحديث مصرحاً بأن الأدب العربى أدب عالمى بطبعه ، فأديب مثل الجاحظ وشاعر مثل أبى العلاء كانا عالميين بالفعل فإن

تكوينها الثقافى قد كان تكويناً عالمياً شاملا ، وان انتاجها الأدبى كان يقرأ ويؤثر فى طلاب الأدب والمعرفة من حدود الهند إلى الأندلس ، وقد كان الذى يشغل تفكير مثل هذا النوع من الأدباء هو الناس جميعاً ، لا العرب فقط ، والإسلام الذى هو من أهم أسس الثقافة العربية التى كونت المعطيات الثقافية للجاحظ وأبي العلاء هودين عالمى بمعنى الكلمــة ، لا يتجه إلى جنس بعينه ، ولكنه يخاطب عقول وقلوب وأدواق البشر أجمعين ، وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين كان الإسلام يغطى معظم بلاد الحضارة والعمران ، وكانت اللغة العربية هى لغة الثقافة العالمية ، ومن هنا كان الفكر العربى فى مجموعه فكراً عالمياً . . .

وقد استمر نطاق عالمية الفكر العربى فى اتساع حتى أواخر القرن الخامس الهجرى . . . ثم تحول الفكر العربى بعد ذلك إلى النطـاق المحلى الضيق نتيجة لظروف تاريخية قاهرة . . . ومع ذلك فقد لمع فيه نوابغ أفذاذ مثل ابن خلدون والمقريزى وابن الخطيب وابن منظور ومن إليهم . . . ولذا فإنه إذا نهض العرب فى العصر الحديث محاولين التطلع إلى عالمية التفكير والثقافة ، فإن هذا لا يعد جديداً عليهم ، ولكنه يعد جريا على تقليد قديم عرفوه ومهدوا السبيل إليه ، وبالرغم من أن الأدب العربى تقوم أمامه عوائق تدفعه عن طريق الصدارة إلا أنه استطاع أن يذلل كثيراً من العقبات ففى انجلترا وفرنسا وأمريكا واسبانيا وألمانيا يقرأ الناس لطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم ، ومعنى ذلك أن الفكر العربى المعاصر فتح الطريق إلى عالمية جديدة تصل ماضيه بحاضره . .

ثم تحدث السيد أنتونيو سرانو فأعطى فكرة مجملة عن الثقافة القومية والعلاقات الدولية ، فبدأ بالحديث عن الصفة الإسلامية التى يحملها معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد والصفة العربية التى يحملها المعهد الإسبانى العربى بمدريد أيضاً ، فأشار إلى أن هذين الوصفين لا يتعارضان ، فالمعهدان يتعاونان على خدمة الثقافة ، وجدير بنا أن نلاحظ أن صفة الإسلامية ليست مجرد نسبة إلى دين وإنما هى تعنى فى المرتبة الأولى معنى تشريعياً وطريقة حياة ومنهج حضارة ومنهل ثقافة . . فهى رابطة ثقافية تتلاشى فيها صفة المحلية . . لكن لا لتختفى

نهائياً بل لتزداد ثروة وقيمة ، ثم أشار إلى الملامح العالمية للعالم الإسلامي فعرض لاستفتـاء قامت به هيئة « اليونسكو » سنة ١٩٥٧ عن العلاقات الثقافية بين أوربا وأمريكا ، فكان مما يستوقف النظر أن معظم الاجابات نصت نصاً صريحاً على أهمية الأصول التاريخية للثقافة السائدة فى كل بلد وأن هذه السوالف هى التى تحدد اتجاهات الثقافة فى المستقبل ، ثم قرر أن الملامح البارزة فى تاريخ المسلمين خلال حركة توسعهم الطويل هى اتساع الذهن والرغبة فى الاتصال بالشعوب والتسامح والتوفيق بين الآراء والمذاهب ، وبتلك الخصائص يمكن تفسير عصر البطولات الأولى التى تمت فيها للاسلام فتوحات عظمى فى مدة قصيرة ، وقد كان ذلك هو السبب فى أن كثيراً من الشعوب تركت أديانها ولغاتها طائعة مختارة ودخلت للاسلام ، حتى الشعوب التى استمسكت بدينها تأثرت تأثراً بليغاً بحضارة العرب وثقافة الاسلام . وهذا ظاهر جداً فى حركة المستعربين الاسبان فإننا نكتشف كل يوم مظاهر جديدة لهذا التأثر الذى بلغ من عمقه أن جماعات كثيرة من الاسبان أصبحت تقرأ الانجيل بالعربية . . . ثم تناول فى محاضرته بالحديث عن الأهمية العظمى لمصر فى مختلف عصور التاريخ من عهد الفراعنة إلى عهد العرب . . وذكر أن سائحاً إسبانياً من أهل القرن الخامس عشر يسمى « بيرو طافور » زار مصر في طريقه إلى قلب أفريقيا سعياً وراء منابع النيل ولكن القاهرة استهونه فمكث فيها مدة طوية ، وكتب عنها وصفاً مطولا أعرب فيه عن عظيم أهميتها . . . ثم تحدث عن مصر الحديثة وخاصة عن قناة السويس . ثم أشار إلى أهمية اللغة العربية بالنسبة للاسبان فهى تدرس فى كليات الآداب ومدارس التجارة والمدارس العسكرية والمدرسة المركزية للغات والمدرسة الدبلوماسية وبعض المدارس الثانوية مقرراً أن العنصر العربى داخل فى تكوين اسبانيا دخولا عميقاً ، وبفضله تعد بلداً أوربياً فريداً فى بابه ، ثم ختم محاضرته بالحديث عن دور إسبانيا فى نقل حضارة العرب إلى أوربا .

ثم تحدثت القصصية الشهيرة كارمن كورتس الحائزة على كثير من جوائز الدولة فى اسبانيا والناقدة الأدبية ذات المركز المرموق فى الدوائر الثقافية فأظهرت إعجابها بتوفيق الحكيم وقالت إن كتاب يوميات نائب فى الأرياف عمل أدبى

رائع فإن الكاتب قد نجح فى تصوير الريف المصرى وتقديم مشاكله بأسلوبه الساخر المر ثم تناولت بالتحليل مسرحية أهل الكهف وقصص نجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الحليم عبد الله ويوسف الشارونى وغيرهم وأعطت عن كل منهم حكماً غاية فى الدقة . . . وقد أعربت الأديبة الكبيرة عن تفاؤلها بمستقبل القصة والمسرحية فى الأدب العربى المعاصر . . .

محاضرات ألقيت خارج المعهد

ألقيت هذه المحاضرات خارج المعهد ، ولكنها تدخل فى صميم رسالته ، وله نصيب كبير فى تنظيمها ولذا فإننا نورد فيما يلى نبذة عن كل منها .

الأستاذ بسكوال مارين : الإصلاح الزراعى فى الجمهورية العربية المتحدة . ألقيت فى قرطبة فى مساء يوم الثلاثاء ٢٦ يناير ١٩٦٥

الأستاذ بسكوال مارين : عن زيارته للجمهورية العربية المتحدة مساء ٢٢ يناير ١٩٦٥

الدكتور حسين مؤنس : افريقية ومكان مصر فيها . ألقيت هذه المحاضرة ضمن برنامج محاضرات الندوة السابعة لجبهة الشباب الاسبانية فى مدينة طليطلة صباح الثلاثاء ١٣ يوليو ١٩٦٥ ، وقد تناول الخطوط الرئيسية لجغرافية افريقية وتاريخها الحديث بصورة خاصة وعواطف الأخوة التى تربط المصريين كافريقيين ببقية أهل القارة ، ثم جهود مصر فى معاونة الحركات التحررية ومقاومة الاستعمار ومكان ثورة يوليو ١٩٥٢ من تاريخ الحرية فى القارة .

الدكتور حسين مؤنس : موقف العرب فى العالم المعاصر . ألقيت فى البيت الإسبانى العربى من يوم ١٩ اكتوبر ١٩٦٥ ، كانت هذه المحاضرة هى افتتاح موسم المحاضرات فى البيت العربى الإسبانى ، وقد تناول المحاضر فيها المشاكل الرئيسية العالمية ، وشرح وجهة نظر العرب فى كل منها وموقفهم من الحركات الكبرى التى تحرك التاريخ فى عصرنا وخاصة حركة تحرير الشعوب ونهوض أمم العالم الثالث .

أسابيع الدعاية للجمهورية العربية المتحدة

نشطت خلال هذا العام حركة التعريف ببلادنا خارج المعهد عن طريق تنظيم أسابيع الدعاية التى جرينا على تنظيمها من أعوام وجودناها حتى وصلنا بها إلى صورة جعلتها وسيلة طيبة ونافعة من وسائل التعريف ببلادنا والتقريب بينها وبين الشبان فى اسبانيا .

وفى الأسابيع التى قمنا بتنظيمها فى هذا العام حرصنا على أن يتكون كل أسبوع من محاضرتين على الأقل فى موضوعين من موضوعاتنا المصرية والعربية ، وندوة تناقش فيها مسألة رئيسية من مسائل العلاقات الثقافية وعرضاً أو عرضين من أفلام التعريف . وفى بعض الأحيان ننظم أثنــاء الأسبوع معرضاً للفنون المصرية يتكون من مجموعة النمــاذج الجصية للآثار الفرعونية التى أرسلت لنا من القاهرة .

وقد اقمنا هذا العام أربعة من هذه الاسابيع ، وجدير بالذكر أن الأسبوع ليس من الضرورى أن يكون سبعة أيام فقد يكون أقل أو أكثر حسب الظروف . وكذلك نهتم بأن تكون الأسابيع فى أوساط شبان وخاصة الطلاب الجامعيين والعمال . وسنعرض فيما يلى برنامج الاسابيع التى اقمناها وما ألقى فيها من محاضرات .

أسبوع مصر فى بيت البرازيل : من الإثنين ٢٢ إلى الأحد ٢٨ فبراير ١٩٦٥

أسبوع الجمهورية العربية المتحدة فى نادى الاتينيو فى حي بايكاس فى مدريد : من الجمعة ٢٣ أبريل إلى الجمعة ٧ مايو ١٩٦٥

أسبوع الجمهورية العربية المتحدة فى نادى مارثو الجامعى بمدريد : من الإثنين ١٠ إلى الأربعاء ١٢ مايو ١٩٦٥

أسبوع الجمهورية العربية المتحدة فى سلمنكة : من الأربعاء ١٢ إلى الأربعاء ١٩ مايو ١٩٦٥

رحلة محاضرات فى التاريخ الإسلامى إلى انجلترا

تلبية لدعوة عدد من الجامعات الإنجليزية قام مدير المعهد برحلة محاضرات فى انجلترا واسكتلندا ألقى خلالها تسع محاضرات فى جامعات كيمبردج ولندن ودرهام وسانت أندروز وأدنبره ، وكانت موضوعات المحاضرات هى :

— بنو أمية فى الشرق والغرب .
— قرطبة فى عصر الخلفاء .
— توقيت جديد للسيرة النبوية الكريمة .
— موقعة بدر .

وقد ألقيت هذه المحاضرات باللغة الإنجليزية فى المدة من ٢٦ اكتوبر إلى ٨ نوفمبر ١٩٦٥

حديث عن الإسلام من راديو اسبانيا القومى

فى مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٦٥ قام مدير المعهد بتسجيل حديث طويل (١٦ دقيقة) عن الإسلام فى محطة راديو ناثيونال د اسبانيا — وقد كان الحديث فى صيغة حوار بين مدير المعهد وبين المحرر خواكين بلاثكث — وقد تناول الحديث أصول الاسلام وقواعده وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والعلاقة بين الاسلام والنصرانية وانتشار الاسلام فى العالم .

وقد أذيع الحديث مرتين ، الأولى على البرنامج العام والثانية على البرامج الموجهة لأمريكا اللاتينية .

برنامج عن الإسلام فى التلفزيون الإسبانى

كان البرنامج فى صورة حوار بين مدير المعهد والأب خوسيه ماريا اتشنيكى تكون الحديث من تسعة أسئلة تتناول أسباب انتشار الاسلام الواسع وحيويته

الدائمـــة وقدرته فى اجتذاب الناس إليه وأصول العقيدة الاسلامية وقواعدها الأخلاقية ثم أركانه وتسامحه مع الأديان الأخرى وموقف الاسلام من الالحاد والشيوعية وما إليها من المبادىء الهدامة وعن الصلاة فى الاسلام وهل الاسلام عقيدة استسلام وتسليم مطلق للمقادير . وقد أذيع الـبرنامج بعد ظهر الأحد ٢٨ نوفمبر ١٩٦٥

زيارة وفد من طـــلاب أقسام اللغات السامية بالجامعات الاسبانية للجمهورية العربية المتحدة ، أبريل — مايو ١٩٦٥

نظم المعهد هذه الزيارة لعدد بلغ ٣٧ من أساتذة اللغة العربية وطـلابها بالجامعات الاسبانية ليتعرفوا على بلادنا وليزوروا القاهرة العاصمـة الثقافية للعالم العربى وليتصلوا بأساتذة جامعاتها ومراكز دراسة اللغة العربية ودار الكتب بالاضافة إلى الزيارات السياحية الأخرى المعروفة .

وكان من المفروض أن يدفع المشتركون نصف نفقات الإقامة ولكن إدارة العلاقات الثقافية جعلت الاستضافة كاملة مما زاد الفائدة فيها . وقد كان لهذه الزيارة أثر طيب جداً فى نفوس من اشتركوا فيهـا وتبينا بالفعل أن لها أثراً عميقاً فى توثيق الروابط التي تربطهم باللغة العربية وثقافتها .

وقد اشترك مع أولئك الطلاب نفر من طـلاب اللغة العربية فى المعهد وكذلك ذهبت معهم السيدة ميرثيدث جونثالث ماس سكرتيرة المعهد فزارت البلد الذى تعمل فى خدمته منذ نوفمبر ١٩٥٠

المعهد يكرم عالمـاً اسبانياً جليلا

فى هذا العام بلغت سن الأستاذ أمبروزيو اويثى ميراندا الخامسة والثمانين سنة قضى منها ستين سنة فى خدمة اللغة العربية نشر خلالها كتباً ومقالات

كثيرة تعد من أحسن ما قدمه علماء الاسبان فى اللغة العربية وأدبها وتاريخ شعوبهـــــا .

وقد لاحظنا أن أحداً من زملائنا فى اسبانيا وخارجها لم يقم بشيء لتكريم هذا الرجل ، فرأينا أن نقوم بعمل صغير ولكن له مغزاه ندل به على أننا نقدر للعاملين على ثقافتنا جهدهم وفضلهم .

وكان هذا العمل الذى قمنا به هو إعداد طبعة خاصة من نص كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس الذى نشره أمبروزيو اويثى محققاً فى صحيفة المعهد فطبعنا مئة نسخة على ورق ممتاز وغلفناها تغليفاً جميلا ووزعناها على أصدقائه وعارفى فضله تكريماً له .

الدورة الرابعة للجلسات العلمية الأندلسية

فى خلال شهر ديسمبر من هذه السنة تم عقد الدورة الرابعة للجلسات العلمية الأندلسية فى المدة من ٩ — ١٧ ديسمبر ١٩٦٥ ، وقد أقيمت هذه المرة فى مدينة بلنسية بقاعة الحفلات الكبرى فى جامعة بلنسية .

وقد عقدت الدورة ٧ جلسات علمية ألقى فيها ٢٨ بحثـاً يضاف إليها ٣ محاضرات عامة ألقيت بعد الظهر فى مبنى الأتنيو ، فيكون مجموع محاضرات هذه الدورة ٣٢ محاضرة وبيانها كما يلى :

المحاضرة الأولى : الأستاذ خايمه أليفر آسين ، مدير مدرسة الأبحاث العربية بمدريد . عن : « ملاحظات حول أسماء المواضع العربية فى إقليم بلنسية » صباح الخميس ٩ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثانية : الدكتور حسين مؤنس ، مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . عن : « آراء حول تاريخ بنى أمية فى الشرق والغرب » مساء الخميس ٩ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثالثة : الأستاذ نيفل باربر « الحرب النفسية التى شنها الموحدون ضد المرابطين » مساء الخميس ٩ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الرابعة : الأستاذ أمبروزيو أويثى ميراندا : « بلنسية الإسلامية » ألقيت هذه المحاضرة فى قاعة المحاضرات بالأتنيو مساء الخميس ٩ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الخامسة : الأستاذ جيمس ديكى ، الباحث بمدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة . عن : « ابن شهيد وديوانه » صباح الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة السادسة : خاثنتو بوسك بيلا ، الأستاذ بجامعة غرناطة . عن « ملاحظات حول اسم وادى لشت وتاريخه » صباح الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة السابعة : إلياس تيريس سادابا ، الأستاذ بجامعة مدريد . عن « مدائح بلنسية ومراثيها » صباح الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثامنة : خوان بيرنيت خينيس ، الأستاذ بجامعة برشلونة . عن « مجهودات مسلمة المجريطى فى الرياضيات » صباح السبت ١١ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة التاسعة : الدكتور أحمد مختار العبادى ، وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد . عن « مصادر ابن الشباط فى وصفه للأندلس » صباح السبت ١١ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة العاشرة : روبرت برونشفيل ، الأستاذ بجامعة باريس ومدير معهد الدراسات الإسلامية بها . عن « فتاوى ابن رشد الجد كمصدر تاريخى » صباح السبت ١١ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الحادية عشرة : الدكتور حسين مؤنس « العالم العربى اليوم » فى قاعة المحاضرات العامة بالأتنيو . السبت ١١ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثانية عشرة : السيدة آربيه ، الباحثة فى دار بلاثكث فى مدريد . عن « حول الملابس الإسلامية فى اسبانيا من سقوط غرناطة إلى خروج الموريسكيين » صباح الإثنين ١٣ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثالثة عشرة : دكتور فرناندو دى لاجرانخا سانتاماريا ، الأستاذ بجامعة سرقسطة . عن « ابن المطرف ابن غرسية قاضى خلفاء بنى حمود » صباح الإثنين ١٣ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الرابعة عشرة : دكتور جون هويكنز ، سكرتير قسم دراسات العصور الوسطى فى جامعة كيمبردج . عن «كتاب الجغرافية لأبى بكر الزهرى» صباح الإثنين ١٣ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الخامسة عشرة : الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، الأستاذ بجامعة القاهرة . عن «الأمثال العربية فى الأندلس» صباح الإثنين ١٣ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة السادسة عشرة : دكتور لويس سيكو دى لوثينا ، عن «الإسلام الأندلسى فى الشعر الإسبانى» ألقيت بدار الأتنيو مساء الإثنين ١٩٦٥

المحاضرة السابعة عشرة : السيد عبد الرحمن على الحاجى ، من جامعة بغداد . «الرحالة الأندلسى ابراهيم الطرطوشى» صباح الثلاثاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثامنة عشرة : دكتور اليسيو بيدال بلتران ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعه بلنسية . عن «المدجنون البلنسيون من عام ١٣٨٧ إلى عام ١٣٩٦» صباح الثلاثاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة التاسعة عشرة : دكتور هنرى تيراس ، مدير دار بلاثكث . عن «ملاحظات عن الفن الأندلسى فى عصر الطوائف» صباح الثلاثاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة العشرون : باسكث رويث : الأستاذ بالمعهد الإسبانى فى طنجة . عن «أعمدة هرقل عند مؤرخى العرب فى العصور الوسطى» صباح الثلاثاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الحادية والعشرون : خواكين بالبيه برميخو . عن «دراسات جديدة حول ببشتر» صباح الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثانية والعشرون : الأستاذ بدرو شالميتا ، الباحث بالمعهد الإسبانى العربى للثقافة بمدريد . عن «الحسبة الأندلسية كما ترى من خلال المراسيم الملكية الإسبانية» صباح الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثالثة والعشرون : الدكتور دافيد جونثالث مايسو عن «الدراسات الشرقية فى جامعة بلنسية» صباح الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الرابعة والعشرون : دكتور بدرو مارتينث مونتابث عن « صادرات شبه الجزيرة الأندلسية إلى العالم العربى فى العصور الوسطى » صباح الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الخامسة والعشرون : الدكتور شكرى فيصل ، الأستاذ بجامعة دمشق . عن « حول رسالة القدس لابن عربي » مساء الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة السادسة والعشرون : الأستاذ محمد بن شريفة ، الأستاذ بجامعة الرباط . عن « ابن عميرة البلنسى » مساء الأربعاء ١٥ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة السابعة والعشرون : دكتور ر. و. ج. أوستن ، أستاذ الدراسات العربية فى جامعة ديرهام بانجلترا . عن « ملاحظات حول أهمية دراسات ابن عربى ومستقبلها » صباح الخميس ١٦ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثامنة والعشرون : الآنسة ماريا أوخينيا جالبيث ، الباحثة فى المعهد الإسبانى العربى للثقافة بمدريد . عن « ملاحظات حول كتابة عربية على دواة من عصر الخلافة » صباح الخميس ١٦ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة التاسعة والعشرون : دكتور خليان سان بالبيرو ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى جامعة بلنسية . عن « التجارة الأندلسية فى القرن الخامس عشر » صباح الخميس ١٦ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثلاثون : الأستاذ أمبروزيو أويثى ميراندا . عن « مصاعب العمل فى ميدان الدراسات العربية » صباح الخميس ١٦ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الحادية والثلاثون : الأستاذ لويس سيكو دى لوثينا عن « أعلام جغرافية غرناطية » صباح الجمعة ١٧ ديسمبر ١٩٦٥

المحاضرة الثانية والثلاثون : الأب سلفادور جوميث نوجالس « خلود الروح عند ابن عربي » صباج الجمعة ١٧ ديسمبر ١٩٦٥

يوم ابن عربى فى الأسبوع الثامن للفلسفة الإسبانية

ضمن نطاق الأسبوع الثامن للفلسفة الإسبانية الذى تنظمه الجمعية الفلسفية الاسبانية كل سنة خصصت جلسة لمحي الدين ابن عربى بعد ظهر يوم الأربعاء ٢١ أبريل ١٩٦٥ ، وألقيت فى الجلسة محاضرتان ، الأولى عن الله والعالم عند ابن عربى ألقاها الأستاذ ميجيل كروث إرنانديث مؤرخ الفلسفة الاسلامية المعروف والثانية عن علم النفس عند ابن عربى ألقاها الأب الدكتور سلفادور جومث نوجالس .

اشتراك الفرقة القومية للفنون الشعبية المصرية فى مهرجانات اسبانيا العالميـــة لسنة ١٩٦٥

اجتهدنا فى أن نستقدم إحدى فرق الرقص الشعبى المصرية لكى تعرض على الجمهور الاسبانى بعض رقصاتنا الفلكلورية ، وتمكنا بعد محاولات كثيرة من إقناع المسئولين فى الاحتفالات الاسبانية السنوية **Festivales de España** فى وزارتى الاعلام والتعليم بالمساهمـــة معنا فى تمويل برنامج قدوم الفرقة القومية المصرية للفنون الشعبية لتقديم بعض عروضها للجمهور الاسبانى ضمن نطـاق هذه الاحتفالات .

وقد وصلت الفرقة إلى اسبانيا فى ٢٨ يونيو وظلت فيهـا إلى ١٤ يوليو ١٩٦٥ حيث غادرتها إلى المغرب . وكانت مكونة من ٤٠ شخصاً ما بين راقص وراقصة وعازف ومدرب يرأسهم السيد أحمد رشدى صالح مدير إدارة الفنون الشعبية والاستعراضية بمؤسسة المسرح بالقاهرة .

خلال هذه المدة قدمت الفرقة ٧ عروض منها ٢ فى غرناطـة وواحد فى كل من قصرش وسلمنكة و ٣ فى مدريد منها واحد فى على مسرح الثارثويلا .

وفى يوم السبت ١٠ يوليو قامت الفرقة بتسجيل أحد برامجها فى التلفزيون الاسبانى وتم عرض ذلك التسجيل فيما بعد على دفعات .

زيارة الأب اسطفان الأول سيداروس بطريرك الأقباط الكاثوليك في مصر لاسبانيا ، من أواخر مايو إلى ١٠ يونيو ١٩٦٥

زار نيافة البطريرك اسطفان الأول سيداروس اسبانيا مدعواً من الكردينال فرناندو كيروجا بلاثيوس مطران سنتياجو دى كومبوستيلا للحج إلى مزار شنت ياقب (سنتياجو دى كومبوستيلا) أثناء العام القدس الخاص بذلك القديس ، وهو يقام بقرار من البابا فيتوافد الناس على كنيسته للحج ونيل البركة .

وقد حل ذلك العام سنة ١٩٦٥ فتوافد الحجاج ألوفاً إلى شنت ياقب حتى أقيم لهم شبه مدينة سياحية .

وضمن برنامج زيارة البطريرك أقام قداسا فى كنيسة الميلاجروسا فى مدريد . أقامه بالعربية على الطقس الكاثوليكي وكان يعاونه فى ذلك الأب زكريا راميرو وهو بسكى الأصل عمل فى مصر فترة طويلة وهو يعمل الآن فى سكرتارية العلاقات مع غير المسيحيين فى الفاتيكان .

هذا ويبلغ عدد الكاثوليك فى مصر ١٠٠٠٠٠ على وجه التقريب ويقال ان تاريخ الكاثوليكية فى مصر يرجع إلى مجمع فلورنسا الدينى فى القرن السادس عشر ، إذ يذهبون إلى أن نفراً من أقباط مصر اشترك فيه واعتنق الكاثوليكية ، ولكن المؤكد أن البداية الحقيقية للكاثوليكية فى مصر ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر . وكل الكاثوليك المصريين أصلهم أقباط ارثوذكس .

الاحتفال بالذكرى المئوية الثامنة لوفاة الطبيب الرمدى الأندلسى محمد بن قسوم الغافقى

أقيم حفل الذكرى فى حدائق مستشفى المحافظة بقرطبة حيث أزيح الستار عن تمثال الغافقى يوم ١٢ اكتوبر ١٩٦٥ ، وتكلم فى هذا الحفل السيد رافائيل كاستيخون رئيس أكاديميـــة العلوم بقرطبة والسيد مارتين الماجرو ومدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وعمدة قرطبة ونفر من كبار أطباء البلد .

وكانت كلماتهم كلها فى نفس معنى تمجيد الطبيب العربى الكبير وذكر خطوات حياته وما قام به من كشوف فى الطب الرمدى .

كتب ومطبوعات

أصدر المعهد إلى الآن أربعة كتب من « سلسلة كتب التعريف الصغيرة » آخرها كتاب « ما ذا رأيت فى الجمهورية العربية المتحدة » بقلم بسكوال مارين بيريث . وذلك الكتاب من أحسن ما كتب عن بلادنا فى لغة أوربية .

والكتاب الخامس يدخل المطبعة قريباً وموضوعه الإسلام ويتكون من قسمين واحد عن الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام وقواعده والثانى ترجمة إسبانية لكتاب عقيدة بلا غموض . وهذا القسم الثـانى هو الذى تم فعلا . والعمل جار الآن فى انجاز السيرة الشريفة المختصرة .

طالب مصرى يحصل على الدكتوراة فى العلوم الاجتماعية

حصل هذا العام على درجة دكتور فى العلوم الأجتماعية السيد الدكتور أحمد أبو زيد السكرتير الثالث بسفارة ج. ع. م. فى مدريد وكان موضوع دراسته
Psicología de los Movimientos Sociales y Políticos

ولم يحصل أى طالب عربى على دكتوراه الآداب من أى من الجامعات الاسبانية ذلك العام .

وحصل على الدكتوراه فى الدراسات العربية من الاسبان :

— السيد لويس خيمينيث بيريث Luis Jiménez Pérez وكان موضوع رسالته تحقيق نص كتاب التنبيه على سبيل السعادة للفارابى ترجمته إلى الاسبانية والتعليم عليه ، كان امتحانه فى ٢٠ يونيو ١٩٦٤ فى جامعـة غرناطة ، وقد أشرف على الرسالة الأب داريو كابانيلاس .

— السيد خوليو كورتس سوروا Julio Cortés Soroa وموضوع رسالته

La forma IV (af'ala أفعل) Estudio de su frecuencia en los autores del siglo XX.

وقد نوقشت رسالته فى ٩ يوليو ١٩٦٥ بجامعة مدريد وأشرف على الرسالة الأستاذ إلياس تيريس سادابا .

* * *

وفاة الأب ألونسو ألونسو

فى يناير ١٩٦٥ توفى Manuel Alonso Alonso الأب اليسوعى المستشرق المشتغل بالفلسفة الإسلامية . وقد نشر فى مجلة الأندلس أبحاثـاً كثيرة فى موضوعات شتى من الفلسفة الإسلامية وخاصة الترجمات اللاتينية لمؤلفات فلاسفتنا ، وقد أشتهر بالدقة والاتقان فى كل ما يكتب .

معهد الدراسات الإسلامية خلال سنة ١٩٦٦

كان ذلك العام حافلا بانجازات فى كل نواحى نشاط المعهد ، فإلى جانب افتتاحه لمبناه الجديد وانتقاله إليه توسع المعهد فى برامج محاضراته داخل داره وخارجها وكذلك زاد الاهتمام بتنظيم زيارات وفود من الطلاب الإسبان للجمهورية العربية المتحدة فى زيارات سياحية وعلمية فى آن واحد . وقد أرسلت الوفود خلال ذلك العام بمعدل وفد فى الشهر على وجه التقريب .

وفيما يلى بعض التفصيل عن هذه الوجوه من النشاط .

١ — مبنى المعهد

فرغت أعمال البناء تماماً وتسلمت اللجنة التى ندبتها الوزارة المبنى من المقاول فى ١٩ يناير ١٩٦٦ ، وبقيت بعد ذلك إكمالات وتشطيبات وتعديلات استمر العمل فيها بضعة شهور .

وفى يوم الخميس ٥ مايو ١٩٦٦ تم افتتاح المعهد فى حفل كبير على يد السيد الأستاذ الدكتور عبد القادر حاتم والسيد أحمد أنور ، سفير الجمهورية العربية المتحدة فى مدريد ، فى حفل كبير حضره وزير التعليم والعلوم فى اسبانيا ، الأستاذ الدكتور مانويل لورا تمايو ، والسيد مانويل فراجا إيريارنه ، وزير الأنباء والسياحة وممثل لرياسة الدولة ، وعمدة مدريد ونفر كبير من الشخصيات الاسبانية .

وقد أعددنا نشرة خاصة عن المعهد لهذه الناسبة أوردنا فيها الكثير من التفصيلات الخاصة بذلك المبنى الذى يقع فى رقم ١٠ من شارع فرانسيسكو دى أسيس مندث كاساريجو .

وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٦٦ انتقل المعهد إلى داره الجديدة وبدأ عمله فيها من ذلك التاريخ .

٢ — دروس اللغة العربية فى المعهد

افتتح موسم تدريس اللغة العربية فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٦ وقد قسم الطلبة إلى فصلين : واحد للمبتدئين وآخر للمتقدمين . وتلقى طلاب كل من الفصلين درسين فى الأسبوع . وقام بالتدريس للفصلين السيد مدير المعهد . وفيما يلى بيان عدد الطلبة المقيدين فى سجل الطلبة فى بداية الموسم :

الفصل الأول ٢٩ طالباً .

الفصل الثانى ٢٣ طالباً .

٣ — المحاضرات التى ألقيت داخل دار المعهد خلال سنة ١٩٦٦

اتجه الاهتمام بصورة خاصة هذا العام نحو المحاضرات خارج المعهد ، فإلى جانب الاشتراك فى موسم محاضرات البيت الإسبانى العربى اشتركنا فى برنامج محاضرات المركز الثقافى للجامعة العربية فى جنيف بسويسرا (مارس ويونيو ١٩٦٦) وكذلك فى ندوة أصول القومية العربية فى مونبيليه .

كذلك أمكننا تنظيم دروس للغة العربية للطلبة الإسبان فى القاهرة خلال صيف ١٩٦٦ وأتت هذه التجربة بنتائج طيبة .

ونتيجة لهذا لم يلق بداخل المعهد خلال ذلك الموسم إلا محاضرة ختام الموسم ويرجع ذلك إلى أن الأمر احتاج إلى ترتيبات وتأثيث بداخل المعهد قبل أن نستطيع إعداد قاعة المحاضرات إعداداً تاماً . وسنوجز فيما يلى المحاضرة المشار إليها .

وفى هذه المحاضرة قدم د. حسين مؤنس عرضاً موجزاً للأعمال التى قامت بها الجمهورية العربية المتحدة فى ميدان التبادل الثقافى مع اسبانيا سنة ١٩٦٥/٦٦

المحاضرات التى ألقيت خارج دار المعهد

المحاضرة الأولى : الأستاذ خايمى أوليفر آسين ، مدير مدرسة الأبحاث العربية فى مدريد عن « مدريد العربية » . ألقيت فى قاعة المحاضرات بدار بلدية مدريد يوم ١٤ يناير ١٩٦٦ وأوجز المحاضر فيها ما ذكره فى كتابه المطول عن تاريخ اسم مدريد .

المحاضرة الثانية : السيد أحمد أنور سفير الجمهورية العربية المتحدة فى مدريد عن « أفريقية » . ألقيت يوم الأربعاء ٩ فبراير ١٩٦٦ ضمن برنامج محاضرات نظمته دار ميرافلوريس للطلاب الجامعيين فى مدينة سرقسطة عن السياسة العالمية .

المحاضرة الثالثة : الدكتور حسين مؤنس « الجمهورية العربية المتحدة » . ألقيت فى دار الطلاب الجامعيين فى بلد وليد بشمال اسبانيا يوم ٢٤ مارس ١٩٦٦

المحاضرة الرابعة : الأستاذ خوسيه ماريا مياس باييكروسا « المؤثرات الشرقية فى الثقافة الأندلسية » . ألقيت فى قاعة الإجتماعات فى مكتبة الدار القومية بمدريد يوم ٥ مارس ١٩٦٦

المحاضرة الخامسة : الأستاذ أوجستين أسيس « الوحدة العربية والوحدة العالمية » . ألقيت فى دار جمعية التشريع مساء الخميس ١٠ مارس ١٩٦٦

المحاضرة السادسة : الدكتور حسين مؤنس « عالمية الفكر العربى » . ألقيت هذه المحاضرة مساء ٢٤ مارس ١٩٦٦ ضمن سلسلة محاضرات نظمها هذا العام المركز الثقافى التابع للمكتب الدائم لجامعة الدول العربية لدى المركز الأوربى لهيئة الأمم .

المحاضرة السابعة : فرانشيسكو إلياس دى تيخادا ، عن « الإسلام ومقارنته باليهودية » . والسيد المحاضر أستاذ القانون الطبيعى فى جامعة اشبيلية .

المحاضرة الثامنة : الأستاذ بسكوال مارين بيريث « الوحدة العربية والقانون » ألقيت فى قاعة المحاضرات بجمعية التشريع مساء ١٤ يونيه ١٩٦٦

المحاضرة التاسعة : الدكتور حسين مؤنس « النهضة الفكرية العربية المعاصرة » ألقيت فى قاعة المحاضرات الكبرى بجامعة جنيف مساء ٢٣ يونيه ١٩٦٦

المحاضرة العاشرة : الدكتور حسين مؤنس « الرواية والقصة فى الأدب العربى المعاصر » . ألقيت هذه المحاضرة فى نادى الشباب السويسرى لمناسبة إقامة مكتب الجامعة لمعرض الطوابع العربية فى هذا النادى مساء ٢٤ يونيه ١٩٦٦

ندوة هامـــة

عن : نشوء القومية العربية نظمتها جامعة مونبلييه فى المدة من ١٧ إلى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٦

نظمت هذه الندوة هيئة تسمى جمعية ندوات مونبلييه ، وهى جمعية أنشئت لتنظيم اجتماعات مع أهل الثقافات والأديان الشرقية . وندوتها هذه باكورة أعمالها . وكانت من أهم الاجتماعات العلميـة التى عقدت لدراسة موضوع عربى خلال السنوات الأخيرة فى أوربا ، فقد امتازت بأن موضوعها حديث بل معاصر ، وهو نشوء أو أصول القومية العربية .

اشترك فى هذه الندوة مندوبون من فرنسا وإيطاليا ومن البلاد العربية التالية : الجمهورية العربية المتحدة — لبنـان — العراق — الجزائر — المغرب ، يضاف إليهم مندوب إيرانى يعمل صحفياً فى جنيف .

وفيما يلى نورد بياناً كاملا بالموضوعات وأسماء من أعدوها :

جلسة الافتتاح : بعد ظهر ١٧ نوفمبر ١٩٦٦

موضوع المحاضرة « فكرة القومية فى تاريخ الإسلام » أعده د. حسين مؤنس .

جلسة العمل الأولى : صباح ١٨ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « الأصول الثقافية للقومية العربية » الدكتور سيمون جارجى الأستاذ بجامعة جنيف ، والدكتور باولو مينجانتى الأستاذ بجامعة روما .

جلسة العمل الثانية : بعد ظهر ١٨ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « حركة الإصلاح والآراء السياسية لجماعة المنار » د. روجيه أرنالديز الأستاذ بجامعة ليون ، والأب جاك جومييه العضو بالمعهد الدومينيكى بالقاهرة .

جلسة العمل الثالثة : صباح ١٩ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « نظام القوميات فى الامبراطورية العثمانية » م. ف. و. فرناو كاتب وصحفى ، وروبرت ملتران الأستاذ بكلية الآداب بجامعة إيكس دى بروفانس .

جلسة العمل الرابعة : بعد ظهر ١٩ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « أثر الآراء الغربية فى القوميات الشرقية » دكتور عادل عامر مدير مكتب الجامعة العربية فى باريس ، والدكتور حسن صعب الأستاذ بالجامعة الحكومية فى بيروت .

جلسة العمل الخامسة : صباح ٢١ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « القومية والإسلام قبيل الحرب العالمية الأولى » دكتور مارسيل كولومب الأستاذ بمدرسة اللغات الحية الحديثة فى باريس ، ودكتور على مراد المدرس بكلية الآداب بجامعة ليون .

جلسة العمل السادسة : بعد ظهر ٢١ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « سير القومية العربية قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها » السيد ميشال اسمر رئيس الندوة اللبنانية والسيد على مستوفى صحفى وكاتب إيرانى .

محاضرة الختام : صباح ٢٢ نوفمبر ١٩٦٦

موضوعها « أزمة الخلافة ونتائجها » أندريه ميكيل المدرس بالمدرسة العالية للدراسات العليا بجامعة باريس .

الدورة الخامسة للجلسات العلمية الأندلسية

فى خلال شهر ديسمبر من هذه السنة تم عقد الدورة الخامسة للجلسات العلمية الأندلسية فى المدة من ٩ إلى ١٨ ديسمبر ١٩٦٦ — وقد أقيمت هذه

المرة فى مدينة مالقة حيث عقدت الجلسات فى دار الثقافة الماالقية — أما حفلتا الافتتاح والختام فقد أقيمتا بمبنى كلية العلوم فى مالقة .

واشترك من العرب هذه المرة السيد الأستاذ عبد الله كنون (المغرب) والسيد محمد عبد الله عنان والسيد الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد . وإلى جانب العرب اشترك ثلاثة وعشرون أستاذاً أوربياً منهم ١٧ اسبانياً واثنان من الانجليز وثلاثة من الفرنسيين وواحد برتغالى ، فحافظت الندوة على طابعها الدولى وإن كان من المؤسف أن هاينرخ هونرباخ الأستاذ بجامعة كيل والأستاذ فرانشيسكو جابرييلى الأستاذ بجامعة روما قد اعتذرا عن الاشتراك فى هذه الدورة .

واشتركت فى اقامة هذه الدورة إلى جانب معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد الهيئات الآتية : مدرستا الأبحاث العربية فى مدريد وغرناطة ، ووكالة الوزارة للتعليم الجامعى بوزارة التعليم والعلوم فى اسبانيا ، وجامعة غرناطة ، والمعهد الإسبانى العربى التابع لوزارة الخارجية الاسبانية ، ومحافظة مالقة وعموديتها ومجلس بلديتها ، ومكتب الأعلام والسياحة فى مالقة .

وقد ألقيت فى هذه الجلسات العلمية ٢٦ محاضرة وبيانها كالآتى :

المحاضرة الأولى : دكتور خايمه أوليفر آسين .

« معلومات عن حياة موريسكى أندلسى » صباح ٩ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثانية : دكتور حسين مؤنس .

« وصف جديد لقرطبة » بعد ظهر الجمعة ٩ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثالثة : دكتور خائنتو بوسك بيلا .

« تحقيقات عن حصار بربشتر واستيلاء الصليبيين عليها ١٠٦٤ » مساء ٩ ديسمبر .

المحاضرة الرابعة : الأستاذ عبد الله كنون .

« عقيدة المرشدة لابن تومرت » ١٠ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الخامسة : جيمس ديكى (يعقوب ذكى) .

« ملاحظات على فن فلاحة البساتين العربى فى الأندلس » صباح ١٠ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة السادسة : إلياس تيريس سادابا .
« مصطلح الولجة واستعماله فى شبه الجزيرة الإيبيرية » ١٠ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة السابعة : دكتور ميشيل تيراس .
« أعمال التحصينات ذات طراز الخلافة فى قشتالة » صباح الإثنين ١٢ ديسمبر .

المحاضرة الثامنة : دكتور خوان بيرنت .
« ابن جلجل وكتابه عن طبقات الأطباء » صباح الإثنين ١٢ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة التاسعة : الأستاذ محمد عبد الله عنان .
« الممالك الأندلسية بمالقة » صباح الإثنين ١٢ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة العاشرة : دكتور خواكين بالبيه برميخو .
« معلومات من مخطوط عن مالقة الإسلامية » الثلاثاء ١٣ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الحادية عشر : د. خوسيه غرسيا دومنجث .
« قصيدة ابن متانا الأشبونى فى مديح إدريس الثانى صاحب مالقة » ١٣ ديسمبر .

المحاضرة الثانية عشر : د. خوسيه ماريا مياس بايكروسا .
« جهود الزرقالى فى علم النجوم » الثلاثاء ١٣ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثالثة عشر : الأب سلفادور جومث نوجالس .
« تلخيص كتاب النفس لابن رشد » الأربعاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الرابعة عشر : مانويل كاسامار .
« حول الآثار المالقية » الأربعاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الخامسة عشر : د. خوسيه باسكيث رويث .
« أغنية شعبية مغربية ذات أصل أندلسى » الأربعاء ١٤ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة السادسة عشر : دافيد جونثالو مايسو .
« سلومون بن جبرول المالقى كشاعر وثائر عربى » ١٤ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة السابعة عشر : فرانشيسكو بخرانو روبلس .
« الفن المدجنى فى مالقة النصرانية » صباح الخميس ١٥ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثامنة عشر : د. خواكينا إيجواواس إيبانيث .
« رسالة عربية فى علم الأمراض » صباح الخميس ١٥ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة التاسعة عشر : الأستاذ نيفل باربر .
«الأندلس فى المدونات الإنجليزية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر » ١٥ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة العشرون : الأستاذ مانويل أوكانيا خيمينيث .
« الكتابات العربية على محراب جامع قرطبة وتاريخها المجهول » ١٦ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الحادية والعشرون : الأستاذ بدرو مارتينث مونتابث .
« تعليقات على كتاب جديد من الشعر العربى القديم » ١٦ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثانية والعشرون : د. عبد الهادى التازى .
« حول تاريخ ابن صاحب الصلاة » صباح الجمعة ١٦ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الثالثة والعشرون : الأستاذ ميجيل كروث إيرناندث .
« معنى الصوفيــة » الجمعة ١٦ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة الرابعة والعشرون : الأستاذ هنرى تيراس .
« أعمال النحت المعمارى فى قرطبة فى القرن التاسع الميلادى » صباح ١٧ ديسمبر .

المحاضرة الخامسة والعشرون : د. روبرت برنشفيج .
« ابن حزم كمنطق » السبت ١٧ ديسمبر ١٩٦٦

المحاضرة السادسة والعشرون : الأستاذ لويس سيكو دى لوثينا .
« قصر بنى صمادح فى المرية » السبت ١٧ ديسمبر ١٩٦٦

شئون البعثات والمنح والاجازات الدراسية

أشرف المعهد خلال هذه السنة ١٩٦٦ على الطلبة المصريين الآتية أسماؤهم :

الاسم	موضوع البعثـة	المدة بالسنة	الجهــة الموفدة
أنور محمد الأكيابى	حصر الأراضى	١	وزارة الزراعة
محمد عبد الغنى صقر	أجهزة علمية وميكانيكية	٢	« البحث العلمى
محمد الهامى عبد العزيز	ميكانيكا دقيقــة	٢	« التربية والتعليم
فؤاد محمد السنديونى	أجهزة ميكرونية والذبذبات العالية	١	« المواصلات
مصطفى لطفى مصطفى	استخراج الملح من الملاحات	١	« الصناعة
أحمد محمد حافظ	محطات التغذية لمياه المجارى بالمزارع	١	« الاسكان والمرافق
أحمد خير الدين عبد الجواد	تخطيط العمالة الصناعية والتدريب	٢	« الصناعة
محمد رأفت مصطفى عياد	تنظيم حركة القطارات	١	« المواصلات
محمد صلاح الدين فضل	الدكتوراه فى النقد الأدبي ومذهبه	٥	جامعة الأزهر
فاروق ابراهيم عبد الحميد	« فى تكاثر نباتات الفاكهة	٤	جامعة الأزهر

كتب ومطبوعات

عثر المعهد على مخطوط هام فى مكتبة فاس مجهول المؤلف وهو ينقسم قسمين : قسم عن جغرافية الأندلس وقسم عن تاريخه . والكتاب رغم أنه مختصر إلا أنه عظيم القيمة مؤلف فى دقــة وعناية تدل على أن صاحبه عارف بالأندلس جغرافية وتاريخاً وهو لهذا يكتب كتابة أصيلة ذات قيمة .

ونظراً لأهمية ذلك المخطوط فقد بدأنا فى تحقيقه لنشره فى صحيفة المعهد على أجزاء .

ونشر المعهد خلال ذلك العام المجلد المزدوج الحادى عشر والثانى عشر الخاص بسنتى ١٩٦٣ — ١٩٦٤ فى ٧٧٨ صفحة ما بين القسم العربى والقسم الافرنجى .

وفى كتب الدعاية أعيد طبع كتاب ماذا رأيت فى الجمهورية العربية المتحدة من تأليف الأستاذ الدكتور بسكوال مارين بيرث الذى نشره أول مرة سنة ١٩٦٥

ملخصـــــات

المقالات المنشورة فى القسم غير العربى من الصحيفة

د. حسين مؤنس : تصنيف العلوم كما يراه ابن حزم (ص ٧ — ١٥)

فى هذا المقال عرض الكاتب رأى ابن حزم فى تصنيف العلوم وفى المنهج الذى ينبغى اتباعه فى التعليم . وأساس الدراسة هنا رسالة معروفة من رسائل ابن حزم اسمها رسالة مراتب العلوم وكذلك رسالة أصغر منها عنوانها رسالة التوقيف على شارع النجاة وقد نشرهما معاً فى كتاب واحد الدكتور إحسان عباس فى بيروت سنة ١٩٦٥

وظاهر من أسلوب الرسالتين أنهما من أواخر ما كتب ابن حزم ففيهما صفاء النضوج وترتيبه وهدوء الشيوخ وصراحة العالم المتمكن الذى يتكلم عن علم واسع وثقة بنفسه وبما يقول . وبهذه المناسبة أشار الكاتب إلى اشتهار أحمد ابن حزم بالصراحة وعدم كتمان شىء حتى عاتبه فى ذلك بعض أصحابه .

ثم قال أن ابن حزم لم يكتب رسالته فى مراتب العلوم على مثال ما فعله الفرابى فى رسالته عن إحصاء العلوم وإنما ابن حزم رتب العلوم على أساس من شعوره الدينى فكلما كان العلم معيناً للانسان على معرفة دينه والاقتراب من ربه والنجاة بنفسه كان أفضل عند ابن حزم لان غرض العلوم عنده لم يكن مجرد العلم فى ذاته وإنما اتخاذه وسيلة إلى نجاة الإنسان من شرور الدنيا وهذه الفكرة أوضح فى رسالة التوقيف على شارع النجاة منها فى رسالة مراتب العلوم . وليس معنى ذلك أن ابن حزم اقتصر فى كلامه على علوم الدين ولكنه شمل

العلوم كلها لأن مفهوم الدين والنجاة عنده كان واسعاً جداً فهو مثلاً يرى ضرورة دراسة علوم الأوائل وهى الرياضيات والهندسة والفلك وما إليها لأن هذه كلها توسع مدارك الانسان وتعينه على الاحاطة بجلال خلق الله سبحانه وتعالى .

ويقسم ابن حزم العلوم إلى طائفتين الأولى غرضها السعادة فى الدنيا والثانية غرضها السعادة فى الآخرة .

فأما الأولى فيقسمها قسمين قسم يطلب للكسب وشئون المعاش وقسم يطلب لحفظ الجسد وهو يرى أنه لابد للانسان أن ينال نصيباً من كل من هذين القسمين ولكنه ينبغى أن يكتفى بالضرورى فقط منهما دون أن يتهالك على ما لا تؤدى إلا للسعادة فى هذه الدنيـا . أما العلوم التى تؤدى إلى السعادة فى الآخرة فهذه ينبغى أن يدرس الانسان أكبر قدر منها وأن يصرف إليها كل جهده لأنها باب نجاته وسعادته الابديتين .

وبعد ذلك يرسم ابن حزم المنهج الذى ينبغى أن يتبع فى التعليم وهو يرى أن يسير ذلك على النظام التالى :

١ — تعليم القراءة والكتابة لأن ذلك ضرورى وهو باب العلم الأول . ولكن الانسان لا ينبغى أن يسرف فى إتقان الكتابة حتى يصير خطاطاً مهمته تجويد الخط ، أو يمهر فى الكتابة إلى درجة يصل معها إلى تزييف التوقيعات .

٢ — دراسة القرآن الكريم وحفظه ، لأن حفظ القرآن فى رأيه إلى جانب قدره الروحى والدينى العظيم فهو يعين على إتقان القراءة والنطق ويملأ القلب حكمة ويرى ابن حزم أن حفظ القرآن ودراسته يختمان المرحلة الأولى من مراحل التعليم ويستطيع الانسان أن يقف عند ذلك الحد . أما إذا أراد أن يسترسل فى العلم فيخطو إلى المراحل التالية .

٣ — دراسة النحو وهو ينصح بالاعتماد على كتب مثل الواضح لمحمد ابن حسن الزبيرى والموجز لمحمد بن السرى بن السراج البغدادى وكتاب

سيبويه وهو لا يرى الاسراف فى دراسة النحو لأن ذلك عنده لا لزوم له . وبهذه المناسبة يشير ابن حزم إلى بعض كتب اللغة مثل الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلاّم ومختصر العين للزبيدى . وابن حزم لا يرى الاسراف فى دراسة الأدب وينصح بالاكتفاء بأشعار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وما يشبهها وفى نفس الوقت يرى أن يدرس الانسان الضرورى من الحساب وهو علم العدد والهندسة السطحية وهى علم المساحة .

٤ — بعد ذلك يدرس الانسان مجموعة من العلوم التى يراها ابن حزم ضرورية لفهم القرآن والخليقة مثل المنطق والنبات والحيوان وعلم الاجناس فهذه كلها تعين على إدراك جلال الصانع سبحانه وتعالى .

٥ — وبين هذه العلوم الواردة فى الفقرة السابقة التى تدخل ضمن ما يمكن أن نسميه الثقافة العامة يرى ابن حزم أن يدرس الانسان التاريخ ليعلم شيئاً عن أحوال الدنيا والناس وما جرى على الأمم وما قامت به من تجارب .

٦ — فإذا أتم الانسان ذلك استطاع أن يدخل فى دراسة علوم الدين وهو واثق من نفسه مؤهل لهذه الدراسة . وعلوم الدين تضم إلى جانب القرآن والتفسير والحديث والفقه علم الكلام وهى الغاية العليا من كل دراسة .

وابن حزم يرى أن الشريعة الإسلامية هى خلاصة تجارب البشر وخير ما يدرسه الانسان . وله فى ذلك المعنى كلام جميـل جداً يورده فى نص رسالتيه الأنفتى الذكر .

د. خوان برنيت خينث : نص جديد هام عن تاريخ
الأندلس حتى القرن الحادى عشر (ص ١٧ — ٤٢)

فى هذا المقال يقدم د. خوان بيرنيت الأستاذ بكلية الآداب بجامعة برشلونة دراسة مختصرة ممتازة لكتاب نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار

وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لأحمد بن عمر بن أنس العذرى المعروف بابن الدلائى الذى حقق نصه وأعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى الأستاذ بجامعة القاهرة ونشره معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ضمن سلسلة مطبوعاته سنة ١٩٦٥

هذا المقال ليس نقداً خالصاً للكتاب ولا هو عرضاً صرفاً لمحتوياته بل هو دراسة عنه وعن المنهج الذى اتبعه الدكتور الأهوانى فى تحقيقه مع استطرادات وإضافات تاريخية ذات قيمة كبيرة من النوع الذى تعودنا أن نقرأه من قلم الأستاذ خوان بيرنيت . ويبدأ المقال بعرض لحياة العذرى والمراجع التى رجع إليها فى تصنيف كتابه ثم يعدد الكُوَرْ التى وردت نصوص أوصافها فى القطعة المطبوعة ثم يقول أن نص العذرى هذا تاريخى أكثر منه جغرافى ثم يعرض لطريقة العذرى فى الكلام على الكور فهو يبدأ فى تحديد مواقعها وأصل اسمها ومدنها مع وصف كل منها والمنشآت التى تمتاز بها والقنوات والمنتجات ويشير إلى أن العذرى يشبه فى هذا المقريزى بعض الشىء ويستلفت النظر إلى بعض لمحات ذات أهمية كبرى للعذرى مثل قوله أن شاطبة كانت مركز التجارة مع السودان وحديثه عن الأسواق التى تصدر إليها منتجات الأقاليم والصناعات والعجائب والأساطير ثم الأحداث التاريخية التى وقعت فى الكورة بما فى ذلك الاحداث غير العادية مثل الزلازل . ويتحدث بعد ذلك عن الضرائب التى تجبى من أقاليمها ويضيف أن الاقليم فى رأى العذرى جزء من الكورة وهو على هذا قريب من الرستاق فى المصطلح الجغرافى المشرقى . ونفهم من كلام العذرى أن مقادير الجباية كانت تقدر على القرية من القرى جملة واحدة ويترك لأهلها طريقة جمعها ثم يشير إلى ما قرره د. مؤنس فى بحثه عن التقسيم الإدارى للأندلس من أن الأجزاء كانت أراضى مشاعة تتركها الحكومة دون ضرائب لتستعمل مراع للقرية .

ويعرض د. بيرنيت إلى سلاسل الحكام التى يوردها العذرى وخاصة عن الثغور الشمالية الشرقية للأندلس وما تضمه هذه السلاسل من تفاصيل على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للتاريخ الإسبانى العام . وبهذه المناسبة يلفت النظر إلى أهمية المادة التاريخية التى يوردها العذرى عند كلامه على طالقه من كورة اشبيلية وكذلك إلى الفقرة الطويلة الخاصة بغزوات المجوس فى الأندلس (ص ٩٨ — ١٠٠) وكذلك سلسلة غزوات المنصور التى درسها بصورة موسعة سيكو دى لوثينا .

وفى نهاية المقـال يقف دكتور بيرنيت طويلا عند المعلومات الجديدة التى يوردها العذرى الخاصة بإقليم برشلونة وإمارات جبال البرانس الشرقية التى كانت فى دور التكوين طوال العصر الإسلامى وقد أثنى الدكتور بيرنيت فى مقاله على عمل الدكتور الأهوانى وتحقيقه الجيد ووصفه بالاتقان والشمول والأمانة التامة فى إخراج النصر على أحسن صورة .

الأب الدكتور سلفادور غومث نوجالس : ابن عربى حلقة وصل ثقافيـــة بين العالم العربى والثقافة الغربية (ص ٢٥ — ٤١)

ألقى الأب نوجالس هذا البحث فى صورة حديث ساهم به فى الدورة الثالثة للجلسات العلمية الأندلسية التى عقدت فى مدريد سنة **١٩٦٥** وكانت هذه الدورة قد امتدت فاقيمت بعض حلقاتها فى الكالا دى إينارس المعروفة بقلعة عبد السلام ، فكانت محاضرة الأب نوجالس إحدى المحاضرتين اللتين ألقيتـا هناك أما الثانية فكانت محاضرة الدكتور محمود على مكى عن اسبانيا النصرانية فى مقتبس ابن حيان .

تناول الأب نوجالس فى جزء كبير من هذا المقال حياة الصوفى العربى الأشهر محيى الدين بن عربى بناء على قصتها كما أوردها آثين بلاسيوس فى دراسته

الذائعة الصيت عن الصوفى العربى الأكبر . والأب نوجالس يعجب إعجاباً شديداً بنشاط ابن عربى ووفرة إنتـاجه إلى رحلاته الواسعة التى حملته من الأندلس إلى المغرب إلى مصر إلى العراق إلى الحجاز إلى الشام وإلى بلاد البيزنطية حتى لقد بلغ عدد العواصم التى دخلها ودرس فيها أربعين عاصمة . ورغم هذا كله أنتج ابن عربى إنتاجاً ضخماً فى التأليف فقد كتب فيما يقال ٩٠٠ مؤلفاً بعضها مثل الفتوحات المكية يصل إلى ٣٠٠٠ صفحة وبعضها يتكون من فوق الستين جزءاً مثـل تفسيره الذى ضاع معظمه . ثم يتتبع الأب نوجالس تكوين ابن عربى الروحى والعاطفى والأساتذة أو الشيوخ الذين يعينون مراحل واضحة فى تطوره ويخص بالذكر أباه ثم زوجته مريم بنت محمد ابن عبدون بن عبد الرحمن الباجى وموسى ابن عمران المارتلى وأبا الحجاج يوسف ويذكر ما ذا تعلم من كل منهم ويقف طويلا عند لقـاء ابن عربى لصوفيين من طراز أبى العباس العريانى وأبى مدين وكذلك ما كان بينه وبين أبى الوليد ابن رشد فى اللقاء المشهور الذى أورد ابن عربى وصفه فى الفتوحات المكية . ثم يستطرد الأب نوجالس فيتابع ابن عربى فى رحلاته الكثيرة مشيراً فى كل مناسبة إلى الكتب التى ألفها فى كل موضع .

وأهم جزء فى المقال هو الخاص بابن عربى كحلقة وصل ثقافى بين الإسلام والغرب والكاتب لا يفرد لذلك فقرة خاصة بل يذكر التفاصيل المتصلة به على مراحل البحث بادئاً من الأول بأحد الأسماء التى كانت تطلق على ابن عربى وهو ابن افلاطون مستنتجاً من ذلك أن هذه التسمية تدل على العنصر اليونانى فى تكوين ثقافة ابن عربى . وهو يرى أن ابن عربى قد جمع كل العناصر الثقافية التى كانت موجودة فى عالم الإسلام فى ذلك الحين وهى عناصر تمثل كل الثقافة الانسانية فى ذلك العصر ففيه لمحات من أرسطو والفارابى وابن رشد والمعتزلة والغزالى والسهروردى وافلاطون وافلوطين وابن سينا وقال أننا لا نفهم تفكير ابن عربى إلا إذا عرفنا العناصر التى تكون هذا التفكير معرفة دقيقة

وهذا هو الذى فعله آثين بلاسيوس عندما كتب عن ابن عربى . وفى ختام المقال يشير الكاتب إلى أثر ابن عربى فى الفكر الأوربى وإلى نفر من الذين كتبوا فى ذلك الموضوع من أمثال آثين بلاسيوس وماسينيون وعثمان يحيى .

د. أحمد مختار العبادى : محمد الغنى بالله ملك غرناطة (ص ٤٢ — ١٠٢)

هذا هو القسم الثانى الذى ننشره من رسالة الدكتوراه الخاصة بالدكتور أحمد مختار العبادى فقد نشرنا فى العدد الماضى القسم الأول الخاص بالتاريخ العام لعصر محمد الغنى بالله الذى حكم مرتين الأولى من سنة ١٣٥٤ إلى سنة ١٣٥٩ والثانية من سنة ١٣٦٢ إلى ١٣٩١ فى هذا القسم يتنـاول الدكتور العبادى الحياة العسكرية فى غرناطة فيدرس تكوين الجيش وعناصره والأسطول وأعمال التحصينات والروح العسكرية عند شعب غرناطة ويلى ذلك الفصل الثانى عن الحياة الاجتماعية فى غرناطة فى أيام هذا السلطان فيتكلم عن السكان وعناصرهم وخصائصهم وعاداتهم وملابسهم وأعيادهم والأقلية المسيحية واليهودية فى غرناطة .

والفصل الثالث يدور حول الحياة الثقافية فى غرناطة أيام محمد الغنى بالله فيتكلم عن غرناطة والقاهرة اللتين كانتا مركزي الاشعاع الفكرى الإسلامي فى القرن الرابع عشر . أما بقية عناصر هذا الفصل فستنشر فى القسم الثالث والأخير من هذه الرسالة القيمة الذى سننشره فى العدد القادم من الصحيفة .

الدكتورة ر. أرييه : حول ملابس المسلمين فى اسبانيـا منذ سقوط غرناطة حتى اخراج المورسكيين (ص ١٠٣ — ١١٧)

بدأت المقال بالاشارة إلى ما ذكره ليفى بروفنصال فى تاريخ اسبانيا الإسلامية من صعوبات جمع المعلومات عن ملابس المسلمين فى الأندلس ثم أشارت إلى

مقال لها نشرته فى مجلة أرابيكا عن ملابس الأندلسيين فى عصر بني نصر ، ثم قالت أن مرجعها الأساسى فى دراسة ملابس المسلمين بعد سقوط غرناطة هى الرسوم التى صنفها فيليب دى فيجارنى فى المصلى الملكى فى كاتدرايلة غرناطة فقد صور فيها منظر تسليم غرناطة وبدت فى الصورة ملابس كثيرين جداً من المسلمين واضحة متقنة تمكن الانسان من وصفها وصفاً دقيقاً . واعتمدت كذلك على وصف رحلة قام بها طبيب ألمانى يسمى خيرونيمو مونزر سنة ١٤٩٤ أي بعد سقوط غرناطة بسنتين وقد وصف مونزر فى كتابه أحوال المسلمين فى غرناطة وملابسهم وصفاً دقيقاً . واعتمدت كذلك على مقال لجورج مارسيه عن ملابس المسلمين فى الجزائر وكذلك كتاب خوليو كارو باروخا المسمى المورسكيون وقد وردت هذه المراجع وغيرها فى هوامش المقال المكتوب بالاسبانية الذى نعرضه الآن .

ومن هذه المراجع يستنتج أن الناس كانوا يرتدون دراعات أشبه بالقمصان الطويلة من الصوف تصل إلى الركبة وأسفل ذلك المآزر جمع مئزر وهو شيء قريب من البنطلون وكانوا يلبسون فى أقدامهم الأخفاف ، أما العمائم فتكاد أن تكون إخصتاصاً للملوك والأمراء فهى تبدو فى رسوم المصلى الملكى على رؤوس الملك وحاشيته أما من عدا ذلك فاما كانوا عراة الرؤوس أو يلبسون أشياء أخرى غير العمائم . وأوردت الكاتبة فى ص ١٠٧ من البحث عبارة عظيمة الأهمية للسائح الألمانى مونزر تصف بكل دقة ملابس المسلمين فى الأندلس وقد قدر مونزر هذا عددهم فى غرناطة سنة ١٤٩٤ بخمسين ألفا أى أنهم كانوا الغالبية العظمى من السكان .

أما ملابس السيدات فقد وصفها رحالة بلجيكى زار الأندلس سنة ١٥٠٢ وقال أن ملابس النساء الغرناطيات المسلمات غريبة جداً فى نظره فهى عبارة عن غطاء سابغ من القماش الأبيض يغطى السيدة من رأسها إلى أقدامها مع وجود ثقب واحد أمام إحدى العينين لترى منه الطريق ويلبسن فى أقدامهن

أحذية ذات رقبة طويلة تصل إلى منتصف الساق . وتصف الكاتبة الاجراءات التى اتخذها ملوك اسبانيا لارغام الموريسكيين للتخلى عن ملابسهم التقليدية واصرار هؤلاء على التمسك بذلك حتى قال أندريس نفاجيرو سفير البندقية لدى شرلكان أن مسلمى غرناطة كانوا سنة ١٥٢٤ كما كانوا قبل سقوط بلدهم فى يد النصارى وقال أن معظم سكان البلد فى ذلك العصر كانوا من الموريسكيين لأن الارستقراطية القشتالية كانت تعيش إما فى قصور خارج البلد أو فى الضياع حولها . وقد وصف نفاجيرو هذا ملابس السيدات الموريسكيات فى نص ذى قمية كبيرة أتت به الكاتبة فى ص ١١٠ من المقال . وقالت الكاتبة أن ما يقوله نفاجيرو صحيح لأن لدينا مجموعة من النقوش على المعدن ترجع إلى سنة ١٥٢٩ عملها صائغ من أوغسبورج يسمى كريستوف فايدتس ونشرها فى كتاب رحلة له قام بها فى اسبانيا سنة ١٥٢٩ وهولندا سنتى ١٥٣١ / ١٥٣٢ وقد خص الموريسكيين الغرناطيين بسبع من ميدالياته نرى فيها رسومهم بملابسهم وعليهم الملحفات التقليدية وكانت بيضاء اللون ذات حافات رمادية ومن خلال فتحة الملحفة يرى بداخلها ثوب مزخرف بالذهب . وفى ميدالية أخرى نرى صورة موريسكية بملابسها وقد نشرت السيدة أربيه صورة هذه السيدة ضمن اللواحات الستة التى أرفقتها بالمقال .

وتتبعت الكاتبة تطور هذه الثياب وأشكالها معتمدة على مراجع أخرى كثيرة أوردتها فى مقالها وخاصة كتاب مارمول كارنجال عن ثورة الموريسكيين وما أصابهم بعدها وقد استفادت إلى أقصى حد من كل الكتب الإسبانية التى تناولت هذه الثورة واستصفت كل ما فيها من المعلومات عن ملابس الموريسكيين واستطاعت على هذه الصورة أن تصف ثيابهم إلى أوائل القرن السابع عشر أو إلى سنة ١٦٠٩ على الأقل وهى السنة التى أخرج فيها بقية الموريسكيين من الأندلس .

د. فرناندو دى لا جرانخا سانتاماريا : بيع جارية فى السوق ،
كما ورد فى مقامة لأبى البقاء الرندى (ص ١١٩ — ١٣٦)

تناول الدكتور فرناندو دى لاجرنخا الأستاذ بجامعة سرقسطة فى هذا المقال رسالة مسجوعة لأبى البقاء الرندى يصف فيها بيع جارية فى سوق مغربى وبدأ المقال بالكلام على كتاب الاحاطة للسان الدين ابن الخطيب وما يضمه من ثروة حافلة عن الأدب الأندلسى ثم قال أن المقرى أورد فى نفح الطيب الكثير من قطع النظم والنثر التى أوردها لسان الدين فى الإحاطة وخاصة فى الجزء الثانى من كتابه كما بين ذلك إميليو غرسيا جومث فى دراسته المعروفة عن ابن زمرك المنشورة فى كتاب خمسة شعراء مسلمين الذى نشره سنة ١٩٤٩

وأشار كذلك إلى أن المقتطفات التى يوردها ابن الخطيب والمقرى معظمها من الشعر وأقلها من النثر الفنى .

بعد ذلك يتحدث الكاتب عن أبى البقاء الرندى وهو صالح بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف صاحب المرثيـة المشهورة لبلاد الأندلس ومطلعها لكل شىء إذا ما تم نقصان وهى قصيدة مشهورة فى الأدبين العربى والاسبانى . وقال اننا كنا لا نعرف إلا القليل عن أبى البقاء الرندى حتى عثر إميليو غرسيا جومث على ترجمته فى الاحاطة ، مخطوطة الاسكوريال ، وهى ترجمة عرفها بعض باحثى العرب ولكنهم لم يفيدوا منها كما ينبغى وقد بين ذلك لا جرانخا فى مقاله . بعد ذلك يعرض الكاتب هذه الترجمة فيورد أطرافاً منها ثم يشير إلى أن ابن الزبير وابن عبد الملك استفادا منها وأتى بكلام كل منهما . ويقول أن ابن الخطيب يعطينا تاريخ ميلاد أبى البقاء وهو المحرم ٦٠١/سبتمبر ١٢٠٤ وتاريخ وفاته وهو ٦٨٤/١٢٨٥ — ١٢٨٦ ويأتى بعد ذلك بقطعة من شعر أبى البقـاء ونثره أخذها ابن الخطيب من كتابى أبى البقـاء المعروفين « الكافى فى علم القوافى » الذى تحدث عنه الأستاذ عبد الله كنون

فى مقال سابق نشر فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وكتاب «روضة الأنس ونزهة النفس» الذى أقتبس منه ابن الخطيب القطعة الخاصة بوصف جارية تباع بالسوق وعنه نقلها فرناندو دى لا جرانخا ونشرها محققة مترجمة إلى الاسبانية ومعلق عليها فى هذا المقال .

وقال دى لا جرانخا أن النص يتكون من رسالتين الأولى كتبها أبو بكر البرذعى يصف فيها مروره بالسوق ورؤيته لجارية جميلة تباع ثم كيف اشتراها شاب موسر مما أحزن صاحبنا فكتب إلى أبى البقاء رسالة مسجوعة يصور فيها ألمه فرد عليه أبو البقاء برسالة عزاء وأورد فيها وصفاً مماثلا لجارية أخرى بيعت فى السوق أمامه . وقد أورد دى لا جرانخا نص رسالة البرذعى مترجمة أيضاً ومعلقاً عليها قبل أن ينشر رسالة أبى البقاء .

د. نيفل باربر : أخبار الأندلس فى المدونات الانجليزية فى القرنين الثـانى عشر والثالث عشر الميلاديين (ص ١٣٧ — ١٤٨)

من منتصف القرن الثانى عشر يلاحظ أن حوالى عشرين من أصحاب المدونات التاريخية الانجليزية يدخلون اسبانيا فى أخبارهم ويوردون بين الحين والحين أخباراً شتى عن هذه البلاد وأحوالها . نعم أن هذه الأخبار قليلة ولكنها فى جملتها أخبار صحيحة لأنها تتصل بمساهمات انجليزية فى تاريخ اسبانيا فى تلك العصور . ويلاحظ أن هذه المدونات كانت تكتب إذ ذاك باللغة اللاتينية .

ويرى نيفل باربر أن سبب هذا الاهتمام بشئون اسبانيا فى المدونات الانجليزية يرجع إلى قيام الانجليز والفلمنكيين والألمان بحملات صليبية خاصة بهم ولجوئهم إلى استخدام طريق البحر من انجلترا إلى الأراضى المقدسة مباشرة بدلا من عبور فرنسا بالبر للذهاب إلى هناك . وفى هذه الحالة كان لابد لسفن هذه الحملات من أن ترسو فى سواحل اسبانيا . وفى بعض الأحيان كانت تشترك

فى الحوادث أثناء مقامها وربمـا قام رجالها بأعمال اعتداء ونهب على الأماكن التى يمروا بها ، ففى سنة ١١١٢ مثلا نجد أن جماعة من الانجليز نصف صليبية ونصف قراصنة تنزل فى جليقية وتنهب القرى والبلاد ثم تنضم إلى الثوار ضد الملكة أوراكة ويقوم رجالها بأعمال نهب وسرقات فى الكنائس .

وفى بعض الأحيان نلاحظ أن الأساطيل تطوف بسواحل اسبانيا كلها من جليقية إلى قتلونيا مارة بجبل طارق ومن هناك إلى مرسيليا ومنها إلى عكا . وفى بعض الأحيان نجد أن العواصف تلجئ هذه الأساطيل إلى اللجوء إلى الموانئ الاسبانية والاقامة فيها فترات طويلة .

وهناك عامل آخر أشار إليه نيفل باربر وهو بدء المصاهرات بين البيوت المالكة فى شبه الجزيرة والبيت المالك الانجليزى . ففى سنة ١١٥٩ مثلا تزوج هنرى الثامن ملك انجلترا من اليانور دوقة أكويتانيا فأصبحت هذه المنطقة — وهى تعدل الآن من حدود اسبانيا الشمالية الغربية إلى بوردو — جزءاً من المملكة الانجليزية وأصبحت انجلترا على حدود اسبانيا .

وفى سنة ١١٧٢ نجد أن هنرى الثانى يقف إلى جانب الفونسو الثامن ملك قشتالة ويعاونه على أعدائه وبعد ست سنوات نجد أن ملكي قشتالة وأراجون يستدعيان هنرى الثانى لكي يفصل فى منازعة قامت بينهما . وفى سنة ١١٩٠ تزوج ريشارد قلب الأسد برنجيلا أخت سانشو القوى ملك نبره وكانت علاقات سانشو القوى مع الموحدين علاقة حروب فاشترك ريشارد قلب الأسد مع صهره فى حروبه مع المسلمين .

وفى سنة ١٢١١ نجد سفارة مرسلة من الملك يوحنا الانجليزى فى بلاط الخليفة الموحدى يطلب معاونته ومن المعروف أن يوحنا هذا هو الذى اغتصب العرش من ريشارد قلب الأسد . وفى نفس الوقت نجد الملك سانشو ملك نبره يتقرب من الموحدين .

وينشر المؤرخ الانجليزى Osborne de Bawdsday خطاباً من رجل مجهول انجليزى يصف فيه حصار الانجليز لميناء الاشبونة والاستيلاء عليه من أيدى المسلمين سنة ١١٤٧ وهو خطاب هام ملئ بالتفاصيل وقد استعمله مؤرخون كثيرون وهو أول بيان واف لدينا عن اشتراك صليبيين انجليز فى الحروب بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا . ويذكر ابن عذارى فى تاريخه أن مراكب الصليبيين كانت دائماً تطوف بالسواحل الاسبانية وفى سنة ١١٨٩ نجد الملك سانشو الأول ملك البرتغال يستخدم الصليبيين الفلمنكيين والألمان للاستيلاء على شلب من أيدى المسلمين وفى العام الثانى أعد ريشارد قلب الأسد جيشاً ضخماً للسير به إلى فلسطين وقد خرجت عشر من سفن هذا الأسطول من ميناء دارتموث فى ربيع ١١٩٠ وعندما وصلت السفن إلى أمام شلب وجدت البلد فى يد النصارى فدخلوه ورحب بهم قس البلد واستطاع أن يقنع مئة انجليزى بالبقاء والاشتراك معهم فى حرب المسلمين . وفى ٢٤ يونيو ١١٩٠ استولى أولئك الانجليز على تورس نوفاس ثم حاصروا الأشبونة وجرت بينهم وبين المنصور الموحدى مفاوضات انصرفوا بمقتضاها عن شلب واستعادها المسلمون ويقول المؤرخ الانجليزى Roger of Howenden أن أمير المؤمنين انزعج من وجود الصليبيين إلى جانب البرتغاليين وفضل الانصراف عن استعادة الاشبونة كما كان يريد . وهنا يقول نيفل باربر أن ذلك يفسر لنا لماذا لم يستجب المنصور الموحدى لما طلبه إليه صلاح الدين من الاشتراك معاً فى الحرب ضد الصليبيين لأنه يبدو أن الخليفة خاف من قصد النصارى إياه وتجمعهم عليه .

وبعد ذلك بقليل نسمع أن ٦٣ مركباً انجليزياً رست فى الاشبونة بعد استيلاء البرتغال عليها ونهبوها نهباً ذريعاً وقتلوا نفراً من أهلها وخاصة من المسلمين واليهود الذين كانوا فيها .

ونجد عند روجر هوفندن تفصيلات كثيرة عن بلاد المسلمين فى الأندلس فيقول أن مملكة الخليفة الموحدى كانت مقسمة إلى أربعة ممالك هى قرطبة

وجيان ومرسية وبلنسية وكان يحكم فى كل منها ابن للخليفة . ويقول أن المرية كانت مشهورة بنسج الحرير ومالقة بصناعة الجلود المعروفة باسم Cordovanes ومن هنا جاء اللفظ الانجليزى Cordmainer لصناعة الأحذية و Cordonier الفرنسى . وختم المقال بتفصيل طريف عن أسطورة Herbert de Aurillac الذى تولى البابوية باسم البابا سلفستر الثانى ومجيئه إلى اسبانيا قبل أن يصبح بابا للدراسة على علمائها ولهذا خبر طويل قصه نيفل باربر فى الصفحات الأخيرة من بحثه .